)(الاسطول العربي)(

منذ فجر الاسلام حتى اواخر عهد المماليك

×××××××

رسالة قدمت الى دائرة التاريخ العربي
في كلية العلوم والاداب بجامعة بيروت الاميركية
لنيل شهادة استاذ في العلوم

بقلم
رفيق المعايني

بيروت في ٦ آذار سنة ١٩٤٢ ميلادية

توطئة للبحث

لقد تعجب الكثيرون عندما سمعوا اني اكتب عن " الأسطول العربي " وما اكثر الأسئلة التي عرضت علي " أصحيح ان للعرب اسطولا ؟ " وما هو ذاك الأسطول الذي كان عند العرب " ولو ان هذه الأسئلة صدرت عن جماعات غير مثقفين لما نوهت بها ولكن الكثيرين من الدارسين دراسات عاليه كانوا يعجبون عند ما تطرق آذانهم كلمة " الأسطول العربي "

لا غرابة في ذلك لأن ما كتب في هذه الناحية - سواء في الأزمنه القديمه ام في العصر الحاضر قليل جدا . وان الذين تعرضوا لهذا الموضوع كانوا يمرون به عرضا وبعضهم كان يقف هنيهة فيتوسع فيكتب فصلا لا يتجاوز بضع صفحات وهذا لا شك غير كاف لأقناع القارئ بوجود ذاك الأسطول الذي يتوخاه عند رؤية هذا العنوان الضخم " الأسطول العربي "

اننا اليوم في آونة حرب عنيفة طاحنة قائمة بين الدول العظمى في العالم وكل يوم نسمع باهمية الأساطيل عند تلك الدول المحاربة وما لها من التاثيرات في احراز النصر والتفوق على الآخرين فاذا سمع انسان كلمة " الأسطول العربي " يتبادر لذهنه حالا احدى هذه الأساطيل العالميه الموجوده الآن في الشرق او الغرب ويقارن هذه الأساطيل بالأسطول العربي القديم دون ان يعلم ان المقارنة يجب ان تكون بين شيئين في زمنين متقاربين . لذلك اذا ما خطر لنا تقدير قيمة الأسطول العربي يجب علينا مقارنته مع اساطيل الدول التي كانت في الأيام الغابرة لا مع اساطيل هذه الأيام .

ان الغاية من دراسة الأسطول العربي هي الكشف عن هذه الناحية الهامة من تاريخنا المجيد لمعرفة ما قام به اجدادنا العرب من مآثر في الأعمال البحرية وفي خدمة الأساطيل ليكون لنا معرفة بماضينا اللامع لنبني على اركانه اساس نهضتنا الحاضرة . وقد حاولت في دراسة هذا الموضوع ان اورد ما كتبه المؤرخون القدماء في تضاعيف كتبهم عن الأسطول وكان جل عملي في جمع تلك المادة المبعثرة في ثنايا الأ المصادر الأولية وتنسيقها وترتيبها في ابحاث مبوبه منظمه وصوغها باسلوب يتفهمه القارئ وعرضها عرضا علميا موضوعيا لا يتناهى الى الخيال الشعري او التنسيق الأدبي بل هي الحقيقة التي ذكرها المؤرخون القدماء ووصفوها في كتبهم .

اني على يقين ان هناك كتبا كثيرة فاتتني قراءتها لأن بعضها مخطوط لم ينشر بعد وبعضها مخزون مخبأ في زوايا المكاتب التي لا تستطيع ايدي العلماء الوصول اليها . وكتب اخرى لم اتوصل اليها لعدم وجودها في مكتبة الجامعة الأميركية او ما يجاورها من المكاتب الهامه الأخرى . وان ما قمت به في دراستي للأسطول ما هو الا خطوة اولى للكشف عن هذه الناحية الهامة في حياتنا العلميه والقوميه يستطيع متابعتها من اراد التخصص والتوسع فيها في المستقبل .

وفيما يلي لا ئحة المصادر الأولية والثانوية التي اعتمدتها في دراسة هذا الموضوع وقد رتبت الأولية منها بحسب أقدمية مؤلفيها ونسقت الثانوية بحسب قدم طبعها وذكرت علاوة عن ذلك مكان طبعها وزمنه ومن اهتم بنشرها ليسهل على الباحث الراغب في الأطلاع والتوسع في الموضوع الوصول الى تلك المصادر على الوجه الصحيح .

ـ لائحة المصادر ـ

المصادر الاولية

فتوح البلدان = احمد بن يحي بن جابر البغدادي الشهير بالبلاذري توفي سنة ٢٧٩هـ ٨٩٢م ـ كتاب فتوح البلدان الطبعة الاولي مطبعة الموسوعات بمصر ٠ سنة ١٣١٩هـ ١٩٠١م

سلسلة التواريخ = سليمان التاجر ـ وابو زيد حسن السيرافي ٠ من القرن الثالث الهجري ـ سلسلة التواريخ دار الطباعة السلطانية باريز سنة ١٨١١م ـ ترجمه ونشرة M. Reinaud

عجائب الهند = بزرك بن شهريار الناخداه الرام هرمزي من اهل القرن الثالث الهجري ـ عجائب الهند بره وبحر الطبعة الاولي بمطبعة السعادة بمصر سنة ١٣٢٦هـ ١٩٠٨م

المسالك = ابو القاسم عبيد الله بن عبد الله بن خرداذبه ـ توفي حوالي سنة ٣٠٠هـ ٩١٢م ـ المسالك والمما لك طبع بمدينة ليدن بمطبعة بريل سنة ١٣٠٦هـ

تاريخ الطبري = ابو جعفر محمد بن جرير الطبري ـ ٣١٠هـ ٩٢٢م ـ تاريخ الرسل والملوك نشره دوغويه في مطبعة بريل سنة ١٩٠١م

الاصطخري = ابو اسحاق ابراهيم بن محمد الفارسي الاصطخري ـ نبغ سنة ٣٧٥هـ ٩٨٥م ـ مسالك الممالك نشره دي غوية ودوزي في ليدن سنة ١٩٠٦م

مروج = ابو الحسن علي بن الحسين بن علي المسعودي ـ توفي سنة ٣٤٦هـ ٩٥٧م ـ مروج الذهب ومعادن الجو طبع بدار الرجاء بمصر سنة ١٣٥٧هـ

صورة الأرض = ابو القاسم بن حوقل النصيبي ٣٦٧ هـ ٩٧٧ م ـ صورة الأرض ـ طبع بمدينة ليدن بمطبعة بريل سنة ١٩٣٩ م

احسن التقاسيم = ابو عبد الله محمد بن احمد بن ابي بكر البنا المقدسي نبغ سنة ٣٧٥ هـ ٩٨٥ م ـ احسن التقاسيم في معرفة الأقاليم نشره دي غويه ودوزي في ليدن سنة ١٩٠٦ م

زهر الآداب = ابو اسحاق الحصري القيرواني ـ ٤٥٣هـ ١٠٦١م ـ زهر الاداب وثمر الالباب ـ نشره الدكتور زكي مبارك المطبعة الرحمانية بمصر سنة ١٣٠٢ هـ

الادريسي = ابو عبد الله محمد بن محمد بن عبد الله بن ادريس الصقلي ـ ٥٦٠هـ ١١٦٤م ـ نزهة المشتاق في اختراق الافاق نشره دي غوية ودوزي في مدينة ليدن بمطبعة بريل سنة ١٨٦٦م

قوانين = شرف الدين ابي المكارم بن مماتي ـ سنة ٦٠٦هـ ١٢٠٩م ـ قوانين الدواوين مطبعة ادارة الوطن بمصر سنة ١٢٩٩هـ

رحلة ابن جبير = ابو الحسين محمد بن جبير الاندلسي ـ ٦١٤هـ ١٢١٧م ـ رحلة ابن جبير مطبعة السعادة مصر سنة ١٣٢٦هـ ١٩٠٨م

معجم البلدان = ابو عبد الله ياقوت الرومي الحموي ـ ٦٢٦هـ ١٢٢٨م ـ معجم البلدان الطبعة الاولى بمطبعة السعادة بمصر سنة ١٣٢٤هـ ١٩٠٦م

الكامل = ابو الحسن علي بن ابي الكرم المعروف بابن الاثير ـ ٦٣٢هـ ١٢٣٤م ـ الكامل في التاريخ المطبعة الكبرى بمصر سنة ١٢٩٠ هـ

سيرة صلاح الدين = بهاء الدين المعروف بابن شداد ـ ٦٣٢هـ ١٢٣٤م ـ سيرة صلاح الدين الايوبي المسماة بالنوادر السلطانية والمحاسن اليوسفية مطبعة المؤيد بمصر سنة ١٣٤٧هـ

المختصر = الملك المويد عماد الدين اسماعيل ابي الفداء ـ ٧٣٢هـ ١٣٣١م ـ المختصر في اخبار البشر المطبعة الحسينية المصرية سنة ١٣٢٥هـ

رحلة ابن بطوطة = ابو عبد الله محمد بن عبد الله المعروف بابن بطوطة ـ ٧٧٧هـ ١٣٧٧م ـ تحفة النظار في غرائب الامصار وعجائب الاسفار المطبعة الخيرية بمصر سنة ١٣٢٢هـ

العبر والمقدمة = عبد الرحمن بن خلدون المغربي ـ ٨٠٨هـ ١٤٠٥م ـ كتاب العبر وديوان المبتدأ والخبر في ايام العرب والعجم والبربر دار الطباعة الخديوية بولاق سنة ١٢٨٤هـ

صبح الاعشى = ابو العباس احمد القلقشندي ـ ٨٢١هـ ١٤١٨م ـ صبح الاعشى المطبعه الأميريه بالقاهره سنة ١٣٣٣ هـ

تاريخ بيروت = صالح بن يحي ـ ٨٤٠ هـ ١٤٣٦ م ـ تاريخ بيروت نشره الأب شيخو الطبعة الثانيه المطبعه الكاثوليكه ببيروت سنة ١٩٢٧ م

الخطط = تقي الدين احمد بن علي المقريزي ـ ٨٤٥ هـ ١٤٤١ م ـ كتاب الخطط والآثار في مصر والقاهره جزئين بولاق سنة ١٢٧٠ هـ

السلوك = المقريزي كتاب السلوك في معرفة دول الملوك ترجمه Quatremère: Histoire des Sultans Mamlouks de l'Egypte. Paris, 1845

النجوم = ابو المحاسن يوسف بن تغري بردي الاتابكي ـ ٨٧٤هـ ١٤٦٩م ـ النجوم الزاهرة في ملوك مصر والقاهرة نشره وليام بيير مطبعة جامعة كاليفورنية سنة ١٩٣٢م

حوادث = ابو المحاسن يوسف بن تغري بردي ـ حوادث الدهور في مدى الايام والشهور نشره وليام بيير مطبعة جامعة كاليفورنية سنة ١٩٣١م

الروض = ابن عبد المنعم الحميري ـ ٩٠٠هـ ١٤٩٤م ـ صفة جزيرة الاندلس منتخبة من كتاب الروض المعطار مطبعة لجنة التاليف والنشر القاهرة سنة ١٩٣٧م نشره ليفي بروفنصال

بدائع الزهور = محمد بن احمد بن اياس ـ ٩٣٠هـ ١٥٢٣م ـ بدائع الزهور في وقائع الدهور الطبعة الاولى بولاق مصر سنة ١٣١٢هـ

الفوائد = شهاب الدين احمد بن ماجد ـ ٩٠٠هـ ١٤٩٤م ـ كتاب الفوائد في اصول البحر والقواعد نشره فراند في باريز سنة ١٩٢٣ م

العمدة المهرية = سليمان المهرى توفي حوالي سنة ٩٦١هـ ١٥٥٣م العمدة المهرية في ضبط العلوم البحرية نشره فراند في باريز سنة ١٩٢٥م

الف ليلة = الف ليلة وليلة الطبعة الثانية المطبعة الكاثوليكية في بيروت سنة ١٩٠٩م

العرف = كتاب العرف الطيب في شرح ديوان ابي الطيب نشره الشيخ ناصيف اليازجي المطبعة الادبية بيروت سنة ١٣٠٥

ديوان ابي نواس = ديوان ابي نواس شرحه محمود واصف الطبعة الاولي المطبعة العمومية بمصر سنة ١٨٩٨م

ديوان ابن الرومي = ديوان ابن الرومي اختيار وتصنيف كامل كيلاني مطبعة التوفيق الادبية بمصر سنة ١٩٢٤م

المصادر العربية الثانوية

دائرة المعارف = البستاني دائرة المعارف المطبعة الادبية في بيروت سنة ١٨٨٧م ١٣٠٥هـ

حقائق الاخبار = الميرالاى اسماعيل سرهنك حقائق الاخبار عن دول البحار الطبعة الاولي المطبعة الاميرية بولاق ١٣١٢هـ

التمدن = جرجي زيدان تاريخ التمدن الاسلامي الطبعة الثالثة مطبعة الهلال مصر سنة ١٩٢٢م

حضارة العرب = عبد الرحمن البرقوقي حضارة العرب في الاندلس المكتبة التجارية مصر سنة ١٣٤١هـ ١٩٢٣م

خطط الشام = محمد كرد علي خطط الشام مطبعة الترقي بدمشق سنة ١٣٤٦هـ ١٩٢٧م

معاوية = عمر ابو النصر معاوية بن ابي سفيان المطبعة الوطنية بيروت سنة ١٣٥٥هـ ١٩٣٦م

بيبرس = محمد جمال سرور الظاهر بيبرس وحضارة مصر في عصره مطبعة دار الكتب القاهرة ١٩٣٨م

النظم الاسلامية = حسن ابراهيم حسن وعلي ابراهيم حسن النظم الاسلامية الطبعة الاولي مكتبة النهضة المصرية مصر ١٣٥٨هـ

الحضارة الاسلامية = ادم متز الحضارة الاسلامية في القرن الرابع الهجرى ترجمه ابو ريدة مطبعة لجنة التاليف والترجمة والنشر القاهرة ١٣٥٩هـ ١٩٤٠م

المجلات

المقتطف = المقتطف مجلد ١٦ ج ٥ شباط سنة ١٨٩٢ م " مدينة عيذاب وصحراوها "

= = المقتطف مجلد ٦٣ ج ٤ سنة ١٩٢٣م " مقالة امين الخولي . الاسلحة النارية في الجيوش الاسلامية "

مجلة الجامعة المصرية = الجامعة المصرية مجلة كلية الاداب المجلد الاول الجزء الاول سنة ١٩٢٣م

العراق الجديد = مجلة العراق الجديد العدد الاول السنة الاولي سنة ١٩٣٩م "مقالة جياد الطائي الاسطول العربي الاول"

المجلة الاسيوية الملكية The Journal of the Royal Asiatic Society. January 1939. Moreland. "The Ships of the Arabian Sea".

المعاجم والكتب المساعدة

لسان العرب = ابو الفضل جمال الدين محمد بن مكرم بن منظور ٧١١ه ١٣١١م ـ لسان العرب الطبعة الاولى بالمطبعة الكبرى ببولاق سنة ١٣٠٠ه

تاج العروس = محب الدين ابي الفيض الواسطي الزبيدى ـ تاج العروس من جواهر القاموس الطبعة الاولى في المطبعة الخيرية بمصر سنة ١٣٠٦ ه

المحيط = بطرس البستاني محيط المحيط طبع في بيروت سنة ١٢٨٦ه ١٨٧٠م

ملحق دوزى = R. Dozy: Supplément aux Dictionnaires Arabes.Leyde,Brill 1881

الالفاظ الفارسية = السيد ادى شير كتاب الالفاظ الفارسية المعربة المطبعة الكاثوليكية بيروت سنة ١٩٠٨م

سركيس = معجم المطبوعات العربية والمعربة مطبعة سركيس بمصر سنة ١٣٤٧ه ١٩٢٨م

Lane-Poole. The Mohammadan Dynasties. London 1894

E. Mabler vergleichungs-Tabellen. Leipzig 1926.

المصادر الاجنبية الثانوية

H. Coppée. History of the Conquest of Spain by The Arabs-Moors. Boston 1881

W. Heyd. Histoire du Commerce du Levant au Moyen-Age. Trans.par F. Raynaud Leipzig 1886
Coppée

H. Lammens. Remarques sur les Mots Français dérivés de l'Arabe.Beyrouth 1890

Scott. History of the Moorish Empire in Europe. Philadelphia 1904
Scott

N. Barnaby: Naval Development in the Century. London 1904
Naval

Chau-Ju-Kua : Chu-Fan-Chi, on the Chinese and Arab Trade in twelfth and thirteenth Centuries. Trans. from the Chinese annotated by F. Hirth and w. Rockhill, St. Petersburg 1911
Chau-Ju-Kua

Von Kremer. The Orient under the Caliphs, trans. by Bukhsh. University of Calcutta 1920
The Orient

Becker: Cambridge. Med. Hist. Cambridge University 1923 Vol. II

Brooks. Camb. Med. Hist. Vol. IV.
Cambridge.

The Travels of Marco Polo. Revised from Marsden's. Marco Polo. Trans. by M. Komroff. New-York 1926

رحلة ماركو بولو

G. Ferrand. Introduction à l'Astronomie Nautique Arabe. Paris 1928
Ferrand

Van Berchem: Corpus inscriptionum Arabicarum 1e. Pt. Egypt. Tome 2è Caire 1930
Corpus

Ph. K. Hitti, History of the Arabs. London 1937

تاريخ العرب

Nallino. Encyclopaedia of Islam "Asturlab".

الموسوعة الاسلامية

D. Hannay: Encyclopedia Britannica 11th. Ed. "Navy"

الموسوعة البريطانية

منهاج البحث

رقم الصحيفة

رقم الصحيفه

رقم الصحيفه

xxxxxxxxxxxxxxxxxxxxxxxx

تعريف الاسطول

ان كلمة " الأسطول " ماخوذه من اللفظ اليوناني (Stoly) و Stolos وهي اسم رداء طويل كانت نساء الرومانيين يلبسنه وهو اشبه بقلع المركب(١) ويجمع ابن خلدون كلمة اسطول على اساطيل فهو يقول " وكان قاع الأساطيل بالأندلس ابن رماحس" ٢ وسبقت الأساطيل الى الجزائر فملكوها " ٣ " واتصل به ان العدو اوعز الى اساطيله .... واستدعى اساطيله " ٤ " وركب اساطيله الى تونس ... ثم توالت الأساطيل بمرسى قرطاجنه " ٥

وقد تطور معنى هذه الكلمه في خلال العصور فقد كانت في القديم تطلق على انواع المراكب الحربيه فحسب يقول ابن خرداذبه في تعريفه " ومقدار مايغزو في الغزاة من مراكب الثغور الشاميه مايجتمع منها الأسطول كما يسمى ما يجتمع من الجيش في البر العسكر " ٦

اذن الأسطول اسم يدل على مجموع المراكب الحربيه التي تجتمع للغزو والقتال في البحر . ويؤيد هذا القول ايضا ماذكره المسعودي في كتاب التنبيه والأشراف في معنى الأسطول يقول " انها كلمة رومية وهي سمة للمراكب الحربيه المجتمعه " ٧ . ويعرف المقريزي الأسطول بقوله " المراكب الحربيه يقال لها اسطول ولا احسب هذا اللفظ عربيا " ٨

واما ابن خلدون فيطلق كلمة اسطول على المراكب الحربيه على اختلاف الأغراض الحربيه التي تستعمل فيها فتارة تستعمل لتدل على المراكب التي تحمل الرجال والمقاتله كما يدل القول الآتي " وفي سنة (٥٨٥) ظفر العدو بجزيرة ميورقه ركب اليها طاغية برشلونة اساطيله في عشرين الفا من الرجال المقاتله ومروا بميورقه كلنعلم بحر من البحار " ٩ . وحينا تستعمل لتدل على مجموع مراكب قطر من الأقطار يقول " انتهى اسطول الأندلس في زمن عبد الرحمن الناصر الى مئتي مركب " ١٠ وتارة تستعمل لتدل على المراكب التي تنقل الميرة او تشحن الرجال والذخيرة يقول " وصل اسطول مصر بالميرة بعد اخذ طرابلس بثمانية ايام ... وذلك انه وصل اسطول للافرنج من ستين مركبا مشحونه بالرجال والذخائر " ١١

واخيرا يطلق ابن خلدون كلمة اسطول ليدل بها على مركب واحد فيقول " وصله من المرية بعشرة اساطيل " ١٢ " جهزله بعد ذلك ما ة وثمانين اسطولا " ١٣ و " كانت اساطيلهم تلثما ة بين كبار وصغار " ١٤ و كانوا فيما قبل سبعين اسطولا من غربان وعواني " ١٥ " استدعى اساطيله فتوافت منها ستة وثلاثون اسطولا " ١٦

---

١ - هامش السلوك ج ١ قسم ١ ص١٥٧ و دائرة المعارف مادة " اسطول " والتمدن ج ١ ص١٩٥

٢ - المقدمه ص٢١٠ ٣ - العبر ج ٦ ص٢٤٣ ٤ - نفس المصدر ج ٧ ص٢٠٨ ٥ - نفس المصدر ج ٦ ص ص٢٩٢ ٦ - المسالك ص٢٥٥ ٧ - هامش السلوك ج ١ قسم ١ ص١٥٧ ٨ - الخطط ج ٢ ص١٨٩ ٩ - العبر ج ٦ ص [illegible] ٢٠٦ ١٠ - المقدمة ص٢١١ ١١ - العبر ج ٥ ص١٩٣ ١٢ - نفس المصدر ج ٦ ص٣٣١ ١٣ - نفس المصدر ج ٦ ص ٢٤٦ ١٤ نفس المصدر ج ٦ ص٢٩٢ ١٥ - نفس المصدر ج ٦ ص٢٠٦ ١٦ نفس المصدر ج ٧ ص٢٠٨ وهامش السلوك ج ١ قسم ١ ص١٥٧

اما مفهوم الاسطول في العصر الحديث فيتناول المراكب الحربية والتجارية يقول المعلم بطرس البستاني " الاسطول عبارة عن مجموعة سفن معدة للحرب او للتجارة " ١ وهو مفهوم لا ينطبق علي العصور التي ادرس فيها الاسطول العربي ولذا ساكتفي في بحثي عن الاسطول العربي بدرس الاسطول الحربي فقط دون التعرض لتجارة العرب البحرية وما يتعلق بهذه التجارة من الابحاث . وتتمثل هذه الفكرة في تعريف هني للاسطول يقول " الاسطول Navy بمعناه الاصلي هو مجموع السفن مهما كان نوعها سواء كانت تستعمل في الحروب او لعبور البحر او لصيد السمك الا ان العادة جرت ان تطلق هذة الكلمة علي المراكب الحربية فقط " ٢

وقد يضيف المؤرخون اسما او صفة لكلمة اسطول ليدلوا به علي نوع الاسطول الذي يبحثون عنه . فابن خلدون مثلا يقول الاسطول المصري واسطول الافرنج في عبارتيه الاتيتين " وحاصروا (الفرنج) طرابلس ونصبوا عليها الأبراج فاشتد بهم الحصار وعدموا القوت لتاخر الاسطول المصري بالميرة ... " ٣ ويقول " وصل اسطول الافرنج " ٤ ويقول ابن الأثير " ظفر اهل الاسكندرية وعسكر مصر باسطول الفرنج " ٥ . ويقول ابن عداد اسطول مصر ٦ واسطول الكفار ٧ واسطول العدو ٨ والاسطول الاسلامي ٩ ليدل علي نوع الاسطول الذي يتكلم عنه .

وكلمة اسطول تتضمن انواعا عدة من المراكب بعضها معد لحمل المقاتلين والحرب واخري معدة لحمل الخيل والامتعة وانواع اخرى مبنية لشحن الازودة والسلاح ١٠ ولكل نوع من هذه المراكب اسما ١٠ وانواعا خاصة ساتكلم عنها فيما بعد .

ومن كلمة اسطول اشتقت كلمة " اسطولي " وهو الرجل المنتسب الي الاسطول ١١ وهي تقابل كلمة جندي فكلمة جندي تطلق علي المحارب في الجيش البري وكلمة اسطولي تطلق علي المحارب في البحر ١٢ وفي اخر الدولة الايوبية بعد موت السلطان صلاح الدين يوسف بن ايوب قل الاهتمام بامر الاسطول وصارت خدمة الاسطول عارا يسب بها الرجال فاذا قيل لرجل في مصر يا اسطولي غضب غضبا عديدا بعد ما كان خدام الاسطول يقال لهم المجاهدون في سبيل الله والغزاة في اعداء الله ويتبرك بدعائهم الناس ١٣

ويعلل حسن ابراهيم حسن هذا النفور من كلمة اسطول بقوله " ويظهر ان تلك الكراهية انما جاءت علي اثر تحول الحروب الصليبية الي مصر فاذا قيل لرجل يا اسطولي فكانهم قالوا له انت مثل هذا الرجل الذي جاء في الاساطيل ١٤ " اما المقريزي فيعزوا النفور من هذه الكلمة لقلة شأن الاسطول وانحطاط الخدمة فيه . ١٥ في ايام الايوبيين الاخيرة وشبيه بكلمة اسطول يستعمل المؤرخون كلمة عمارة او تعميرة ليدلوا بها علي معني الاسطول .

---

١ - دائرة المعارف ج٣ مادة " اسطول " ٢ - الموسوعة البريطانية مادة " Navy " ٣ - العبر ج٥ ص١٩٤
٤ - نفس المصدر ص٥٥ ٥ - الكامل ج١١ ص١٦٧ ٦ - سيرة صلاح الدين ص٥٥ ٧ - نفس المصدر ص٥٥
٨ - نفس المصدر ص١٠٠ ٩ - نفس المصدر ص ١٥٤ وايضا الخطط ج١ ص٣٢١ ١٠ - الكامل ج١١ ص ١٦٧
١١ - ملحق دوزي مادة " اسطول " ١٢ - هامش السلوك ج١ قسم١ ص١٥٧ ١٣ - الخطط ج٢ ص١٩٤ والتمدن ج١ ص١٩٧
١٤ - النظم الاسلامية ص٢٥٢ ١٥ - الخطط ج٢ ص١٩٤

عمارة

وتستعمل كلمة عمارة او تعميرة في بعض المصادر بدلا عن كلمة اسطول بمعني الطائفة من السفن الحربية التي تكون معا ١ وترد هذه اللفظة كثيرا في كتاب صالح بن يحي فهو يقول " فوافا خبر العساكر القادمة الي بيروت حضر العمارة فلم يتعرضوا للنزول الي البر وتوجهت التعميرة الي جهة قبرس والماغوصة " ٢ ويقول ايضا فتوجهت التعميرة المذكورة الي العلايا " ٣ ويقول " وعندما تسهلت التعميرة بمصر "٤

وقد يضاف الي كلمة تعميرة اسما او صفة لتدل علي نوعها يقول صالح بن يحي تعميرة الجنوية ٥ وتعميرة مصر ٦ وتكون التعميرة مولفة من مراكب مختلفة الانواع والعدد بعضها يستعمل للحروب والاخرى للحمل والنقل ٧ كما هي الحالة في مراكب الاسطول .

وليس هناك اي اختلاف بين كلمة اسطول وتعميرة وانما هما كلمتان مترادفتان لمعني واحد وقد غلب استعمال كلمة تعميرة عند بعض المؤرخين المتاخرين مع بقاء استعمال كلمة اسطول شائعة عند الجميع .

هذا هو تعريف الاسطول والتعميرة عند قدماء المؤرخين وهما كما رايت يدلان علي مجموع السفن الحربية المعدة للقتال في البحر وما يتبعها من مراكب لحمل الازودة والمتاع والكراع والسلاح .

ولننتقل الان لتحديد الزمان والابحاث التي سنعالج فيها تاريخ الاسطول العربي .

ان الحدود الزمنية لتاريخ الاسطول العربي تبتدئ من فجر الاسطول منذ ان عرف المسلمون البحر وغزوا فيه الي اواخر عصر المماليك اي الي سنة ٩٢٢ هـ ١٥١٧م .

اتناول البحث عن الاسطول في المسائل التالية

١ ـ وصف مراكب الاسطول .

٢ ـ ذكر معداته

٣ ـ دار الصناعة

٤ ـ قيادة الاسطول

٥ ـ ~~نظام الاسطول وحيويته خلال العصور العربية~~ ادارة الاسطول .

٦ ـ عمليات الاسطول الحربية

ان هذا التقسيم الذي اتبعته في طرق الموضوع هو تقسيم اصطناعي الغاية منه تجزئة البحث الي اقسام مستقلة ليسهل درسها والبحث عنها . الا ان هذه الاقسام هي في الحقيقة وحدة متصلة ومتكاملة لا ينفك بعضها عن بعض . ويتالف من مجموعها صورة الاسطول العربي .

---

١ ـ المحيط مادة " عمر " ٢ ـ تاريخ بيروت ص ٢٣٥ ٣ ـ نفس المصدر ص ٣٧ ٤ ـ نفس المصدر ص ٢٢٠

٥ ـ نفس المصدر ص ٣٥ ٦ ـ نفس المصدر ص ٢٢١ و ٢٢٠ ٧ ـ نفس المصدر ص ٣٨ و ٢٢٢

صورة الاسطول

اذا حاولنا ان نضع صورة عامة للاسطول العربي نتخيل بها ما كان عليه الاسطول في الزمن القديم نعود الي الشعراء الشعراء والادباء ونلتمس منهم تلك الصورة لأنهم اقدر علي التصوير لمظاهر الأسطول الخارجية من المؤرخين الذين يغوصون علي اجزاء الاسطول ودقائقه ويسرد حوادثه واخباره . لذلك قبل الدخول مع المؤرخين في تفاصيل البحث ساعرض بعض القطع الأدبية من قصائد ونماذج نثرية تكشف لنا معني الاسطول . ثم ننتقل لدرس حقيقة ذاك الاسطول وما كان عليه في نظر المؤرخين القدماء .

وقد امتاز شعراء المغاربة واخص منهم الاندلسيين في وصف الأساطيل علي شعراء اهل المشرق وذلك لان المغاربة قد عانوا البحار وعرفوها ومنهم من ركبها بنفسه فصار عندهم شعور ومقدرة علي وصفها واظهار حقيقتها . هذا من ناحية ومن ناحية اخرى لان اساطيل المغرب قد لعبت دورا هاما في الحياة السياسية واثرت علي نفوس الجماهير بعظمتها وفخامتها والتحدث في انتصاراتها وقد اثر هذا الشعور في نفوس المغاربة وسرى منهم الي قلوب شعرائهم فصاغوه شعرا . نذكر من نماذجه قصيدة ابي القاسم محمد بن هاني الاندلسي الذي يقول في وصف الاسطول [1]

اما والجواري المنشآت التي سرت	لقد ظاهرتها عدة وعديد
قباب كما ترخي القباب علي المها	ولكن من ضمت عليه اسود
عليها غمام مكفهر صبيره	له بارقات جمة ورعود
انافت بها اعلامها وسما لها	بناء علي غير العراء مشيد
من الراسيات الشم لولا انتقالها	فمنها قنان شمخ وريود
من الطير الا انهن جوارح	فليس لها الا النفوس مصيد
من القادحات النار تضرم للصلي	فليس لها يوم اللقاء خمود
اذا زفرت غيظا ترامت بمارج	كما شب من نار الجحيم وقود
فانفاسهن الحاميات صواعق	وانفاسهن الزافرات حديد
لها شعل فوق الغمار كانها	دماء تلقتها ملاحف سود
تعانق موج البحر حتي كانه	سليط له فيه الذبال عتيد
تري الماء فيها وهو قان عبابه	كما باشرت ردع الخلوق جلود
فليس لها الا الرياح اعنة	وليس لها الا الحباب كديد
وغير المذاكي نجرها غير انها	مسومة تحت الفوارس قود
رحيبة مد الباع وهي نتيجة	بغير شوى عذراء وهي ولود
تكون عن نقع يثار كانها	موال وجرد الصافنات عبيد

---

[1] = زهر الاداب ج ٤ ص ١٣٧ وايضا حضارة العرب ص ١١-١٤

لها من عقوق العبقري ملابس	مفوفة فيها الـ[illegible] النضار جسيد
كما اعتملت فوق الارائك خرد	او التفعت فوق المنابر صيد
لو لبوس تكف الموج وهو غطامط	وتدرأ باس اليم وهو عديد

لقد وصف ابن هاني مراكب الاسطول بانها كالجبال الراسيات لها اشرعة تجري فوق الماء بالريح كالطيور الجارحة سريعة الجري اعلامها مرتفعة وهي عذراء ولود ثم تقدم لوصف رجالها بانهم شجعان كالاسود مرتدين الدروع لابسين الاسلحة والجواشن كثيري العدد والعدة ويصلون العدو بنار لاتطفأ بالماء ويقتلون العدو حتي يصبغوا ماء البحر بدمائه =

ثم هناك قصيدة علي بن محمد الايادي التي وصف بها اسطول القائم فاجاد ما اراد وقال

اعجب لاسطول الامام محمد	ولحسنه وزمانه المستغرب
لبست به الامواج أحسن منظر	يبدو لعين الناظر [illegible] المستعجب
من كل مشرفة علي ما قابلت	اشراف صدر الاجدل المتنصب
دهماء قد لبست ثياب تصنع	تسبي العقول علي ثياب ترهب
من كل [illegible] ابيض في الهواء منشر	منها واسحم في الخليج مغيهب
كمراة في البر يقطع سيرها	في البحر انفاس الرياح العذب
محفوفة بمجادف مصفوفة	[illegible] في الجانبين دوين صلب صلّب
كقوادم النسر المرفوف عريت	من كاسيات رياشه المتهدب
وتحثها ايدي الرجال اذا ونت	بمصعد منه بعيد مصوب
خرقاء تذهب ان يد لم تهدها	في كل [illegible] أوب للرياح ومذهب
جوفاء تحمل كوكبا في جوفها	يوم الرهان وتستقل بمركب
ولها جناح يستعار يطيرها	طوع الرياح وراحة المتطرب
يعلو بها حدب العباب مطارة	في [illegible] كل لج زاخر مغلولب
تسمو باجرد في الهواء متوج	عريان منسوج الذوابة شوزب
يتركب الملاح منه ذبابه	لو رام يركبها القطا لم يركب
فكانما رام استراقة مقعد	للسمع الا انه لم يشهب
وكانما [illegible] جن ابن داود هم	ركبوا جوانبها باعنف مركب
سجروا جواحم نارها فتقاذفوا	منها بالسن مارج متلهب
من كل مسجور الحريق اذا انبري	من سجنه انصلت انصلات الكوكب
عريان يقذفه الدخان كانه	صبح يكر علي الظلام الغيهب
ولواحق مثل الاهلة جنح	لحق المطا ليفا ئتات المهرب

يذهبن فيما بينهم لطاقة ويجئن فعل الطائر المتقلب
كشلاله كمثا شرالحيات رحن لواعبا حتي يفض بيوك ماء الميزب
شرجوا جوانبه مجادف اتعبت شاو الرياح لها واما تتعب
تنصاع من كثب كما نفر القطا طورا وتجتمع اجتماع الربرب
والبحر يجمع بينها فكانه ليل يقرب عقربا من عقرب
وعلي كواكبها اسود خلافة تختال في عدد السلاح المرهب
فكانما البحر استعار بزيهم ثوب الجمال من الربيع المذهب [١]

لقد وصف الايادي المراكب بانها سوداء تسير بالمجاذيف المصفوفة علي جانبيها تحتها ايدي الرجال وهي اشبه بالطير في جريها وتكون طوع الرياح وهي عند الحرب تقذف نارا ترمي بها الأعداء وتحرقهم بلهيبها وعليها رجال ابطال يختالون في اسلحتهم وعددهم وهم اسود الخلافة الفاطمية .

ان وصف الايادي هذا شبيه بوصف ابن هاني السابق اذ ان الاغراض عند الاثنين علي العموم متقاربة فكلاهما وصف المراكب والرجال المقاتلين عليها . والاسلحة المزودين بها . الا ان احدهما توسع في بعض النواحي في حين الاخر اوجز بها ومجموع الصورتين يعطيانا فكرة عامة عن مظاهر الاسطول .

وهناك قطعة نثرية رواها المقريزي من رسالة كتبها اخو زكي الدين الحسين سنة ٣٦٢هـ تعطينا فكرة عن انواع مراكب الاسطول كل منها علي حدة يقول " ولا تنس الجواري المنشآت في البحر كالاعلام التي تسبق عند طياب الرياح مفوقات السهام واعجابها بغربانها البحرية وحراقاتها الحربية وعوانيها وهول مبانيها وجلال شكلها وجمال معانيها تبدو موشاة بالنضار الاحمر منقشة باللون الاخضر فهي كالرقم المنشر او بكملوت الشمر او الطاووس الذكر معمرة بباس الحديد والاحجار محمولة علي سيح الماء التيار مشحونة بالرجال منصورة عند القتال معونة بالمجن والنبال تبرز مذكرة بالاية النوحية وضمن احراز الهمة العلية الفتحية حصونا منع من اعز قلاع تطير اذا فتحلها جناح القلاع فتسبق وفد الريح عند الاسراع وتفوق سرعة السحاب عند الاتساع فهن مع العقبان في النيق حوم وهن مع الحيتان في البحر عوم ... وكم من مركب لحسنه معجب وكم من سفين قوي امين وشاري جليل وعشاري طويل ومسماري طويل جميل وفستراوي عكاوي ولكة ودرمونة ومعدية مكينة وسلور دقيق وشختور رشيق وقرقور رقيق وزورق ذي زواريق وطريدة بخيل الطرد معمورة دهماء بحمل الجياد مشهورة و.... " [٢]

هذه صورة الاسطول فما هي انواع مراكبه ؟

---

١ — زهر الاداب ج ٤ ص١٣٨ — ١٣٩   ٢ — الخطط ج ١ ص٣٧٠

- الباب الاول -

انواع المراكب

مقدمة

عند البحث في انواع المراكب التي كان يستخدمها العرب في الزمن القديم في مختلف اعمالهم البحرية نجد ان هناك مراكب كثيرة مختلفة ومتعددة الانواع ويمكن ان نحصر استعمالها في ثلاثة غايات رئيسية

اولا المراكب التي تستخدم في النزهة والملاحة النهرية ومن انواع هذه المراكب الطيارات والسميريات والحديديات والزبازب والسدوات والديازب والكنادر والمعديات و....

ثانيا المراكب التي تستخدم في التجارة والاسفار البحرية ومن هذه المراكب اذكر الجروم والقراقير والجلاب والهوانيج.

ثالثا المراكب الحربية التي تستخدم في الاسطول للحروب والقتال وساذكر فيما يلي اهم انواعها

ان البحث في مراكب الاسطول يتعلق بالدرجة الاولى في وصف النوع الاخير من انواع المراكب وهي الحربية ولكن البحث الدقيق يقودنا الي الحقيقة التالية

ان كثيرا من المراكب التجارية والزوارق النهرية كانت تشترك مع الاسطول في اعماله الحربية ولكن اشتراكها لم يكن للحرب والقتال وانما لنقل الامتعة والزخيرة وانزال الجند للبر وامثال هذه الاعمال الضرورية في حروب الاسطول

وليكون البحث في مراكب الاسطول كاملا تاما كان من اللازام علي الكلام عن مراكب الاسطول الحربية وما يلحقها من انواع المراكب الاخرى. وقد قسمت البحث في انواع المراكب الي ثلاثة فصول.

الفصل الاول يتناول المراكب العامة التي تطلق اسماؤها علي جميع قطع الاسطول

الفصل الثاني يبحث في مراكب الاسطول الحربية ووصفها وتعداد انواعها

الفصل الثالث اتكلم فيه عن المراكب النهرية والتجارية التي تضاف للاسطول وتشترك معه في الاعمال البحرية

الفصل الاول

المراكب العامة

السفينة لا يجد الباحث في كتب اللغة لا ما يشفي غليله عن وصف السفن واجزائها واطوالها وكيفية اجرائها ...
لأن اللغويين اهتموا بضبط حروف الكلمة وشكلها وكانت غايتهم لغوية فحسب لذلك اراني مضطرا للرجوع الي كتب التاريخ لايراد شواهد عن معني السفينة في ذهن العرب الاقدمين واستنتاج شكلها من عباراتهم وفهم النواحي التي كانت تستخدم فيها في الملاحة البحرية.

ونبتدئ اولا بفهم المعني اللغوي للسفينة يقول ابن منظور " السفينة الفلك لانها تسفن وجه الماء اي تقشره فعيلة بمعني فاعلة وقيل لها سفينة لانها تسفن الرمل اذا قل الماء قال ويكون ماخوذا من السفن وهو الفاس الذي ينحت به النجار فهي في هذه الحال فعيلة بمعني مفعولة. وقد سميت السفينة سفينة لانها تسفن علي وجه الارض

اي تلزمه بها . والجمع سفائن وسفن وسفين . قال ابن كلثوم

ملأنا البر حتي ضاق عنا ومـوج الماء نملوه سفينا

والسفان صانع السفن وسائسها وحرفته السفانه " ١

هذا هو المعني اللغوي للسفينة . فما هو معناها في نظر مورخي العرب؟

اعتقد ان السفينة اسم عام يطلقه المورخون علي اي نوع من انواع الفلك التي تجري في الماء - البحار والانهار والبحيرات - فهي اذن اداة للتعبير عامة لكل انواع المراكب مهما كان نوعها ومهما كانت خصائصها وميزاتها واسماؤها واساكتفي بايراد بعض النصوص من اقدم المصادر التاريخية المعروفة التي تثبت هذا التعريف .

يقول البلاذري " ووافته سفن كان حمل فيها الرجال والسلاح والأداة " ٢

لم يبين البلاذري نوع السفن التي يتكلم عنها وانما عبر عن انواع مختلفة منها باسم عام يدل عليها .

ويقول ابن خرداذبه " وفي خليج القسطنطينية صخرة عليها برج فيه سلسلة تمنع سفن المسلمين من دخول الخليج " والسفن تنحدر فيه من جزائر بحر الخزر وتلك النواحي وتصعد فيه من بحر الشام الي القسطنطينية " ٣

لان السفن التي تمر في خليج القسطنطينية من انواع متنوعة ولو أراد ابن خرداذبة ان يبين نوع كل سفينة تمر من ذلك الخليج لضاق مجال البحث عليه لان هناك انواعا كثيرة من السفن سنري اهم انواعها فيما بعد .

ولكن في قول المسعودي ماهو شبيه بقول ابن خرداذبه المتقدم يقول " كانت السفن تجري في النيل فتتصل باسواق الاسكندرية " ٤ فهناك انواع كثيرة من السفن التي تجري في النيل وتدخل تحت اسم السفينة العام .

ويقول ابن حوقل " في بلاد آتل من اقليم الخزر كان اهل القوي اذا حصدوا زرعهم ضموه بالعجل الي النهر والي موضع يقرب منه وينقلون ما اجتمع الي النهر في السفن " ٥

ويقول ابن جبير " جهز ملك صقليا اسطولا عدد اجفانه فيما يقال ثلاثمائة بين طرائد ومراكب ويقال اكثر من ذلك ويستصحب معه نحو مائة سفينة تحمل الطعام " ٦

ويقول ابن خلدون " مجموع السفن في كل مرفأ يكون اسطول ذلك المرفأ " ٧ فسفن الاسطول كثيرة الانواع ولم يميز ابن خلدون انواع تلك السفن بل وضعها جميعا تحت اسم عام .

ويقول القلقشندي " في بغداد بين الجانبين جسران منصوبان علي دجلة عرفا بغرب علي سفن وزوارق ... " ٨

ويقول المقريزي " السفن بمصر علي قسمين نيلية وحربية . فالحربية هي التي تنشأ لغزو العدو وتشحن بالسلاح والات الحرب والمقاتلة واما النيلية فانها تنشأ لتمر في النيل صاعدة الي اعلي الصعيد ومنحدرة الي اسفل الارض تحمل الغلال وغيرها " ٩

---

١ - لسان العرب مادة " سفن " ٢ - فتوح البلدان ص ٤٤٢ ٣ - المسالك ص ١٠٤ ٤ - مروج ج ١ ص ٨٣ وص ١٥١

٥ - صورة الارض ج ٢ ص ٣٩٢ و ج ٢ ص ٢٥٣ وج ١ ص ٢٤٣ و ج ٢ ص ٣٣٩ ٦ - رحلة ابن جبير ص ٣٢١ ٧ - المقدمة ص ٢١٢ والعبر ج ٥ ص ١٩٠ ٨ - صبح الاعشي ج ٤ ص ٣٣١ ٩ - الخطط ج ٢ ص ١٨٩ و ج ٢ ص ١١٣ و ج ١ ص ٧١ و ج ١ ص ١٧٧

فمعني السفن اذن عام يطلق علي جميع انواعها حربية كانت ام نيلية دون تخصيصه لنوع واحد منها . الا اننا نلاحظ في الاقوال السابقة انه بالرغم من المعني العام الذي تتخذه كلمة سفينة فانها تدل احيانا علي نوع خاص من المراكب التي تستخدم في غايات معينة فقد استخدمت في الاقوال السابقة بمعني مراكب القتال ولحمل الذخيرة والمعدات الحربية والمحاربين وافادت ايضا معني مراكب لشحن البضائع والغلال والارزاق والاطعمة ودلت ايضا علي انها تستخدم للركوب وعمل الجسور وغير ذلك من الامور .

ان هذه الخصائص الكثيرة التي تستخدم فيها السفينة تؤيد انها كلمة عامة وانها لاتدل علي معني خاص لنوع من المراكب وانما هي اسم عام لجميع المراكب . نستعين بها علي التعبير عن انواع عدة من مراكب الاسطول وغيره من الانواع الاخرى .

هل للسفن شكل خاص ؟

لا شك ان لكل نوع من سفن الاسطول شكلا معينا وخاصا به نذكره عند الكلام عن تلك الانواع كل منها علي حدته ولكن هناك صفات عامة لجميع انواع المراكب مثلها خيال الشعراء وفاضت بها قرائحهم ودبجتها اقلامهم من هذا العصر الجيد الذي يصف لنا المظاهر البارزة في السفينة قول ابن الرومي

الهك ركبنا بطن جوفاء جونة	تخايل في درع من القار فاحم
تواهق اشباها لها ونظائرا	ململمة بالودع سفع الملاطم
اذا هي شبهت بها لنسور تشابهت	باجنحة خفاقة وخراطم
تطير علي اقفائها وظهورها	بمصطخب التيار جم الزمازم
اذا اعجلت لم يستريث طيرانها	وان امهلت زفت زفيف النعائم
وان ايقنت ان سوف تقطع زاخرا	الي زاخر بالعارفات العوائم
هو البحر لا ينفك في جنباته	رغاء المطايا لا نئيم العلاجم [١]

فابن الرومي صور لنا بفنه الشعري صورة سفينة جوفاء البطن فاحمة اللون مطلية بالقار محلاة بالودع سريعة عند جريها بالريح تسير علي ظهرها فوق تيار عديد زاخر تسرع او تبطئ في جريها حسب الظروف والتقادير .

وهناك ابيات لمسلم بن الوليد في وصف السفينة من عيون ما قيل في هذا الفن يقول

كشفت اهاويل الدجي عن مهولة	بجارية محمولة حامل بكر
اذا اقبلت راعت بمقلة قرهد	وان ادبرت راقت بقادمتي نسر
اطلت بمجذافين يعتورانها	وقومها كبح اللجام من الدبر
كان الصبا تحكي بها حين واجهت	نسيم الصبا مشي العروس الي الخدر [٢]

١ - ديوان ابن الرومي ص ٤٠٥ ٢ - زهر الاداب ج ٤ ص ١٣٧

والسفن اما ان تسير بالمجاديف او بالاشرعة وهما اداة الجري في الزمن القديم وقد وصف المقريزي جري السفن في بحيرة تنيس فقال " وبحيرة تنيس قليلة العمق يسار فيها بالعادي وتلتقي السفينتان هذه صاعدة وهذه نازلة بريح واحدة وقلع كل واحدة منهما مملوء بالريح سيرهما في السرعة مستو "١

ويختلف اشكال وحجوم السفن في كل قطر من الاقطار عن غيره فسفن الصين مثلا لها صواري واشرعة ودفات تختلف عن سفن العرب ٢ كما ان بعض سفن الصين لا سيما الجنوك منقوشة ابدع نقش وفيها مظلات الحرير ولها قلاع ملونة ثابتة في الصواري ٤ كما ان سفن البحر المتوسط تختلف عن جلاب الخليج الفارسي والبحر القلزم ٤

وسفن المسلمين علي العموم اكبر واوسع حجما واقل سرعة من سفن البيزنطيين ٥ فلكل نوع من السفن خصائص ومزايا سنتكلم عنها بتفصيل عند البحث عن كل منها علي حدة .

المركب

قال ابن منظور في تعريف المركب " المركب واحد مراكب البر والبحر " ٦ وهي كلمة عامة تطلق علي جميع قطع الاسطول دون تخصيص نوع تلك القطع . يعبر بها الكتاب والمؤرخون عن انواع قطع الاسطول اذا لم يريدوا تخصيص انواع تلك القطع فهي تعطي المعني العام لمفهوم قطع الاسطول دون التفريق بين انواع قطعه والامثلة التي تؤيد هذا القول كثيرة في كتب التاريخ وهاهي بعضها يقول البلاذري " عند فتح المسلمين للاسكندرية بعث ملك روما رجلا من اصحابه يقال له منويل في ثلاثمائة مركب مشحونة بالمقاتلة " ٧ ويقول ايضا " غزا معاوية سنة ٣٢ هـ في خمسمائة مركب ففتح قبرص ... " ٨

اطلق البلاذري في كلامه المتقدم كلمة مركب علي انواع عديدة من مراكب الاسطول ولم يرد تفصيل انواع هذه المراكب التي ارسلها ملك الروم او التي غزا بها معاوية جزيرة قبرص . فللاختصار عبر عن جميع انواع المراكب باسم عام وهو " مركب " الذي يدل علي مختلف انواعها . ويقول ابن شداد " فانها بلغت نيفا وخمسين مركبا منها خمسة عشر شانيا "٩ افادت كلمة مركب في هذا النص معني الشاني الذي هو نوع من انواع المراكب .

ويقول ابو الفداء " وقعت مراكب المسلمين علي الفرنج واخذوا منهم اثنين وثلاثين مركبا منها تسع شواني فضعفت الفرنج لذلك " ١٠ ضمنت كلمة مركب في داخلها معني الشونة وانوعا اخرى لم يذكرها ابو الفداء

ويقول ابن خلدون " انتهى اسطول الاندلس ايام عبد الرحمن الناصر الي مائتي مركب او نحوها " ١١

---

١ - الخطط ج١ ص١٨١ ٢ - رحلة ماركو بولو ص٢٢٧ ٣ - رحلة ابن بطوطة ج٢ ص ٢٠٩ ٤ - سلسلة التواريخ ص٨٨ ومروج ج١ ص١٣٨ ٥ - The Orient, P. 358 ٦ - لسان العرب مادة " ركب"
٧ - فتوح البلدان ص٢٣٩ ٨ - نفس المصدر ص ١٦٠ و ١٧٠ ٩ - سيرة صلاح الدين ص١٨٤
١٠ - المختصر ج٣ ص ١٨٠ ١١ - المقدمة ص ٢١١

ويقول ايضا " وصل اسطول للفرنج من سبعين مركبا مشحونة بالرجال والذخائر " ١ لايمكن ان يكون اسطول الاندلس او اسطول الفرنج مؤلف من نوع واحد من المراكب وانما هو من انواع عديدة جعلها ابن خلدون تحت اسم عام وهو " مركب " الذي يفيد مختلف انواعها .

ويقول صالح بن يحي " ... واجتمعوا المراكب كلها في طرابلس وهم ست حمالات وعشرة اغربة كبار وصغار وست مراكب قراقير ومركبين مخروط كبار واثني عشر زورق وست منوف صغار " ٢ فكلمة مركب شملت جميع هذه الانواع التي عددها صالح بن يحي وعندما فصّل هذه الانواع ذكر اسم كل منها علي حدة ويقول ايضا " ليعمروا ... مراكب كثيرة حمالات وغواني " ٣ فنوع هذه المراكب هي من الحمالات والغواني .

ولما كانت كلمة مركب اسما عاما لذلك كثيرا ما يضاف اليها اسما او صفة لتفيد النوع الذي يقصدون الكلام عنه . يقول الطبري " فانتهي مراكب الروم من ناحية عطا ... فاناخ بها ماءة مركب من الشلندية " ٤ بين الطبري في قوله المتقدم ان المراكب للروم وان نوعها من الشلنديات ويقول ابن الاثير " ست مراكب كبار " ٥ ان صفة هذه المراكب كبيرة ويقول ابن خلدون " ثم اعترضت مراكب الفرنج مراكب التجار من مصر " ٦ ويقول ابن بطوطة " خرج علينا الكفار في اثني عشر مركبا حربية " ٧ ويقول " نحو مائتي مركب ما بين حربي وسفري " ٨ ويقول ايضا " ورايت واننا بالمعبر مائة مركب من مراكبه بين صغار وكبار " ٩ ويقول ايضا " ثم سافرت في مركب صغير الي قابس " ١٠ فابن بطوطة بين انواع المراكب وصفتها باضافة اسم او صفة اليها ليدل علي نوعها

اما المقريزي فيذكر كثيرا من الصفات والاسماء بعد كلمة مركب فيقول " وكانت بلد الاسكندرية مراكب الاندلسيين " ١١ و " اجتهد احمد بن طولون في بناء المراكب الحربية " ١٢ " وامر ان يكون انشاء الغواني والمراكب النيلية الديوانية بصناعة مصر " ١٣ و " لم يبق منه غير ستة مراكب فارغة " ١٤ و " ما برحت مراكب النزهة تمر فيه " ١٥ وغير ذلك من الاقوال الكثيرة التي تعين نوع المراكب المقصود الكلام عنها .

ويقول ابن اياس " لما عرض المراكب الأغربة " ١٦ بين ابن اياس ان انواع هذه المراكب من الاغربة

ولما كان المركب لفظا عاما لذلك يرد استخدامه عند المؤرخين في نواحي مختلفة من الاعمال فيستخدمونه ليدلوا به علي اداة لحمل الرجال او الة الحرب والازودة يقول ابن الاثير " فجهز صاحب صقلية اسطولا كثيرا عدته مائتي شيني تحمل الرجالة وستا وثلاثين طريدة تحمل الخيل وست مراكب كبارا تحمل الة الحرب واربعين مركبا تحمل الازواد " ١٧

---

١ - العبر ج ٥ ص ١٩٣ وج ٥ ص ١٩٢   ٢ - تاريخ بيروت ص ٢٢٢   ٣ - نفس المصدر ص ٢٤   ٤ - الطبري الجملة الثالثة ج ١١ ص ١٤١٧   ٥ - الكامل ج ١١ ص ١٦٧   ٦ - العبر ج ٥ ص ١٩٣   ٧ - رحلة ابن بطوطة ج ٢ ص ١٧٧   ٨ - نفس المصدر ج ٢ ص ٣٥٨   ٩ - نفس المصدر ج ٢ ص ١٦٥   ١٠ - نفس المصدر ج ٢ ص ٢١٦   ١١ - الخطط ج ١ ص ١٧٢ و ج ص ١٩٥   ١٢ - نفس المصدر ج ص ١٨٠ و ج ص ١٩٣ و ج ص ١٨١ و ج ٢ ص ١٨٠   ١٣ - نفس المصدر ج ٢ ص ١٩٧   ١٤ - نفس المصدر ج ٢ ص ١٩٥   ١٥ - نفس المصدر ج ص ١٤٥   ١٦ - بدائع الزهور ج ٤ ص ٢١٦   ١٧ - الكامل ج ١١ ص ١٦٧

ويقول ابن خلدون " ووصل القمص ... بمراكب عديدة مشحونة بالرجال والسلاح والميرة " ١

ويستخدم المؤرخون هذا اللفظ ليدلوا به علي نوع من مراكب القتال يقول ابو الفداء عند ذكر فتح عكا سنة ٦٩٠ هـ " وكانت منزلة الحمويين براس الميمنة وكان بحضر البحر مراكب مقببة بالخشب الملبس جلود الجواميس وكانوا يرموننا بالنشاب والجروخ " ٢ لا شك ان هذا المركب الذى يصفه ابو الفداء هو نوع من المراكب العربية التي سنذكرها فيما بعد .

ويستخدم المؤرخون هذه الكلمة ليدلوا بها علي اداة للمواصلات يقول ابن حوقل " واكثر ما يصل اهل مصر بعضهم الي بعض عند زيادة النيل في المراكب لأن الماء يحجب باحاطته اكثر مدنها وضياعها ويستولي عليها من جميع اراضيها فطرقات بعضهم الي بعض في الماء بالمراكب " ٣ استعمل ابن حوقل في هذه العبارة مركب ليدل بها علي مختلف انواع المراكب النهرية التي ينتقل بها اهل مصر عند فيضان النيل وسيمر معنا بعض هذه الأنواع في الكلام عن المراكب النهرية

وتستعمل ايضا كلمة مركب لتدل علي مراكب النزهة ٤ ومراكب التجارة ٥ ومراكب الاسفار البعيدة التي تتطلب ادخار المياه والأطعمة الكثيرة ٧ ولذلك كان حجم هذه الأنواع من المراكب كبير جدا وسنأتي علي وصفها عند ذكر المراكب التجارية ولما كانت كلمة مركب عامة فان وصف المركب يكون عاما ايضا لجميعها ولذلك اذكر عبارة ابن خلدون التي يصف بها الأمور المشتركة بين جميع المراكب علي السواء . يقول " المراكب اجرام هندسية صنعت علي قالب الحوت واعتبار سبحه في الماء بقوادمه وكلكله ليكون ذلك الشكل اعون لها في مصادمة الماء وجعل لها عوض الحركة الحوانية التي للسمك تحريك الرياح وربما اعينت بحركة المقاذيف كما في الاساطيل " ٨ فشكل المركب اذن بشكل الحوت وجريه يكون اما بالشراع اوبالمجاديف . اما شكل المراكب الصينية فهو بحسب قول احد الصينيين شبيه بحبة القمح ٩

صــورة عــامة عــن المــراكـــب التجــاريـــة

المراكب التجارية ليست متساوية الحجوم فبعضها كبير جدا فيه الطواحين والأفران والأسواق ١٠ وحوانيت لبيع الخمر ومنازل النسيج ١١ وفيه ما يزيد عن الفي انسان ١٢ يحتاج الي سلالم بارتفاع عشرات الاقدام لارتقاء سطحه ١٣ يصحب معه قوارب لجره عند سكون الريح ١٤ او عشاريات لاصلاحه عند حدوث خلل فيه ١٥ او دوانيج للنزول به عند الخطر ١٦

---

١ ـ العبر ج ٥ ص ١٩٢ ٢ ـ المختصر ج ٤ ص ٢٤ ٣ ـ صورة الارض ج ١ ص ١٣٧ ٤ ـ الخطط ج ٢ ص ١٩٥

٥ ـ عجائب الهند ص ١٢٥ ٦ ـ رحلة ابن جبير ص ٢٩٣ ورحلة ابن بطوطه ج ٢ ص ٨٣ و ج ٢ ص ١٧٧ وعجائب الهند ص ١٢٥ ٧ ٨ ـ المقدمة ص ٢٤٣ ٩ ـ مقدمة Chau-Ju-Kua, Page 30 ١٠ ـ صبح الأعشى ج ٥ ص ٧٨

١١ ـ مقدمة Chau-Ju-Kua, P. 9 ١٢ ـ رحلة ابن جبير ص ٢٩٢ Chau-Ju-Kua, P. 34 ١٣ ـ مقدمة

١٤ ـ عجائب الهند ص ٣٥ ١٥ ـ رحلة ابن جبير ص ٢٩٥ ١٦ ـ عجائب الهند ص ٣٤ وص ٣٩ ويقول روكهيل و هرث عن حاج صيني يدعي Fa-hièn بانه حج في اوائل القرن الخامس وعندما وصل الي جزيرة سيلان انتقل الي مركب كبير لتاجر علي ظهره يوجد اكثر من ٢٠٠ شخص ويتصل به زورق صغير ينقل الركاب اليه عند حدوث خطر في المركب الكبير

مق

والبعض والبعض الآخر من المراكب التجارية صغير سريع الجري اذا رمى الرامي في احدها سهما وقع في وسطه لسرعة جريه ١ وهذه المراكب الصغيرة تستوعب حتي ثلاثمائة نفس ٢ وطول بعضها خمسين ذراعا بذراع العمل من طرف الابط الي طرف الاصبع الوسطي ٣

والمراكب تسير بالاشرعة ٤ وقد تكون هذه الاشرعة من القش mat-sail تعلق من طرف واحد من الدقل ٥ ويختلف عدد السواري والاشرعة بحسب كبر المركب وصغره ففي بعضها يوجد اربع سواري وتسعة اشرعة ٦ وفي البعض الاخر صاري واحد وشراع واحد ٧ وفي المركب دفة لتوجيهه ولم تكن المراكب ذات الدفتين موجودة في غير البحر المحيط ٨ وللمراكب مراسي او اناجر كثيرة يتناسب عددها مع حجم المركب ٩ وكان يستعمل لسبر الأغوار سلك ١٠ وكانت قيعان السفن التي تجرى في البحر الاحمر " عراضا دون تعميق في تركيبها لتحمل بذلك كثيرا من الوسق ولا تدرس علي كثير ترس" ١١ اما المراكب الصينية فكانت اكبر مراكب المشرق ولهذا لم تكن تستطيع اجتياز غيرها من مضايق خليج فارس ١٢ وبعض المراكب فيها نحو ٢٦٠ ملاحا ١٣ ويجذف الجذافون في مراكب الصين وهم قياما وجههم في وسط المركب والركاب في المقدمة والمؤخرة. ويظللون علي المركب بثياب تصنع من نبات يلادم يشبه الكتان ولبسه وهو ارق من القنب ١٤ ويقسم التجار مساحة المركب فيما بينهم ويضعون في كل قسم بضائعهم وينامون فوقها ١٥ ويقومون بالأعياد والصلوات والوعظ ويزينون المراكب بالأسرجة والشمع ١٦ وفي المراكب غواصين ١٧ وكان الغواصون

---

١ - صبح الاعشي ج ٤ ص ٧٨ ٢ - رحلة ابن بطوطة ج ٢ ص ٨٣ ٣ - عجائب الهند ص ١٤

٤ - نفس المصدر ص ٣٤ - ٣٥ ٥ - مقدمة Chau-Ju-Kua P. 30 الدقل يسمي في بحر الصين وفي البحر الحبشي الدولي وفي البحر الرومي الصاري (مروج ج ١ ص ١٣٠) ويدعي في العراق الرقل (مروج ج ٢ ص ١٢٨) ٦ - رحلة ماركو بولو ١٨

٧ - نفس المصدر ص ٢٣٧ ٨ - الحضارة الاسلامية ج ٢ ص ٣٦٣ عن ابن جبير ٩ - عجائب الهند ص ٦٥

١٠ - الحضارة الاسلامية ج ٢ ص ٣٦٥ ١١ - جغرافية الادريسي طبعة براندل ص ٢ ١٢ - سلسلة التواريخ ص ١٦

١٣ - رحلة ماركو بولو ص ١٨ ١٤ - رحلة ابن بطوطة ج ٢ ص ١٩٨ ١٥ - مقدمة Chau-Ju-Kua, P. 31

١٦ - رحلة ابن جبير ص ٢٩٦ ١٧ - عجائب الهند ص ٧

في مراكب الصين في القرن الحادي عشر زنوجا يستطيعون الغوص وعيونهم مفتوحة اذا كسر المركب فجأة فلا يمكن تصليحه من الداخل فينزل هؤلاء العبيد الغواصون وبايديهم سكاكين وقش فيغبرون ويصلحون المركب من خارجه ١ وحكي رجل من العرب في القرن الثامن الهجري (الثامن عشر ميلادي) انه كان في مراكب البحر الهندي عادة اربعة من الغواصين فاذا نفذ الماء في المركب وعلاقه عمدوا الي اجسامهم فطلوها بزيت السمسم والي انوفهم فسدوها بالشمع ثم اخذوا يسبحون حول المركب في سيره ويسدون ثقوبه بالشمع وهم يستطيعون ان يسدوا عشرين الي ثلاثين ثقبا في اليوم ٢

وكانت المراكب التي تبعد عن الشاطئ معها حماما للمخابرات . روى احد الثقات في القرن التاسع انه يوجد علي مراكب الفرس التي تمخر عباب البحر كثير من الحمام يستطيع ان يطير بضعة الآف لي (مقياس للمسافة) واذا اطلق طار عائدا الي بلاده رسولا يحمل احسن الاخبار وهذه العادة يظهر انها قديمة العهد عند بحارة الهند وجد لها ذكر في المصادر البوذية التي يرجع تاريخها الي القرن الخامس قبل الميلاد ٣

ويمكن ان نلخص وصف المراكب التجارية بعبارة ذكرها ماركو بولو

يقول لنبدأ الآن بوصف (المركب Ship) التي يستعملها التجار المبنية من الواح خشب الشوح . ولهذه المراكب سطح واحد والسافة التي تحته مقسومة الي ستين غرفة صغيرة . وبعضها فيه غرف اكثر او اقل بحسب حجمها . وكل مركب يؤمن راحة تاجر واحد فقط . وهذه المراكب مجهزة بدفات حسنة ولكل واحد منها اربع صواري مع كثير من الاشرعة . ولبعض هذه المراكب شراعين فقط يمكن ان يرفعا ويخفضا بحسب الضرورة . ولبعض المراكب الكبيرة ثلاثة عشر حاجزا او قسما في داخلها مشكلة من الواح ثخينة متشكلة بعضها ببعض والغرض من هذه الحواجز هو ان تحفظ المراكب من خطر حادث يمكن ان يقع عليها ويترشح لداخلها الماء . كاصطدامها بالصخر مثلا او تلقي ضربة من حوت تلك الحوادث التي تقع كثيرا فعندما يبحر المركب في الليل فان حركته في داخل الموج تثير زبدا ابيضا يجلب انتباه الحيوان الجائع فيظن ان هذا الزبد طعام فيندفع بشدة لتلك البقعة فيضرب المركب ويثقبه في غالب الأحيان من قعره . فعندها يندفع الماء الي المكان الذي حصلت فيه الصدمة وينسال الماء لبقية الأمكنة . الا ان الألواح الحاجزة التي تفصل المركب الي اقسام تمنع انسياب الماء الي الأقسام جميعها ولذلك عندما يلاحظ البحارة مكان الترشيح ينقلون البضائع منه حالا ويصلحون مكان الكسر ويرجعون البضائع بعدئذ لما كانت عليه .

والمراكب مصفحة بزوج من الالواح اي يوجد صفائح موضوعة فوق الواح المركب تشمع بشمع معنوي ممزوج بقنات القنب من داخلها وخارجها والصفائح متصلة بالمسامير الحديدية ولا تدهن هذه المراكب بالقار اذ انه في هذه البلاد (الهند) لا توجد هذه المادة ولكن يستعاض عنها بنوع اخر من المواد ذات التركيب الخاص ...

والمراكب ذات الحجوم الكبيرة تحتاج الي ثلثمائة بحار وبعضها يحتاج الي مئتين او مئة وخمسين واقلها خمسين بحارا بحسب كبرها . وتحمل من خمسة الاف الي ستة الاف سلة او قفة من الفلفل . وفي الزمن القديم كانت المراكب بحجوم

---

١ ـ مقدمة Chau-Ju-Kua, P. 28 ٢ ـ الحضارة الاسلامية ج ٢ ص ٣٦٥ ٣ ـ مقدمة Chau-Ju-Kua P. 28

مختلفة واكبرمما هي عليه الآن . ولكن امواج البحر فتتت الساحل في بعض الجزر والمرافئ المهمة وطمعتها بالرمال ولذلك اصبح من المتعذر لهذه السفن الكبيرة الدخول لتلك الأمكنة العجا... رية لأنها تحتاج الي اعماق سحيقة ولما لم يكن ذلك متوفرا اضطر السكان لمناء مراكب من حجوم اصغر لتناسب تلك الاعماق .

وتسير المراكب ايضا بالمجاذيف الذي يحتاج الواحد منها اربعة اشخاص ليعملوا عليه . والمراكب الكبيرة تصحب معها ثلاثة سفن شراعية Barks يمكن ان تحمل الفسلة من الفلفل ويسيرها من ٦٠ - ٨٠ - ١٠٠ بحار . وتستعمل الزوارق الصغيرة Craft غالبا لجر المراكب الكبيرة عند سيرها بالمجاذيف حتي وبالأشرعة عندما يكون الريح معاكسا لسير المركب اما اذا كان الريح موافقا فلا يستعملون الزوارق وفي تلك الحالة تكون اشرعة المركب الكبير مناسبة اكثر من اشرعة السفن الصغيرة . وهذه المراكب تحمل معها ايضا نحو عشر غشاتير Boats لحمل المراسي والصيد واغراض اخرى متنوعة وهذه الغشاتير تعلق علي الجوانب وتنزل الي الماء عند الضرورة . كما ان السفن الشراعية Bark تجهز بزوارق صغيرة ......

وعندما يكون المركب قد استخدم في الاسفار مدة سنة او اكثر يوقف لضرورة اصلاحه ويصفح غالبا بالواح من خشب توضع فوق الصفائح الاولي فيتشكل طبقة ثالثة فوق السابقتين وتدهن هذه الطبقة بصمغ كما تقدم سابقا . وكلما احتاجت السفينة الي الاصلاح تعاد العملية نفسها حتي تصبح عدد الطبقات ستة وعندها يصبح المركب غير صالح للابحار والملاحة ".١

هذه صورة عامة للمراكب التجارية التاية من ذكرها لفت نظر القارئ الي ان المراكب التجارية تختلف عن المراكب الحربية لان الغاية من صنعهم متباينة . وكل من هذين النوعين من المراكب جيد بالنسبة الي الغاية التي وضع من اجلها . ويستطيع القارئ بعد المرور علي وصف المراكب الحربية ان يعلم الاختلاف بين النوعين .

ومن انواع المراكب العامة ايضا

<u>القطعة</u>

ذكر الزبيدي في تاج العروس ان القطعة بالكسر الطائفة من الشيء ٢ . وترد هذه الكلمة في كتب التاريخ بمعني عام لتدل علي احدى وحدات الاسطول . يقول ابن الاثير " سير امير المسلمين (علي بن يوسف بن تاشفين) اسطولا ففتحوا بخوطره بساحل بلاد قلورية فلم يملك وجار ان عليا كان سببذلك فجد في تعمير الشواني والمراكب وحشد فاكثر وصنع من الثغر الي افريقية وغيرها من بلاد الغرب فاجتمع له من ذلك مالم يعهد مثله . فقيل كان ثلثمائة قطعة "٣ . ويقول في مكان اخر في سنة (٥٨٠ هـ) " خرج علي بن اسحق المعروف بابن غانية الي بجاية فملكها وسببذلك انه لما سمع بوفاة يوسف بن عبد المؤمن عمر اسطوله فكان عشرين قطعة " ٤

---

١ - رحلة ماركو بولو ص ٢٦١ - ٢٦٣ ٢ - تاج العروس مادة " قطع " ٣ - الكامل ج ١٠ ص ٢٣٣

٤ - نفس المصدر ج ١١ ص ٢٠٦

ويقول ايضا " فوصل اليهم (ملك الانكتار) في خمس وعشرين قطعة كبارا مملوءة رجالا واموالا " ١ فجميع اقوال ابن الاثير المتقدمة تدل علي ان قطعة كلمة عامة تطلق علي اي نوع من انواع المراكب.

ويطلق ابن شداد كلمة قطعة ليدل بها علي شاني وطرادة وبطسة فيقول " وكانوا في ستماية قطعة ما بين شاني وطرادة وبطسة وغير ذلك " ٢ كما ان ابن خلدون يستعمل كلمة قطعة بمعني عام ليدل بها علي اي نوع من المراكب فهو يقول " وركبوا البحر في اثنين وثلاثين قطعة من اساطيلهم " ٣ ويقول ايضا " وبعث يحي عن اسطول ميورقة فامده اخوه عبد الله بقطعتين منه " ٤ . اما المقريزي فيطلق كلمة قطعة علي الشواني فيقول " فقدم المسلمون شوانيهم امام المنصورة وعدتها ماية قطعة " ٥

ويذكر كاترمير ان كلمة قطعة تفيد نوعا من المراكب ويأتي بشواهد علي ذلك من ابن الاثير ٦ يقول " كان له في فم نهر ابي الخصيب نحو خمسماية قطعة فيها ماله " وشواهد من تاريخ فتح بيت المقدس ٧ يقول " وصلت كل قطعة كأنها قلعة " وغير ذلك من الشواهد .

وتجمع قطعة علي قطايع يقول كاترمير عن صاحب كتاب القرطاس ٨ ما يلي " انفسدت قطايع المسلمين في الزقاق "

ومن المؤسف ان كاترمير الذي يعتبر ان قطعة تفيد نوعا خاصا من المراكب لا يصف لنا خواص هذا النوع فما ادري بأي صورة تسير القطعة أبالشراع ام بالمجاذيف ؟ ولا ادري ما هي صفات القطعة العامة ، وانما ارجح ان قطعة تطلق غالبا علي وحدات الاسطول بصورة عامة ولا تفيد نوعا خاصا من المراكب.

هذه هي المراكب العامة التي يفيد معناها جميع انواع سفن الاسطول الاتي ذكرها .

---

١ ـ الكامل ج ١٢ ص٣٧ ٢ ـ سيرة صلاح الدين ص ٥٥ ٣ ـ العبر ج ٦ ص١٩٠ ٤ ـ نفس المصدر ج ٦ ص١٩٤
٥ ـ الخطط ج١ ص٢١٧ وج ٢ ص١٩٣ ٦ ـ الكامل ج ٣ ص٢٢١ ٧ ـ مخطوطة ص٧١٤ عن كاترمير ج ١ ص١٤٣
٨ ـ مخطوطة ص٢٤٥ عن كاترمير السلوك ج ١ ص١٤٣ قسم اول

- الفصـل الثاني -
انواع المراكب الحربية

الحراقة :

الحراقة بالفتح والتشديد ضرب من السفن فيها مرامي نيران يرمى بها العدو في البحر والحراقات سفن فيها مرامي نيران . وقيل هي المرامي انفسها الجوهري / ١ وتجمع حراقة على حراريق وحراقات كقول ابن جبير " وعند خروجه من البحر لحقت جلبه حراريق الامير سيف الاسـلام فاخذت جميع مافيها من الاثقال " ٢ وسيمر معنا نصوصا تدل على انها تجمع على حراقات . والحراقات مراكب حربية كبيرة فيها مكاحل البارود والعرادات والمنجنيقات التي يرمى بها النفط المشتعل على الاعداء ٣ ويذكر كاترمير نقلا عن تاريخ بيت المقدس مايلي " حراريق لاهل النار بنارها محرقة " " من شبمة حراريقها شيم بوارق البوارق لاحراق اهل النار بالماء " . فالحراقة اذن هي مراكب مشحونة بالمواد المحرقة كالنفط ترمي سفن الاعداء بالنيران لحرقها ٤ وفي القديم كانت الحراقة تطلق على السفن اليونانية التي ترمي النار اليونانية . وفي اواخر القرن الثامن وابتداء القرن التاسع ابتدأ العرب في صنع امثال هذه المراكب ٥ ويقول القلقشندى ان الحراريق يركبها الانجاد من الرماة والرؤساء المهرة ٦ واشتهرت مدينة لقنت في الاندلس بصنعها ٧ - وتستخدم الحراقة فيما عدا الامور الحربية بالنقل والركوب سواء في البحر او في الانهار ٨ يقول المقريزي " واتفق مع ذلك وصول مرمة عظيمة للفرنج في البحر حولها عدة حراقات تحميها وقد ملئت كلها بالميرة والاسلحة فقاتلتهم شواني المسلمين " ٩ . وركب ابو الفداء سنة ٧١٨ في النيل بقصد رؤية الاسكندرية مع جماعة له بحراقتين ١٠ وفي سنة ٧٣٨ جمع الملك الناصر المهندسين لبناء جسر على النيل " ونزل في الحراقة وبين يديه الامراء وسائر ارباب الخبرة من المهندسين وخولة الجسور ... وطلب رئيس البحر وشاد الصناعة

---

١ - لسان العرب مادة (حرق) ٢ - رحلة ابن جبير صفحة ١٤٧ ، ٣ - حضارة العرب ص١٦٦ ، ٤ - السلوك ج ١ قسم ١ ص١٤٣ ، ٥ - هامش The orient ص٣٦٢ نقلا عن Amari 1 P 302 ٦ - صبح الاعشى ج ٥ ص٢٧٢ ، ٧ - الروض ص١٧٠ ، ٨ - السلوك ج ١ قسم ١ ص ١٤٤ ، ٩ - الخطط ج ١ ص ٢١٨ ، ١٠ - المختصر ج ٤ ص٨٣ .

لاحضار المراكب ... وامر بجمع الناس وتسخير كل واحد للعمل فركبا وكانت ايام القيظ فهلك فيه عدة من الناس والامير اقبغا في الحراقة يستحث الناس على انجاز العمل" ١

وقد اتخذ الخلفاء والسلاطين ورجال الدولة حراقات بقصد الركوب في الانهار سواء بدجلة ام بالنيل وكانت حراقات دجلة التي يستعملها رجال الدولة في غدوهم ورواحهم معد فيها الثلج ويعلق عليها الخيش المبلل بالماء وكانت ترخى على الخيش ستور الكرابيس ٢ وقد اتخذ الخليفة الامين ابن هارون الرشيد حراقات في دجلة على شكل الليث والعقاب والدلفين . فوصفها ابي نواس بقوله :

سخر الله للامين مطايا	لم تسخر لصاحب المحراب
فاذا ماركابه سرن برا	سار في الماء راكب ليث غاب

وصف الحراقة التي بشكل الليث :

اسدا باسطا ذراعيه يعدو	اهرت الشدق كالح الانياب
لايعانيه باللجام ولا السو	ط ولا غمز رجله في الركاب
عجب الناس اذ رأوه على صو	رة ليث يمر مر السحاب

وصف الحراقة التي بشكل العقاب :

سبحوا اذ رأوك سرت عليه	كيف لو ابصروك فوق العقاب
ذات زور ومنسر وجناحيـ	ـن تشق العباب بعد العباب
تسبق الطير في السماء اذا ماا	ستعجلوها بجيئة وذهاب
بارك الله للامين وابقا	ه وابقا له رداء الشباب

وصف الحراقة التي بشكل الدلفين :

قد ركب الدلفين بدر الدجى	مقتحما للماء قد لججا
فاشرقت دجلة من نوره	واسفر الشطان واستبهجا
لم تر عيني مثله مركبا	احسن ان سار وان عرجا
ان استحثته مجاذيفه	اعنق فوق الماء او هملجا

١ــ الخطط ج ٢ ص ١٦٧ ، ٢ ــ الحضارة الاسلامية عن جمهرة الاسلام للشيرازي ص ١٩٩ آ

وقد ذكر ابن هاني هذه الحراقات وعددها بقوله :

خص به الله الامين الـذى	اضحى بتاج الملك قد توجا
الا ترى ما اعطـي الامين	اعطي مالم تره العـيون
ولم تكن تبلغه الظـنون	الليث والعقاب والدلفـين ١

فمن هذه الاسطر نستنتج ان الحراقات التي كانت للامين علاوة عن ان اشكالها كانت على صورة الحيوانات فقد كانت تسير بالمجاذيف .

ويصف احد الشعراء حراقة طاهر بن الحسين بقوله :

عجبت لحـراقة ابن الحسين	ـ لاغرقت ـ كيف لا تغـرق
وبحران من فوقها واحـد	وآخر من تحتهـا مطـبق
واعجب من ذاك اعوادهـا	وقد مسـها كيف لاتـورق ٢

وكان الناس يركبون الحراقة للنزهة والتسلية يذكر ابن بطوطه انه ركب " في سفينة تشبه الحراقة وركب ابن الامير في اخرى ومعه اهل الطرب واهل الموسيقى وكانوا يغنون ... " ٣

وفي زمن الايوبيين والمماليك كان السلاطين عند وفاء النيل وكسر الخليج يركبون في حراقات كانت تزين بانواع الزينة ٤ يقول ابن اياس " نقدمت له الحراقة التي يكسر فيها السد " ٥ويقول القلقشندى ان حراريق الامراء كانت تسير حول حراقة السلطان وهي مزينة ومراكب المتفرجين تسير خلف الحراريق حتي يدخلون الى فم الخليج وحراقة السلطان العظمى المعروفة بالذهبية ... وحراريق الامراء يلعب بها في وسط امتدادها ويرمى بمدافع النفط على مقدامها ويسير السلطان في حراقته الصغيرة حتى يأتي السد فيقطع بحضوره ويركب وينصرف الى القلعة » ٦.

---

١ — ديوان ابي نواس ص ١١٦ — ١١٧ ، ٢ حضارة العرب ص ١٦٨ ، ٣ رحلة ابن بطوطه ج ٢ ص ٢٠٤ ، ٤ — بدائع الزهور ج ٤ ص ٢١٢ و ٢٣١ ، ٥ — بدائع الزهور ج ٤ ص ٢١٢ و ٢٣١ ، ٦ — صبح الاعشى ج ٤ ص ٤٧ — ٤٨ .

ويقول ابن تغرى بردى ان الحراقة المعروفة بالذهبية " كانت من شعائر المملكة ولا سيما في يوم وفاء النيل وكانت الملوك تتوجه فيها الى المقياس وفيها ٦٠ مقذافا وكان هناك موظف خاص يعتني بهذه الحراقة ويلقب برئيس الحراقة الا ان قيتباى ابطل هذا المركب " ١ .

هذه هي صفات الحراقة وهي كما تقدم بشكل المركب تفرق عنه بكونها تشحن بالمواد المحرقة المشتعلة كالنفط والنار اليونانية التي ترمى بالمنجنيق والجروخ ٢ . ومتصل بها جماعة من الرماة نفاطين يرمون الاعداء بالنفط والنار اليونانية ٣ وكان النفاطون يلبسون ثيابا تقيهم النيران ولذلك فهم يستطيعون اقتحام النار ٤ وكثيرا ماتكون الحراقة صغيرة الحجم يقول كاتر مير نقلا عن مخطوطة عربية في الفاتيكان ص٨٢ " اما الحراقة فمختصرة " ٥ وقد تقدم معنا ان الحراقة تسير بالمجاذيف .

وقد حفظ اسم حراقة في سنويات اهل جنوه والبندقية تحت لفظ Caracca ٦

الشـــونة :

الشونة المركب المعد للجهاد في البحر والجمع الشواني لغة مصرية ٧ ويقول كاتر مير ان كلمة شاني وشيني تجمع على شواني . وفي جغرافية ابن حوقل (مخطوطة ص٦٧) ترد كلمة شينية ٨ فهذه التسميات الثلاثة شونه ، شاني ، شيني تدل على نوع واحد من المراكب الا انه يكثر استعمال شونه عند المورخين العرب لهذا النوع من المراكب الذى يستخدم في الاسطول العربي . اما شاني وشيني فتطلق على مراكب الافرنج التي من هذا النوع فيذكر كاتر مير عن بهاء الدين في سيرة صلاح الدين الايوبي ص ١١٩ مايلي : (اخذ من العدو شاني) ٩ ويقول ابن الاثير " جهز صاحب سقلية اسطولا عدته مائتي شيني تحمل الرجالة) ١٠ ويذكر ابي الفداء :

---

١ — النجوم ج ٦ ص٤٠٢ وبدائع الزهور ج ٢ ص٣٠١ . ٢ — التمدن ج ١ ص٢٠٠
٣ — العبرج ٣ ص٢٠٦ . ٤ — اغاني ج ١٧ ص٤٥ . ٥ — هامش السلوك ج ١ قسم ١
ص١٤٤ . ٦ — هامش The Orient ص٣٦٢ نقلها عن Amari I P 302
٧ — تاج العروس مادة (شونه) ٨ — هامش السلوك ج ١ قسم ١ ص١٤٢ والادريسي ص٢٣١
٩ — السلوك ج ١ قسم ١ ص١٤٣ . ١٠ — الكامل ج ١١ ص١٦٧ .

" ان رجار الفرنجي صاحب سقلية جهز اسطولا نحو مئتي وخمسين شينيا مملوءة رجالا وسلاحا " ١ فشاني وشني مختصة على الاكثر بمراكب الفرنج التي من هذا النوع .

والشونة قطعة من قطع الاسطول يقول المقريزي " بلغ اسطول الفاطميين في آخر ايامهم الى نحو الثمانين شونة وعشر مسطحات وعشر حمالة . فما تقصر عن مئة قطعة " ٢ ويقول ايضا " واستدعى بيبرس البندقداري شواني الثغور الى مصر — فبلغت زيادة على اربعين قطعة سوى الحراريق والطرائد فانها كانت عدة كثيرة " ٣ ويقول " فقدم المسلمون شوانيهم امام المنصورة وعدتها مائة قطعة " ٤ .

وقد تضاف شونة الى اسم او صفة تفسر نوعها فيقال " عشر شواني بحرية . والشواني الحربية " ٥ ويذكر المقريزي انه منذ زمن المعز لدين الله وبعده بنوه كانت العناية عظيمة بالاسطول " فواصلوا انشاء المراكب بمدينة مصر واسكندرية ودمياط من الشواني الحربية والشلنديات والمسطحات " ٦ ويقول ايضا " ان الملك الظاهر ركن الدين بيبرس البندقداري نظر في امر الشواني الحربية واستدعى برجال الاسطول ٧

وقد يسمى الشيني بالغراب او الطريدة كما ذكر كاتر مير نقلا عن مخطوطة عربية موجودة في الفاتيكان برقم ٢٦٧ ص ٨٢ يقول " اما الشيني ويسمى الغراب فانه يجذف بماية واربعين مجذافا وفيه المقاتلة والجذافون " ويقول ان هذه المعلومات — نفسها مذكورة في كتاب ادب الكاتب (مخطوطة في سانت جيرمان ص ١١٧ آ) وفي كتاب السلوك للمقريزي * يقول " قدم لحمل ماية شيني مابين غراب وطريدة برسم حمل الخيل " ٨ ومهما تعددت اسماء الشونة واختلفت تسمياتها ونسبها فان لها صفات خاصة وتستخدم في اغراض معينة في الاسطول تفرقها عن غيرها من المراكب الحربية الاخرى . فالصفة البارزة في الشونة هي انها مراكب للقتال معدة لحمل الجند

---

١ — المختصر ج ٣ ص١٩ . ٢ — الخطط ج ٢ ص١٩٣ . ٣ — نفس المصدر ج ٢ ص ١٩٤ . ٤ — نفس المصدر ج ١ ص٢١٨ ٥ — هامش السلوك ج ١ ص ١٤٢ قسم ١ اخذها عن خطط المقريزي مخطوطة رقم ٧٩٧ ص ٣٩٩ ب . ٦ — الخطط ج ٢ ص١٩٣ ٧ — نفس المصدر ج ٢ ص ١٩٤ . ٨ — السلوك ج ٢ ص ٣٩ .

والمقاتلون والرماة ١ وتشحن بالات الحرب يقول ابن شداد " ووصل (ملك الانكتار) في خمس وعشرين شانية مملوءة بالرجال والسلاح والعدد " ٢ ويقول ابن خلدون — " ويحكوا فيها الشواني بالرماة ومنعوا الطريق "٣ ويقول المقريزى " انه في سنة ٦٩٢ تقدم السلطان الملك الاشرف صلاح الدين خليل بن قلاون الى الوزير الصاحب شمس الدين محمد بن السلعوس بتجهيز امر الشواني فنزل الى الصناعة واستدعى الرئيس وهيأ جميع ماتحتاج اليه الشواني حتى كملت عدتها نحو ستين شونه شحنها بالعدد والات الحرب ورتب بها عدة من المماليك السلطانية والبسهم السلاح "(×) وفي الشواني ابراج وقلاع ونقابين ومرامي النفط يقول المقريزى " فبرزت الشواني واحدة بعد واحدة وقد عمل في كل شونة برج وقلعة تحاصر والقتال عليها ملح والنفط يرمى عليها وعدة من النقابين في اعمال الحيلة في النقب وما منهم الا من اظهر في شونته عملا معجبا ٤ وصناعة غريبة يفوق بها على صاحبه ... هذا والشواني تتواصل بمحاربة بعضها بعضا" ويقول ايضا " فلما المحرم سنة ٧٠٢ في سلطنة الناصر محمد بن قلاون جهزت الشواني بالعدد والسلاح والنفطية والازودة وعين لها جماعة من اجناد الحلقة وندب الامير سيف الدين كهرداش المنصورى الزراق الى السفر به ومعه جماعة من ماليك السلطان الزراقين وزين الشواني احسن زينة " ٥ .

فالشواني اذن مراكب للحرب فيها ابراج وقلاع ومناظر وتوابيت ومنجنيقات ومكاحل بارود ونفط . وفيها نوتية ومقاتلة واسلحة . ٦ كما انها تزين بالاعلام يقول ابن — شداد " وكان اول شاني القى من فيه بالبر شانيه (ملك الانكتار) وكان احمر ورقبته حمراء وبيرقه احمر " ٧ ويقول المقريزى " في سنة ٦٩٩ سارت الشواني تريد قبرص وقد عمل ابن حسون رئيس الشواني في اعلامها الصلبان يريد بذلك انها تخفى اذا عبرت البحر على الفرنج حتى تطرقهم على غفلة " ٨ وكانت الشواني قبل ذهابها للقتال تزين احسن زينة ٩

---

١ — هامش السلوك ج ١ قسم ١ ص١٤٢ / ٢ — سيرة صلاح الدين ص١٢٠ / ٣ — العبر ج ٦ ص٣٦٣ /(×) — الخطط ج ٢ ص١٩٤ — ١٩٥ / ٤ — نفس المصدر ج ٢ ص ١٩٥ والتمدن ج ١ ص٢٠٠ / ٥ — نفس المصدر ج ٢ ص١٩٥ / ٦ — حضارة العرب ص١٦١ / ٧ — سيرة صلاح الدين ص١٨٤ / ٨ — الخطط ج ٢ ص١٩٤ / ٩ — نفس المصدر ج ٢ ص١٩٥ .

ويظهر ان الشونة مركب كبير يستوعب خلق عظيم . يقول ابن شداد " واحرقوا (المسلمين) للعدو شانيا كبيرا فيه خلق عظيم فهلكوا عن آخرهم " ١ ويقول المقريزى عشرة شواني بحرية فيها عشرة الاف مقاتل وهذا عند انقراض الدولة الفاطمية " ٢ ويقول ايضا " اخذ المسلمون شونة للفرنج فيها كند ومئتا رجل " ٣ .

ان تلك الاعداد التي يذكرها المقريزى تبين ان حجم الشونة كبير وان هذا الحجم يختلف من شونة الى اخرى فبعض الشون اكبر من بعض . وعلى العموم ليست الشون مراكب صغيرة . ويصف البرقوقي الشونة فيقول " هي اجفان حربية كبيرة تقام فيها الابراج والقلاع للدفاع والهجوم — وابراجها ذات طبقات مربعة — فالطبقة — العليا منها تقف فيها الجنود المسلحة بالقسي والسهام — وفي الطبقة السفلى الملاحون الذين يجذفون بنحو مائة مجذاف وقد يتراوح ماتحمله الشونة من المقاتلة مابين المائة والخمسين وبين المائتين — وتجهز الشواني وقت الحرب بالسلاح والنفطية والازودة بله الجنود البحرية " ٤ .

وقد وصف ابن حمديس الشونة بقوله :

انشأت شواني طائرة	وبنيت على مائة مدنا
بيروج قتال تحسبها	في شم شواهقها قننا
ترمي ببروج ان ظهرت	لعدو مخرقة بطنا
وبنفط ابيض تحسبه	ماء وبه تذكى السكنا
ضمن التوفيق لها ظفرا	من هلك عداتك ماضمنا ٥

هذه هي الشونة كما عرفها العرب وقد كان للروم والافرنج شواني تطرق بلاد المسلمين وتغزى سواحلهم . قال المسعودى " يقطع الروم في الشواني على المسلمين في البحر الرومي من ساحل الشام ومصر " ٦ ويقول صالح بن يحيى :

---

١ — سيرة صلاح الدين ص١٢١ / ٢ — الخطط ج ١ ص٩٤ / ٣ — نفس المصدر ج ١ ص٢٢١ / ٤ — حضارة العرب ص١٦٥ — ١٦٦ / ٥ — نفس المصدر ص١٦٤ / ٦ — مروج ج١ ص٢٦٦ .

" في سنة ٧٣٤ هـ حضرت شواني فرنج جنوية الى بيروت قاصدين اخذ قرقور — (سفينة طويلة معربة عن اليونانية) لطائفة الكتيلان ١ .

فما هي اذن صفات شواني الفرنج ؟ وهل هي كشواني المسلمين ام هناك بعض الفروق ؟ : يطلق كاتر مير كلمة Galère الافرنسية على الشونة ٢ كما ان كلمة Galley الانكليزية تناسب الشونة العربية وهي مرادفة في المعاجم الانكليزية — الافرنسية الى Galère الافرنسية فهل يمكننا تجوزا ان نسمي الشونة العربية بـ Galley ؟ اني ساستعمل لفظ شونة لتلك الكلمة الاعجمية Galley لاني اراها مناسبة لها وقد استعملها كاتر مير من قبل . ولنرى الان وصف N.Barna by الى Galley قال : ان احسن السفن المستعملة في اوائل القرن الثالث عشر اى حوالي سنة ١٢١٦ م هي الشواني Galleys وكانت تسير بصف الى الصفين من المجاذيف — ويجلس على سطحها ومن جانبيها عساكر يرتدون الدروع ويتمنطقون بالسيوف ، شاهرين الرماح ومحتمين خلف مجناتهم الفولاذية . وفي الشونة صاري واحد يدهن غالبا بالوان لامعة وقد يطلى بالذهب . وتخفق في اعلى هذا الصاري وفي كل مكان مناسب اعلام ورايات ترفرف عند هبوب الريح . وفي الشونة شراع يصنع غالبا من القطن المصور عليه والمنقوش باجمل الصور . ويظهر من طول السارية في هذه الشون ان الاشرعة كانت مثلثة الشكل . وفي اعلى الابراج صناديق مدورة " توابيت " تستوعب في داخلها عدة اشخاص واكثر مايكون ستة فقط في اكبر انواع الشون . وظيفتهم سحب الاحجار الكبيرة والاجر والقضبان الحديدية من الاسفل وقذفها على السفن المعادية لثقبها واغراقها ... وفي نهايتي الشونة سطوح مرتفعة تدعى قلاعا يرمى من اعلاها سهام مربعة الرؤوس ومريشة الطرفين بريش عادى او بقطع نحاسية يقذفها الرماة بايديهم او بواسطة جروخ Springald . ويقذفون احيانا جرار النورة على عيون اعدائهم ويستخدمون النار اليونانية لحرق سفن اعدائهم وهذه النار بقي استعمالها قرنا متاخرا حتى بعد ادخال المدفع Ordnance في معدات الشون . وعلاوة عما تقدم فان

---

١ — تاريخ بيروت ص ١٠١ / ٢— هامش السلوك ج ١ قسم ١ ص١٤٢ .

لكل شونة حديدة رفيعة تدعى الاسطام Spur ترتكز في مقدم الشونة تثقب بها جوانب سفن الاعداء " ١ ويصف Von Kremer المراكب البزنطيه المدعوة Byzantine triremes بوصف قريب من Galley وفي آخر وصفه لها يقول ان ال Galley مراكب اصغر من Trireme وتستخدم بصورة خاصة للهجوم والانقضاض ٢ . فالفرق بين Galley و Trireme اذن يتعلق بالحجم والسرعة فقط ولذلك لا بأس بذكر ماقاله عن المركب المدعو Trireme لنتعرف بواسطته على هذا النوع من المراكب البزنطية المقاربة للشون العربية . وينقل V. Kremer وصفه هذا عن LeoThe wise من كتابه Tactica xix,9 يقول " يوجد في Triremes خمس وعشرون مقعدا على الاقل في كل من سطحيها Decks ويجلس على كل مقعد رجلان للتجذيف . لذلك فلا يقل عدد المجذفين عن المئة . وعلى كل جانب من هذا المركب يجلس صفان من الرجال ، كل صف فيه خمس وعشرون رجلا ، وسطحه مؤلف من طبقتين الواحدة فوق الاخرى والنوتية فيه يعتبرون بنفس الوقت جنودا للقتال وفي مقدم هذا المركب اسطوانة من النحاس لقذف النار اليونانية وبروج كالقلاع يجلس عليها الجند لرمي مراكب العدو . وعدد رجال النوع الكبير من هذه المراكب مئتا رجل ، خمسون منهم للتجذيف والمئة والخمسون الباقون لقتال العدو من السطح العلوي Upper deck " ٣

ويوافق الاستاذ حتي ماقاله Von Kremer من ان الاسطول العربي شبيه بالاسطول البزنطي ومأخوذ عنه وعندما يصف قطعه الحربية يقول عن ال Galley ماذكره V. Kremer عن المركب المدعو Trireme ولعله اخذ عنه ٤ .

هذه هي الشونة عند العرب والافرنج وهي كما رأيت مراكب للقتال مختصة لحمل الجند والمقاتلين فيها ابراج وقلاع يرمى عنها النفط والسهام والنار اليونانية وغيرها تسير بالمجاذيف وقد يكون فيها اشرعة . ولا فرق كبير بين شواني المسلمين والافرنج وان وجد بعض الفروق فتكون في نوع المعدات والاسلحة التي يحملها الجنود وكثرة العدد والعدد او قلته في تلك المراكب .

---

١ — Naval. F. II ~~The Orient P. 360~~ ٢ — The Orient P. 360 ٣ — المصدر نفسه ص ٣٥٩ .

٤ — تاريخ العرب ص ٢٢٦ .

الطريدة

تجمع طريدة على طرائد كما يقول المقريزي " سوى الحراريق والطرائد " ١ وابن جبير يقول " جهز صاحب صقلية اسطولا عدد اجفانه فيما يقال ثلاثمائة بين طرائد ومراكب ولم اجد في معاجم كلمة طريدة بمعنى نوع من المراكب وانما وجدت كلمة طراد "بمعنى سفينة صغيرة وسريعة السير والجرى " ٣ ويقول كاترمير ان كلمة طريدة في لغة مصر تفيد معنى مركبا للنقل • وان هذه الكلمة حفظت في اللغة العربية تحت لفظ (طراد) هي مستعملة كثيرا في الكتب العربية التي نشرها Sousa ٤ ويستعملها الرحالة Niebuhr بمعنى المراكب التي تسافر مابين اليمن وجده • وقد نقل كلمة طريدة في القرون الوسطى الى لغات الامم الاوربية • فالكاتب البزنطي Pachymeres وغيره من الكتاب البزنطيين يستعملون جمع هذه الكلمة بالشكل الاتي TaPiSES اما كتاب اللاتين فكانوا يكتبونها في القرون الوسطى ايضا بالشكل الاتي : Tarida tarita, tareta ونقرأ في كتاب وضعه Sannta (٥) ان الجنويين من نزلاء Pesa كانوا يستخدمون في نقل ازوادهم واخشابهم مراكب تدعى TaretGe ونجد في التقارير التي قدمها مجلس البندقية لسفير ملك تونس كلمة — Tarida متكررة عدة مرات فلعل هاتين الكلمتين Tartana , Tartane نشأتا من كلمة طريده • ٦ ويفسر لامنس كلمة Tartane الافرنسية بمركب صغير في البحر الابيض المتوسط ويقول ان الكلمة الاسبانية Tarida وجمعها Terideb والكلمة الافرنسية Tartane هما على العموم اشتقتا من اللغة العربية ولعلها آتية من طريدة التي هي مركب للنقل ويتساءل ويقول من اين اتى لفظ ane في اللغة الافرنسية ؟ فيجيب ان العرب عندهم ايضا لفظ طراد " ٧ •

---

١ — الخطط ج ٢ ص ١٩٤ / ٢ — رحلة ابن جبير ص ٣٢١ / ٣ — تاج العروس وملحق دوزي مادة (طرد) والتمدن ج ١ ص ٢٠٠ / ٤ Documentos arabicos — ٥ P.128, 129 Secreta fidelium crucis. PS. 58,65 — ٦ — هامش السلوك ج ١ قسم ١ ص ١٩٤ • ٧ — ملاحظات لامانس ص ٢٦٧ •

ويقول البرقوقي " ان الاسبان اخذوا كلمة طريدة فقالوا Tariddo وقال الطليان Tartana وقال الفرنسيون Tartan " ١ .

ومهما كان شأن هذه التسمية فللطريدة خاصة بارزة تميزها عن غيرها من قطع الاسطول وهي انها معدة لنقل الخيول . وتكاد اقوال المؤرخين تتفق على ذلك . يقول ابن الاثير " جهز صاحب صقلية سنة ٥٧٠ هـ اسطولا كبيرا عدته مائتي شيني تحمل الرجالة وستا وثلاثين طريدا تحمل الخيل " ٢ فكما ان الشواني لحمل الرجال فالطرائد معدة لحمل الخيول في الاساطيل . ويقول ابن شداد " وصلت كتب من بيروت انه وقع قد اخذ من ماركب الانكتار القاصدة نحو عسكر العدو خمس مراكب وطرادة فيها خلق عظيم رجال ونساء وميرة واخشاب والات وغير ذلك وفيها اربعون فارسا " ٣ فبالرغم من مختلف انواع الحمولة التي تحملها الطرادة فابن شداد يقول ان فيها اربعون فارسا مما يدل على ان الطريدة تحمل الخيل . وينقل كاتر مير عدة نصوص توافق ماذكرت . فهو يذكر عن جمال الدين بن واصل مايلي ٤ " كانت عدة الطرايد ستة وثلاثين طريدة تحمل الخيل " وينقل كاتر مير ايضا عن النويري مايلي٥: " ستة وثلاثون طريدة تحمل الخيل " ومخطوطة الفاتيكان رقم ٢٦٧ ص ٨٢ تحدد محمول الطريدة باربعين فرسا فتقول " اما الطريدة فانها برسم حمل الخيل واكثر مايحمل فيها اربعون فرسا " ٦

ويصف ابن بطوطه الطريدة فيقول "وكان عندنا طريدتان مفتوحتي المؤخر فيهما الخيل وهي بحيث يركب الفارس فرسه في جوفها ويتدرع ويخرج " ٧ . فيدلنا ابن بطوطه عن كيفية خروج الخيل من الطريدة وذلك بفتح مؤخرها وخروج الفرسان من الطرايد وهم على ظهور خيلهم . ويذكر ايضا ان في الهند مراكب تسير في نهر السند تدعى

---

١ ــ هامش حضارة العرب ص ١٦٩ / ٢ ــ الكامل ج ١١ ص ١٦٧ و حضارة العرب ص ١٦١ او هامش Corpus le Et. Egypte. Tome 2 P 165 ينقل عن Amari P 333 .

٣ ــ سيرة صلاح الدين ص ١١٧ / ٤ ــ تاريخ الايوبيين مخطوطة عربية ص ٢٣

٥ ــ النويري القسم ٢٦ من مخطوطة ليدن ص ١٢ ب ٦ ــ هامش السلوك ج ١ قسم ١ ص ١٤٤ / ٧ رحلة ابن بطوطه ج ٢ ص ١٤٦ .

تدعى باهوره شبيهة بالطريدة وهي نوع منها وتسير بالمجاذيف ٠ ١ فلعل الطرائد تسير ايضا بالمجاذيف وارجح ذلك بالرغم من انني لم احصل على نص سوى ماقاله ابن بطوطه يؤيد هذا القول ٠

البارجـــة :

يقول الزبيدى " البارجة سفينة كبيرة وجمعها البوارج وهي القراقير والخلايا ٠ قال الاصمعي وقيد غيره فقال انها سفينة من سفن البحر تتخذ للقتال ٠ والبارج الملاح الفاره " ٢ ٠ ويفسر دوزى كلمة بارجة بما يلي " ان كلمة بارجة محرفة عن الهندية — بيره — وهي عشارى يستخدم في الهند ٣ وينقل عن البيضاوى مايلي ٤ ان بارجة تستعمل كصفة في اللغة العربية فيقولون سفينة بارجة بمعنى لاغطاء عليها وهذا اشتقاق خاطيء دون شك ٠ ويقول لامنس " ان Barge او بارجة هي زورق مسطح واصلها اللاتيني Barga والطلياني Bargia والبروفنسي Barga وعلماء الاشتقاق في تبلبل في معرفة اصل هذه الكلمة ٠ افلا يمكننا ان نعتبرها قريبة من كلمة بارجة العربية ؟ وهي يعرف القاموس المراكب الحربية ٠٠٠ ومهما كان الامر فمن المؤكد ان لهذه الكلمة معنى غير الذى شرحه القاموس اذ انها تدل على مركب او زوارق قرصان الهنود كما يذكر ذلك كتاب عجائب الهند ص ١١٤ وغيره من المؤلفين ٥

ويعتبر المسعودى البارجة سفينة حربية تستخدم في بحر الهند كالشونة في البحر المتوسط يقول " وتأوى الى جزيرة سقطره بوارج الهند الذين يقطعون على المسلمين في هذه البوارج ، وهي المراكب ، على من اراد الصين والهند وغيرها ٠ كما يقطع الروم في الشواني على المسلمين في بحر الروم من ساحل الشام ومصر ٠ " ٦

وقد اخذ المسلمون البوارج عن الهنود واستخدموها في قتال اعدائهم ٠ يقول البلاذرى " وجه عمرو بن جمل في بوارج الى نارند ، ووجه الى ناحية الهند فافتتح قشمير " ٧ ٠

١— رحلة ابن بطوطه ج ٢ ص٧ / ٢— تاج العروس مادة "برج " / ٣— ملحق دوزى مادة برج
٤— البيضاوى ج ٢ ص٣٠ / ٥— ملاحظات لامنس ص٤٥ / ٦— مروج ج ١ ص٣٣٦ / ٧— فتوح البلدان ص٤٤٩ ٠

واني آسف جدا ان المعلومات عن صفات البارجة وكيفية اجرائها وشكلها — معدوم في المصادر التي رجعت اليها ولعل قول المسعودي السابق ان البوارج — كالشواني يعطي لنا عن صورة البارجة من خلال الشونة التي تقدم وصفها .

الجفنة :

يقول دوزى في تعريف الجفنة " جفنة جمعها جفان ، وهي مركب حربي " ١ اما ابن جبير وابن بطوطه فيجمعونها على اجفان بالهمزة ويجعلونها مراكب للقتال . يقول ابن جبير " والناس يرجمون الظنون في مقصد هذا الاسطول الذى يحاول هذا الطاغية تعميره وعدد اجفانه فيما يقول ثلاثمائة " ٢ ويقول ابن بطوطه " ولقينا اربعة اجفان فقاتلتنا يسيرا ثم انصرفت " ٣ وقد يضيف ابن بطوطة كلمة حربية الى اجفان — فيقول " وكان يسافر في الاجفان الحربية لحرب الروم " ٤ .

فالجفنة اذن مركب حربي وقطعة من قطع الاسطول ٥ معدة للحرب والقتال . اما شكلها وصفتها وكيفية اجرائها فليس واضح في كتب المؤرخين وفي النصوص التي ترد فيها هذه الكلمة .

الشلندى :

يقول البستاني في معجمه الشلندية نوع من السفن ٦ اما دوزى فيقول ان كلمة شلندى آتية من اللفظ البزنطي χελάνδιον اخذها الروس فسموها Schelanda وقال الطليان عنها Scialande وهي تجمع على شلنديه وشلنديات ٧ والجمع الاخير هو المستعمل غالبا عند مؤرخي العرب لاننا نجد اكابر المؤرخين وقدماءهم يستعملونه . فالطبرى مثلا يقول " ويقال ان الروم الذين كانوا في الشلنديات التي اناخت بدمياط كانوا نحوا من خمسة الاف رجل " ٨ وابن الاثير يقول " فانهزم

---

١ — ملحق دوزى مادة " جفن " / ٢ — رحلة ابن جبير ص ٣٢١ / ٣ — رحلة ابن بطوطه ج ٢ ص ١٧٧ / ٤ — نفس المصدر ج ٢ ص ٣٥٠ / ٥ — الروض ص ١٨٨ / ٦ — المحيط مادة — " شلند " / ٧ — ملحق دوزى مادة " شلن " / ٨ — الطبرى الجملة الثالثة ج ١١ ص ١٤١٨

الروم واخذ منهم المسلمون عشر شلنديات برجالها " ١ والمقريزي يقول ايضا " وان يكون ماينشأ من الجراني والشلنديات في الصناعة بالجزيرة " .

ويقول لامنس " ان الكلمة الافرنسية Chaland والكلمات اللاتينية Salandra chelandrium Chelandium انواع من المراكب المسطحة ، وقد وجدت هذه الكلمة Chaland في انشودة رولان Roland ويتردد M.Davic في ان تكون هذه الكلمة العربية شلندى تستعمل ايضا لمراكب الحرب " ٢ اني لااجد مبررا لتردد Davic في ان تكون كلمة شلندى العربية مستعملة لمراكب الحرب فالنصوص العربية واضحة في استخدام هذا النوع من المراكب في عداد قطع الاسطول . واظنه خلط بين المعنيين العربي والافرنجي لهذه الكلمة . يقول V. Berchem " ان اللفظ العربي شلندى هو نفس اللفظ الافرنسي Chaland الا ان المعنيين اللذين يدلان عليهما اللفظان مختلفان في اللغتين فمعنى اللفظ العربي كما يقول ابن مماتي يدل على مركب مسقف ذو سطحين Double Pont يقف على السطح الاعلى المحاربون وفي السطح الاسفل يكون المجذفون . اما معنى Chaland الافرنسي فهو نوع من القوارب " ٣ وقد رجعت لمعجم Larousse لارى وصف هذا النوع من القوارب فوجدته مايلي " Chaland كلمة يونانية الاصل آتية من Chelandion ومعناها مركب مسطح من الخشب او الحديد مستطيل الشكل مختص لنقل البضائع والاثقال في الانهار ويستعمل في المرافئ لتفريغ المراكب وتحميلها (وتجر من قبل غيرها عند سيرها او تدفع بقضيب من الخشب اذا كانت الاعماق قليلة) " ٤

واظن ان هذا المعنى الاخير لكلمة Chaland هو الذي دفع ب Devic ان يحكم بان الشلندى المستخدم عند العرب لم يكن مركبا حربيا .

وهناك كثير من النصوص العربية القديمة تدل تماما على ان الشلندى قطعة من قطع الاسطول اذكر منها مثلا قول ابن الاثير : " ولما سمع الروم بملك المسلمين قصر يانه في صقلية ارسل ملكهم بطريقا من القسطنطينية في ثلاثمائة شلندى وعسكرا كثيرا " ٥ ويقول ايضا " في سنة ٥٤٣ سار عبد المؤمن صاحب المغرب لمدينة المهدية واقبل اسطوله في البحر في سبعين شينيا وطريدة وشلندى " ٦ .

(الهامش في الصفحة التالية)

فالشلندى اذن كما يدل عليه قولا ابن الاثير المتقدمان قطعة من قطع الاسطول لحمل الجند والعسكر . كما ان المقريزى في قوليه الاتيين يعطي تقريبا المعنى نفسه فهو يقول " انشأ المعز لدين الله المراكب الحربية واقتدى به بنوه وواصلوا انشاء المراكب الحربية والشلنديات والمسطحات " ٧ ويقول ايضا " كان من اهم امورهم (الفاطميين) احتفالهم بالاساطيل والاجناد ومواصلة انشاء المراكب بمصر والاسكندرية ودمياط والشواني الحربية والشلنديات والمصفحات (*) " مما تقدم نرى ان الشلندى مركب مسقف ذو سطحين يسير بالمجاذيف وهو قطعة من قطع الاسطول يحمل الواحد منه على حد قول الطبرى " مابين الخمسين رجلا الى المائة " ٨ .

المسطح :-

جمعه مسطحات ويسميه ابن شداد بالسطح . ويقول دوزى لعله سمي بالمسطح لوجود سطح فيه ٩ وقد انتقلت كلمة مسطح الى اللغات الاخرى فاخذها الاسبان ودعوها Mistico وانتقلت الى القطلانية باسم Mestech والى الافرنسية باسم Mistikue او Mistic ١٠ والمسطح قطعة من قطع الاسطول يحمل الواحد منها اكثر من خمسمائة شخص يقول ابن شداد " وصل الخبر ان الاسطول الاسلامي استولى على

---

١ — الكامل ج ٧ ص ٤١ طبعة ليدن سنة ١٨٦٥ / ٢ — الخطط ج ١ ص ٤٨٢ /
٣ — ملاحظات لامنس ص ٨٣ / ٤ — هامش 165 Corpus Ie Pt,Egypt Tome ~~xx~~ 2e P.
٤ — Larousse du XXé siècle, Paris, Librairie Larousse "Chaland"
٥ — الكامل ج ٧ ص ٤٢ طبعة ليدن سنة ١٨٦٥ / ٦ — نفس المصدر ج ١١ ص ١٥٩ /
٧ — الخطط ج ٢ ص ١٩٣ / ** (*) نفس المصدر ج ١ ص ٤٨٣ / ٨ — الطبرى الجملة الثالثة ج ١١ ص ١٤١٧ / ٩ — ملحق دوزى مادة (سطح) / ١٠ — ملاحظات لامنس ص ١٦٦

مراكب الافرنج وفيها مركب يعرف بالسطح قيل ان كان فيه خمسمائة نفر وزائد على ذلك " ١ وكثيرا مايقرن المقريزى المسطح مع الشلندى ولعل ذلك راجع للشبه الشديد بينهما فهو يقول " الشواني الحربية ، والشلنديات ، والمسطحات " ٢ فهو اذن مركب حربي وقطعة من قطع الاسطول لحمل المقاتلة . يدل على ذلك قول المقريزى التالي " وظفر المسلمون بمسطح للفرنج في البحر فيه مقاتلة " ٣ .

الغراب :

لم اجد في المعاجم العربية القديمة كلمة غراب بمعنى نوع من المراكب . اما في المعاجم الحديثة فيذكر دوزى " ان غراب جمع غربات ، واغربة . فالمؤرخ Amari Dipl. 8, cout.7 r° يذكر مابلي : انشأ غرابات واخذ من مراكب التجار . فهنا جمعت كلمة غراب على غرابات وهي بمعنى الشونة Galère " ٤

اما جمع غراب على اغربة فيتردد كثيرا في كلام صالح بن يحي يقول " رسم السلطان بارسباى بتعمير ثلاثة اغربة " ٥ وبعد ذلك بقليل يذكر ايضا " فكانت خمسة اغربة " ٦ ويقول ايضا " في سنة ٨٢٨ عمر السلطان بارسباى في مصر عدة اغربة " ٧ اما ابن خلدون فيجمع غراب على غربان فيقول " وكانوا فيما قيل سبعين اسطولا من غربان وشواني " ٨ .

وقد انتقلت هذه الكلمة الى لغات شتى فـ Von Kremer يقول " ان الكلمة Corvette آتية من كلمة غراب العربية . ثم يذكر في الهامش ان هذه الكلمة موجودة في اللغة اليونانية بالشكل الاتي Golafros, golabros and golafos ٩

ويقول ان كلمة غراب العربية بمعنى نوع من المراكب ظهرت سابقا في قاموس Schia-parelli

---

١ـ سيرة صلاح الدين ص١٥٤ / ٢ـ الخطط ج ١ ص٤٨٣ وايضا ج ٢ ص ١٩٣

٣ـ نفس المصدر ج ١ ص٢٢٠ / ٤ـ ملحق دوزى مادة " غرب " / ٥ـ تاريخ بيروت ص٢٢٠ / ٦ـ نفس المصدر ص٢٢٠ / ٧ـ نفس المصدر ص٢٢٠ / ٨ـ العبر ج ٦ ص٣٠٦ / ٩ـ وقد نقل ذلك عن cf. Ducange: Glossarium infimæ grœcitatis und Muratori. Rerum itabicarum, etc. VI, 112

تحت كلمة Galea ولكنها اصبحت الان غير مستعملة في اللغة العربية بهذا المعنى " ١ . ويقول لامنس " ان كلمة Corvette الافرنسية Corbetta الاسبانية و Corveta البرتغالية يمكن ان تكون آتية من غراب الكلمة العربية . كما فسر ذلك Amari, Bibl. Arab. Sic. " ٢ ويقول في مكان آخر " ان كلمة Gorab, Gorabo, Corabo Currabi, guarapi الاسبانية لعلها آتية من غراب العربية . وبحسب الخفاجي في كتابه شفاء الغليل ص ١٦٢ ، ان كلمة غراب كلمة مختصة تماما بالمغرب . ونجدها ايضا بمعنى شونة في كتاب الرحلة في اسبانيا لسفير مراكشي " ٣ .

ويقول مصطفى زياده " ان الكلمة الانكليزية المعادلة لكلمة غراب تفيد بانها نوع من سفن الحرب ومعجم الفوائد الدرية يسميها Corvet اما معجم Johnson وهو قاموس عربي فارسي انكليزي فيدعوها Grab . وقد فسر هذه الكلمة Webster في قاموسه الدولي بما يلي " الغراب Grab زورق يستخدم في الشواطئ صغير الحجم عريض الجوف ... يستعمل عند اهل المشرق . له غالبا صاريين واشرعة " ٤ اما دوزى ففسر الاغربة " بانها مراكب صغيرة شراعية ذات مجاذيف تستعمل للسباق " ٥

والغراب مركب حربي كبير فيه مايقارب المئة مقاتل كما يقول صالح بن يحيي —

" وورد مرسوم شريف بتوجه امراء الغرب معهم فتوجهت معهم مقدما على الغراب العتيق وهو غراب عمل ببيروت متقدما على هذه الايام الذى توجه الشاميون فيه الى قبرص . وكان معي قريب من مائة رجل بحرية ومقاتلة وكان الغراب المذكور احسن الاغربة مشيا " ٦ والغراب الذى كان صالح بن يحي مقدما عليه صغير بالنسبة الى غيره من الاغربة المعروفة في ذلك الوقت اذ ان الاغربة ليست متساوية الحجوم فبعضها كبير وبعضها صغير . وصالح بن يحي نفسه يقول ذلك " رسم السلطان بارسباى بتعمير ثلاثة اغربة من مصر احدها صغير وغرابان كبيران كاملان وحضرت الى بيروت . ورسم

١— The Orient P. 362 ٢— ملاحظات لامنس ص ٩١ / ٣— نفس المصدر ص ١٢٠ / ٤— مجلة الجامعة المصرية هامش ص ١٠٥ / ٥— ملحق دوزى مادة (غرب) ٦— تاريخ بيروت ص ٢٢١ / ٢٢٢

ورسم ايضا ان يتوجه معها غراب صغير ببيروت وغراب آخر كان في طرابلس كبير " ١ والاغربة تسير بالمجاذيف . ويختلف عدد المجاذيف بحسب كبر الغراب وصغره . يقول صالح بن يحي " في سنة ٨٢٨ عمر السلطان بارسباى في مصر عدة اغربة كبار وصغار ورسم بعمارة غرابين احدهما بثمانين مقذافا والثاني باربعين " ٢ ويقول في مكان آخر " فكانت خمسة اغربة ثلاثة كبار بمائة وثمانين مقذافا كل واحد واثنان كل منهما بدون المائة " ٣ . ويقول ابن بطوطه " ان الغراب يسقف حين القتال حتى لا ينال الجذافين شيء من السهم ولا الحجارة " ٤ . وذكر فون كرومير في حاشية كتابه " ان هذا النوع من المراكب دعي بهذا الاسم لسواد لونه ويمكن ايضا ان يكون بسبب شكله الغريب " ٥ ولعله اخذ هذا المعنى من تفسير الكلمة " غراب " في المعاجم العربية التي تصف الطائر المعروف بالغراب بصفات احب ان يطبقها على هذا النوع من المراكب .

<u>بطسه او بطشه :</u>

كثيرا ماترد بطسه في كتب المؤرخين وقد ترد بالشين . وتدل في الحالتين على نوع واحد من مراكب الاسطول . فالمقريزى مثلا يذكرها بالسين ويقول " في سنة ٦١٨ عند حصار دمياط تتابع مجيء الملوك حتى بلغت عدة فرسان المسلمين نحو — اربعين الف فارس فحاربوا الفرنج في البر والبحر واخذوا منهم ست شواني وجلاسة وبطسه " ٦ . اما ابو الفداء فتارة يذكرها بالسين واخرى بالشين يقول مثلا عند ذكره اياها بالشين مايلي " وصل اسطول المسلمين في البحر مع حسام الدين لولو وكان شد هما فظفر ببطشة للفرنج فاخذ ودخل بها عكا " ٧ واما ذكره لها بالسين فيتضح لنا من القول التالي " في حصار عكا احضر الفرنج بطسه فيها منجنيق يرمي

١ــ تاريخ بيروت ص ٢٢٠ / ٢ــ نفس المصدر ص ٢٢٠ / ٣ــ نفس المصدر ص ٢٢٠

٤ ــ رحلة ابن بطوطه ج ٢ ص ١٢٠ / ٥ــ The Orient P. 362

٦ــ الخطط ج ١ ص ٢١٨ / ٧ــ المختصر ج ٣ ص ٧٧ .

علينا وعلى خيمنا من جهة البحر فكنا منه في شدة " ١ .

ويدلي كاتر مير بنصوص عديدة تبين لنا استعمال المؤرخين لهذه الكلمة احيانا بالسين واخرى بالشين يقول : " ان كلمة بطسه بالضم تفسر بمركب حربي ، اذ اننا نقرأ في تاريخ حلب ٢ مايلي جهز الفرنج بطسا متعددة لمحاصرة برج الذبان . ثم يقول : جعلوا على صوارى البطس برجا . ويقول في مكان آخر جعلوا في البطسة وقودا كثيرا ... وفي تاريخ بيت المقدس ٣ القوا على تياره بسط البطس ثم يقول ص ١٥٨ آ بطس للازواد والمير ناقلة . ويقول ص ١٥٨ ب : بطسة كبيرة تشمل على ميرة وذخيرة . ~~xxxxxx~~ اما ذكرها بالشين فهو في الاقوال الاتية ينقل عن — النويري ٤ مايلي وقع على بطشة كبيرة للفرنج . ثم يقول ص ١٢٠ ب عملوا برجا من الخشب على بطشة كبيرة وفي ص ٢٠٤ آ يقول عمدوا الى بطشة من البطس . ويقول ايضا عبوا بطشه ثانية . واخيرا يذكر : البطس الاسلامية " ٥ .

وتجمع بطسه على بطس يقول ابن شداد " جهز العدو بطسا متعددة " ٦ ويقول ابن الاثير وصل منهم الملك فيليب ملك افرنسيس وكان معه ست بطس كبار عظيمة " ٧ وينقل صالح بن يحي عن النويري مايلي " في سنة ٦٩٨ وصل الى بيروت مراكب كثيرة وبطس للفرنج فيها جماعة كثيرة من المقاتلة . يقال ان البطس كانت ثلاثين بطسة " ٨ . واحيانا تقرن كلمة بطسة بالفرنج عندما تكون خاصة بهم يقول ابن الاثير " فجاء الخبر لصلاح الدين وهو على بيروت ان البحر قد القى بطسه للفرنج " ٩ ويقول ابو الفداء " فظفر ببطشة للفرنج " ١٠ او تقرن كلمة بطســه

---

١ — المختصر ٤ ص ٢٥ / ٢ — مخطوطة رقم ٧٢٨ ص ٢١٨ ب / ٣ — عماد الدين الاصفهاني مخطوطة رقم ٧١٤ ص ١٢٤ ب / ٤ — مخطوطة في ليدن ص ١٠٢ ب
٥ — هامش السلوك ج ١ قسم ٢ ص ٨٦ / ٦ — سيرة صلاح الدين ص ١٠٠ /
٧ — الكامل ج ١٢ ص ٢٢ / ٨ — تاريخ بيروت ص ٢١ / ٩ — الكامل ج ١١ ص ١٩٦
١٠ — المختصر ج ٣ ص ٧٧ .

بالاسلام عندما تكون للمسلمين يقول ابن شداد " وعبرا (الفرنج) بطسة ثانية وملؤوها حطبا ووقودا على انهم يدفعون بها الى ان تدخل بين البطس الاسلامية ثم يلهبونها فتحرق البطس الاسلامية " ١ .

وقد انتقلت كلمة بطسة الى اللغات الاخرى يقول لامنس " ان كلمة بطشة Patache تفيد في القديم مركبا حربيا مدورا مرتفع السطح . والان فهي تفيد مركبا لحراسة الشواطئ " . وهي باللغة الاسبانية Albatoza او Patache وفي البرتغالية Albatosa, Pataxo, Patacho وفي الايطالية Patacchia, Patassa, ولعلها آتية من بطشه او بطسه العربية التي تفيد مركب حربي . ثم يقول :/ وهذه الكلمة ليست قديمة في اللسان العربي وقد بدا استعمالها ينتشر في زمن الصليبيين على السنة الكتاب الشرقيين . وفي الهامش يقول كابن الاثير في كتابه الكامل للتاريخ وبهاء الدين في كتابه سيرة صلاح الدين ، والنويرى ، وابو الفداء ، والمقريزى ، واسامة بن منقذ ص ٢٥ وغيرهم " ٢ .

والبطس المستخدمة عند المسلمين والافرنج ليست متساوية الحجم فبعضها كبير جدا وبعضها صغير يدلنا على ذلك مقدار ماتستوعبه من الرجال . فابن الاثير يذكر " ان البحر قد القى بطسة للفرنج فيها جمع عظيم منهم الى دمياط كانوا قد خرجوا لزيارة البيت المقدس . فاسروا من بها بعد ان غرق منهم كثير فكان عدد الاسرى ، — ١٦٤٦ — اسيرا فضربت بذلك البشائر " ٣ فعدد من اسر هو — ١٦٤٦ — وغرق في البحر كثير منهم ، فما هو العدد الاصلي ياترى ؟؟ . لاشك ان حجم البطسة بحسب هذا النص الذى يورده ابن الاثير كان كبير جدا . وليس هذا النص هو الوحيد الذى يدل على سعة البطسة فالمقريزى يقول " واتفق مرة ان قدم على الاسطول سيف الملك الجمل فكسب بطشة عظيمة فيها الف وخمسماية شخص " ٤ ويقول كاترمير نقلا عن " تاريخ بطارقة الاسكندرية L'histoire des Patriarches déAlexandrie m. I40,P 440

١ـ سيرة صلاح الدين ص١٠١ / ٢ـ ملاحظات لامنس ص ١٩٢ / ٣ـ الكامل ج ١١ ص١٦٦ / ٤ ـ الخطط ج ١ ص ٤٨٠ و هامش السلوك ج ١ قسم ٢ ص ٢٧٢ .

ان بطسة بحجم عظيم جدا كانت لامبراطور المانيا كانت تحمل اسم " نصف الدنيا " ١ فلو لم تكن كبيرة جدا لما دعيت بذاك الاسم ولما وصفها ذاك المؤرخ بانها عظيمة الحجم. ويرد عند المؤرخين الشرقيين اوصافا للبطسة تدل على عظمها فمثلا يقول ابن الاثير " وصل الملك فيليب ملك افرنسيس وكان معه ست بطس كبار عظيمة " ٢ والنويري يقول " وقع على بطشة كبيرة للفرنج " ٣ ومن الاعداد التي يذكرها المؤرخون عن ركاب البطسة نستدل على سعتها وكبر حجمها . يقول ابن الاثير " لما وردت الاخبار - بوصل ملك الانكلتار امر صلاح الدين بتجهيز بطسة كبيرة مملوءة من الرجال والعدد والاقوات فتجهزت وسيرت من بيروت وفيها سبعمائة مقاتل " ٤ . فعلاوة عما في هذه البطسة من الاسلحة والاقوات كانت تحمل سبعمائة مقاتل . هذا العدد يدلنا - دون شك على عظم البطسة وسعتها في ذاك الزمن .

ولم تكن البطس مراكب مختصة بالفرنج فقط بل كان للمسلمين بطسا ايضا - يستخدمونها في محاربة الصليبيين وفي نقل الذخيرة والميرة للمدن المحصورة يقول ابن شداد " وكان مما دخل اليها (عكا) سبع بطس مملوءة ميرة وذخائر ونفقات كانت وصلت من مصر محملة وتقدم السلطان بتعبيتها من مدة مديدة ... " ٥ ويقول ايضا " كتب بهاء الدين قراقوش وهو والي البلد (عكا) والمقدم على الاسطول ... وكان قد كتب الى مصر بتجهيز ثلاث بطس مشحونة بالاقوات والادم والميرة وجميع مايحتاج اليه في الحصار بحيث يكفيهم ذاك طول الشتاء واقلعت البطس الثلاث من الديار - المصرية ولججت في البحر تتوقى النوتية بها الريح حتى ساروا بالريح التي تحملها الى نحو عكا ... " ٦ .

مما تقدم نستنتج ان البطسة مركب كبير ، يستخدمه المسلمون والصليبيون في حمل ذخائرهم واقواتهم ورجالهم من محاربين وغير محاربين . يقول ابن شداد " القت الريح بطستين فيهما رجال وصبيان ونساء وميرة عظيمة وغنم كثيرة قاصدين نحو العدو

١- هامش السلوك ج ٢ قسم ٢ ص٢٧٢ / ٢- الكامل ج ١٢ ص٢٧ / ٣- هامش السلوك ج ٢ قسم ١ ص٨٦ / ٤- الكامل ج ١٢ ص٢٨ / ٥- سيرة صلاح الدين ص١١٣ وايضا ص٩٧ و ص١٠٠ / ٦- نفس المصدر ص١٠٠ .

فغنمها المسلمون " ١ ويقول ابن الاثير " في كل بطسة نحو سبعمائة مقاتل " ٢
ويقول ايضا " في سنة ٥٧٩ سار اسطول المسلمين من مصر في البحر فلقوا بطسة
فيها نحو ثلاثمائة من الفرنج بالسلاح التام ومعهم الاموال والسلاح الى فرنج الساحل" ٣

والبطسة تستخدم للحرب كما تستخدم للنقل ومما يؤهلها للقيام بالعملين وسع
حجمها وتجهيزها بانواع المعدات المختلفة كالمنجنيق والابراج والعسكر . وهي تسير
بالاشرعة يقول ابن شداد : " وصلت بطسة من بيروت عظيمة هائلة مشحونة بالالات
والاسلحة والميرة والرجال والابطال المقاتلة وكان السلطان قد امر بتعبيتها وتسييرها
من بيروت ووضع فيها من المقاتلة خلقا عظيما حتى تدخل البلد مراغمة للعدو وكان
عدة رجالها المقاتلة ستمائة وخمسين رجلا فاغرقها الانكتار في عدة شوان . قيل كان
فيها اربعون قلعا فاحتاطوا بها من جميع جوانبها واشتدوا في قتالها وجرى القضاء
بان وقف الهواء فقاتلوها قتالا عظيما ... " ٤ ويقول ايضا " فقالوا نحن نرد القلوع
الى العسكر وقد اتى بطسة اخرى في هوائنا " ٥ . هذه هي البطسة وهي مركب
مركب حربي يستخدمه المسلمون والفرنج على السواء لحمل رجالهم وذخائرهم ويسيرونها
بالاشرعة .

الحمالة :

يقول دوزى في معجمه : " حمالة مركب للنقل " ٦ وتجمع هذه الكلمة على
حمالات يقول صالح بن يحي " في سنة ٨٢٨ عمر السلطان بارسباى في مصر اربع
حمالات كبار " ٧ وقد تضاف كلمة مركب لهذه الكلمة فيقال مركب حمال وجمعها مراكب
حمالة . وهي يعرف دوزى ودوغويه " مراكب للنقل " ٨ يقول الادريسي عندما يتكلم
عن لشبونه مايلي : " اجتمعوا رجال كلهم ابناء عم فانشأوا مركبا حمالا وادخلوا فيه
مع

١ـ سيرة صلاح الدين ص١٠٤ / ٢ـ الكامل ج ١٢ ص٢٨ / ٣ـ نفس المصدر ج ١١
ص٢٠١ / ٤ـ سيرة صلاح الدين ص٢٢١ / ٥ـ نفس المصدر ص٩٧ / ٦ـ ملحق دوزى
مادة "حمل " / ٧ـ تاريخ بيروت ص٢٢٠ / ٨ـ تعليقات على الادريسي ص٢٨٨ .

وادخلوا فيه من الماء والزاد مايكفيهم الاشهر " ١ ويقول ايضا عند ذكر مدينة تونس " وهي وسط جون خارج عن البحر ... واليه تصل المراكب الحمالة والنواشي والحرابي وترسي هناك " ٢ . وقد استعمل المقريزي حمالة اسما بصيغة الجمع في قوله التالي " وآخر ماصارت اليه الدولة الفاطمية نحو الثمانين شونة وعشر مسطحات وعشر حمالة " ٣ . والحمالة مركب حربي تستعمل على العموم لحمل الاثقال ونقل الرجال والمحاربين من مكان لاخر يقول صالح بن يحي " ثم ورد مرسوم السلطان بارسباى لعمارة حمالتين كبيرتين في بيروت ... ويستخدم لهما رجال مقاتلة " ٤ الا ان الخاصة الاساسية للحمالة التي تفرقها عن غيرها من انواع المراكب الحربية في الزمن المتأخر كونها تحمل الخيول فهي اذن تذكرنا بالطريدة التي كانت مستعملة في الاسطول العربي في ايامه الاولى والتي كانت مخصصة لحمل الخيل ايضا . نستدل على ذلك بما ذكره صالح بن يحي في قوله الاتي " في سنة ٨٢٨ عمر السلطان — بارسباى في مصر اربع حمالات كبار برسم شيل الخيول والاثقال وتسع الناس الكثيرة " ٥ ويقول الظاهري " ان العمارة تكملت وهي خمس قراقير وتسع عشرة غرابا ، وست حمالات برسم الخيول " ٦ . وكما تسمي الان الدول البحرية مراكبها ومدرعاتها باسماء كبار رجالها وملوكها كذلك كان المماليك يدعون مراكبهم وحمالاتهم باسماء كبار امرائهم . يقول صالح بن يحي " ولما توفي يلبغا العمرى سنة ٧٦٨ هـ بطلوا العمارة في المراكب المذكورة ولم ينزل منها الى البحر سوى حمالتين كبيرتين الواحدة باسم سنقر والثانية باسم قراجا وهما اميران من امراء ذلك الوقت . وكان الامير بيدمر قد استعجل القوم على عمارتهما وفراغهما ليجهزهما فيحضرا صوارى وقرايا ومقاذيف لباقي الشواني التي يعمرونها " ٧ . هذه الظاهرة — وهي اطلاق اسماء على المراكب — جميلة لا ادرى اذا كانت معروفة في الاسطول العربي منذ ايامه الاولى .

---

١ — الادريسي ص١٨٤ / ٢ — المصدر نفسه ص١١٢ / ٣ — الخطط ج ٢ ص١٩٣ /
٤ — تاريخ بيروت ص٢٢٦ / ٥ — نفس المصدر ص٢٢٠ / ٦ — زبدة كشف الممالك وبيان الطرق والمسالك ص ١٣٩ / ٧ — تاريخ بيروت ص ٣٥ .

حربي وحربية :

يجمع دوزى حربي على حربية ويقول انها مراكب للحرب ١ ولا اعتقد ان كلمة حربية جمع بل هي لفظ مفرد نستدل على ذلك بقول ابن الاثير " انصرف ابو العباس بن ابراهيم بن الاغلب الى مسيني وجاز في الحربية الى ريوا " ٢ وارجح ان حربية تجمع على حربيات اذ ان المقريزى يقول " امر المأمون بن البطايحي انشاء الحربيات ، والشلنديات بصناعة الجزيرة " ٣ اما حربي فتجمع على حرابي يقول الادريسي " وفي مدينة بجاية دار صناعة لانشاء الاساطيل والمراكب والسفن والحرابي " ٤ ويقول ايضا " وتصل الى جون تونس المراكب والحمالة والنواشي والحراب وترسي هناك[٥] "

ويذكر دوزى ودوغويه " ان حروب تجمع على حرابي ومعناها مراكب حربية . ويقولان ان المفرد من هذه الكلمة يظهر انه غير مستعمل اوعلى الاقل انهما لايتذكرا انهما صدفاه " ٦ لذلك ارجح انه لايوجد كلمة حروب بمعنى نوع من المراكب وانما يوجد كلمة حرابي التي تفيد هذا المعنى . استدل على ذلك بقول ابن الاثير " كان ابراهيم بن الاغلبي امير افريقيا ... فولي بعده ابنه ابا العباس على صقلية فوصل اليها سنة ٢٨٧ في مائة وعشرين مركبا واربعين حربي " ٧ واما حرابي فقد مر معنا انها جمع لكلمة حربي .

وتكون احيانا كلمة حربي او حربية صفة لاسم ما نقول مركب حربي ، ومركب حربية ، واجفان حربية . والدليل على ذلك قول المسعودى " في سنة ٨٣٢ كان في جزيرة رودس دار صناعة للروم وبها تنشأ المراكب الحربية " ٨ ويقول المقريزى " امر احمد بن طولون بناء حصن على الجزيرة واتخذ مائة مركب حربية " ٩ . ويقول ابن بطوطه " وكان يسافر في الاجفان الحربية لحرب الروم " ١٠ .

١ـ ملحق دوزى مادة (حرب) ٢ـ الكامل ج ٧ ص ٣٥٠ طبعة ليدن سنة ١٨٦٥ / ٣ـ الخطط ج ٢ ص ١٩٧ / ٤ـ الادريسي ص ٩٠ / ٥ـ المصدر نفسه ص ١١٢ / ٦ـ تعليقات على الادريسي ص ٢٨٢ / ٧ـ الكامل ج ٧ ص ٣٤٩ طبعة ليدن سنة ١٨٦٥ / ٨ـ مروج ج ٢ ص ٤٢٣ طبعة باريس / ٩ـ الخطط ج ٢ ص ١٨٠ / ١٠ـ رحلة ابن بطوطه ج ٢ ص ٣٥٠ .

مما تقدم استدل على ان حربي وحربيه كلمتان تدلان على نوع من انواع المراكب التي كانت تستخدم في الاسطول لحمل الرجال والقتال . وعلاوة عن النصوص التي اوردتها والتي تدل على ذلك فان اسمهما واشتقاقهما من مادة " حرب " يعين ذلك .

<u>غليون :</u>

يقول دوزي ان غليون تجمع على غلايين وغلاوين وهي الكلمة الاسبانية Galeon والطليانية Galeone ومعناها مركب ذو سطح مرتفع ١ وقد انشأ قانصوة الغوري (٩٠٦ — ٩٢٢ هـ) غليونا فيه مكاحل البارود يقول ابن اياس عنه " وكان سبب نزول السلطان قانصوة الغوري الى هناك قيل انه عرض المركب الكبير الغليون الذي عمره في بولاق عند الرصيف فلما كمل زينوه بالصناجق والطوارق والمكاحل وتوجهوا به الى طر ، وعرضوه على السلطان في البحر " ٢ واستعمال مكاحل البارود في الغليون يدل على تقدم الملاحة البحرية ويشير Barnaby "ان الاوربيين اول مااستعملوا المدافع Guns في الملاحة البحرية كان سنة ١٢٦٠م" ٣ مما يدلنا على ان استعمال المدافع في السفن كان قد انتشر في الشرق والغرب في اواخر القرن الرابع عشر ميلادي . وسيأتي الكلام عن ذلك فيما بعد عند ذكر معدات الاسطول .

يقول Barnaby ايضا " ان الاسبان كانوا يستعملون سفنا تدعى الغليون Galleon تسير بالمجاذيف وتوضع بين المجاذيف المدافع . وبقي الغليون يستعمل عند بعض الشعوب ، ويوضع في نهايتيه المدافع " ٤ .

اذن من مميزات الغليون استعمال مكاحل البارود او المدافع فيه سواء استعمله الشرقيون ام اهل الغرب . وهو يسير بالمجاذيف . الا ان ابن اياس يقول ان في الغليون صواري وله عدة مراسي . يقول " احضر السلطان المركب الغليون واصرف عليه نحوا من عشرين الف دينار فارسوا به قبالة المقياس وصنعوا له ثمان مراسي في البحر وعلقوا في صواريه القناديل " ٥

١ــ ملحق دوزي مادة " غليون " ٢ــ بدائع الزهور ج ٤ ص ٢١٦ طبعة استنبول / ٣ــ Naval P I3 ٤ــ نفس المصدر ص ١٣ / ٥ــ بدائع الزهور ج ٤ ص ٢٧٦ طبعة استنبول

هذه هي اهم المراكب الحربية التي كان يستخدمها العرب في اساطيلهم وقد حاولت ان اعرضها بحسب اقدميتها في كتب المؤرخين ، فالمراكب التي جاءت اولا يرد استخدامها على الاكثر في كتب المؤرخين الاقدم عهدا من الذين ذكروا الانواع الاخيرة منها . مما يدلنا على وجود تطور في انواع هذه المراكب الحربية . فلكل عصر من العصور انواع من المراكب خاصة به ولا يمكننا تحديد استخدام كل نوع من هذه المراكب في وقت معين ولكنني ارجح ان جميع الانواع التي ذكرت قبل البطسة كانت تستخدم قبل الزمن الصليبي .

وقد نسج العرب في صنع هذه الانواع الاولى على غرار المراكب البزنطية مع ادخال التغييرات والتبديلات الضرورية لعاداتهم والموافقة لطبائعهم وتجاربهم التي — صادفوها في اعمالهم البحرية .

ولما جاء الصليبيون لمحاربة العرب جاءوا باساطيلهم البحرية التي تختلف في كثير من الصفاة عن مراكب المسلمين ، فاضطر العرب لمقاومتهم بانشاء مراكب تتناسب مع تلك الانواع الجديدة التي اتى بها الفرنج من الغرب فنشأت تلك الانواع التي عددنا اهمها . والتي ذكرناها بعد البطسة .

ولننتقل الان لوصف النوع الاخير من مراكب الاسطول .

×+× ×+× ×+× ×+× ×+× ×+× ×+× ×+× ×+×

الفصـــل الثالث

انواع المراكب البحرية المضافة لقطع الاسطول

مقدمة :

عددت فيما سبق انواع المراكب الحربية للاسطول العربي . ولا ادعي انني استقصيت جميع انواعها ، ولكني نوهت عن اهمها مما عثرت عليه في قراءاتي . وتكملة للموضوع لابد من ذكر انواع اخرى من المراكب . وهي السفن النهرية ، ومراكب النقل التي كانت تضاف الى قطع الاسطول . لاللحرب بل لحمل الازودة والعدد الحربية ولانزال الرجال ونقلهم من مركب لاخر او من البحر الى البر وبالعكس .

هذه الانواع من المراكب لاتدخل مباشرة في عداد قطع الاسطول بل هي وسيلة لدعم الاسطول ومساعدته اذا اقتضت الحاجة . يشركها الخلفاء والسلاطين في الحملات البحرية اذا تضايقت بحريتهم واعوزها اسطولهم .

وفيما يلي وصف لاهم انواع السفن التي من هذا النوع ، وليس استقصاء عام لها لانها من الكثرة والتعدد مما لاحاجة للاطالة بشرحه .

عشاري :

جمعها عشاريات ، ويرد اللفظ المفرد منها احيانا بالتأنيث فيقول المقريزي " ويرسم الفوتية التي برسم الخاص من العشارية " ١ ويذكر زيدان العشاريات بانها " مراكب يسار بها في النيل " ٢ . نعم ان هذه الانواع من المراكب تسير في النيل ولكنها لاتقتصر عليه وحده بل قد تستخدم في اغراض اخرى . وفي اماكن اخرى . ويقول ابن ~~بطوطة~~ جبير ان العشاريات تربط مع المراكب الكبيرة وترافقها في رحلاتها البعيدة وتستعمل في اغراض شتى كاصلاح المركب مثلا اذا اصابه عطل او ضرر ٣ . ويقول ابن بطوطة انها كانت تستعمل في الهند " ونزلت في عشاري مع بعض اصحابي حين الجزر لادخل الى قوقه (مدينة في الهند) فوحل العشاري في الطين " ٤

١ـ الخطط ج ١ ص ٤٧٢ / ٢ـ التمدن ج ١ ص ٢٠٠ / ٣ـ رحلة ابن جبير ص ٢٩٥

٤ـ رحلة ابن بطوطة ج ٢ ص ١٣١ .

وتستعمل العشاريات للنزهة يقول المقريزى " انفق المستنصر على العشاريات التي برسم النزهة البحرية التي عدتها ستة وثلاثون عشاريا بالتقدير بجميع آلاتها وكساها وحلاها من مناطق ورؤوس منجوقات واهلة وصفويات وغير ذلك اربعمائة الف دينار" ١ وتستخدم ايضا العشاريات في نقل غلات السلطان في مصر واحطابه . يقول المقريزى نقلا عن ابن الطوير مايلي " والمراكب الحاملة للغلات السلطانية والاحطاب وغيرها وكانت تزيد على خمسين عشارية " ٢ . وكانت العشاريات تخصص لولاة الدولة الفاطمية المميزين لتبقى عندهم طيلة خدمتهم ومتى تنحوا عن الولاية تسحب منهم — يقول المقريزى " وبقية العشاريات الدواميس برسم ولاة الاعمال المميزة فهي تجر لهم ... وتقيم مع احدهم مدة مقامه فاذا صرف عاد فيه وخرج المتولي الجديد في العشارى المرسى بالصناعة ولا يخرج الا بتوقيع باطلاقه ... وللضيا رفين بالاعمال عشاريات دون هذه " ٣

واهم خاصة للعشارى هو ركوب الخليفة او السلطان فيه يوم فتح الخليج في مصر عند وفاء النيل . وقصة فتح الخليج في مصر والاحتفالات التي تجرى في هذا السبيل ليست متعلقة ببحثي وان الذى له علاقة في هذا الموضوع هوان العشارى كان مركبا للخليفة يوم فتح الخليج . وكان الخلفاء يتخذون انواعا خاصة من العشاريات يزينوها بانواع الستور ويحلونها بالفضة والذهب ويطلقون اسماء خاصة عليها بحسب صفاتها وكان لها كسوات خاصة تكلف الدولة اموالا باهظة كما انه تجرى في يوم فتح الخليج في داخل العشارى من المراسيم والاحتفالات ماسآتي على وصفه .

يقول المقريزى " فلما وفى النيل ستة عشر ذراعا ركب الخليفة والوزير (الخليفة هو الامر باحكام الله ، والوزير هو المأمون) الى الصناعة بمصر ورميت العشاريات بين ايديهما ثم عديا في احداها الى المقياس " ٤ . ثم يصفها فيقول " ولما كمل فتح الخليج انحدرت العشاريات عن آخرها اللطيف منها يقدم الكبير والجميع مزينة — بالذهب والفضة والستور المرقومة ورؤساؤهم وخدامهم بالكسوات الجميلة " ٥ .

---

١ — الخطط ج ١ ص٤٧٦ / ٢ — نفس المصدر ص٤٨٣ / ٣ — نفس المصدر ج ١ ص٤٨٢ / ٤ — نفس المصدر ج ١ ص٤٧١ وج ١ ٤٨٢ / ٥ — نفس المصدر ج ١ ص٤٧٤ .

ويقول ايضا في وصفها " ورميت العشاريات بين يديه وقد جددت وزينت جميعها — بالستور الديبقي الملونة ، والكوامخ والاهلة الذهب والفضة وعدى في احدى العشاريات الى المقياس " ١ الى ان يقول " وعلى بيت كل منهما الستور الديبقي الملونة ✕ وبرؤوسها وفي اعناقها الاهلة وقلائد الخرز " ٢ .

ثم يصف البيت المتخذ للعشاري الخاص وهو بيت مثمن من عاج وابنوس عرض كل جزء ثلاثة اذرع وطوله قامة رجل تام فيجمع بين الاجزاء الثمانية فيصير بيتا دوره اربعة وعشرون ذراعا وعليه قبة من خشب محكم الصناعة وهو بقبته ملبس بصفائح الذهب فيتسلمه رئيس العشاريات الخاص ويركبه على العشاري المختص بالخليفة ويجعل باكر ذلك اليوم الذى يخرج منه للركوب الى المقياس " ٣ .

واسماء العشاريات التي كان الخلفاء والامراء يتخذونها تتجلى من النصوص التالية . يقول المقريزى " وعاد الخليفة على فوره وركب البحر في العشارى الفضي والوزير صحبته والرهجيه تخدم برا وبحرا " ٤ . ثم يقول " ثم تدخل العشاريات الخاص الكبار وهي ستة : الذهبي والفضي والاحمر والاصفر واللازوردى والصقلي . وكان انشأه نجار من رؤساء الصناعة صقلي وزاد فيه على الانشاء المعتاد فنسب اليه " ٥ ومن الواضح ان هذه الاسماء التي تتخذها العشاريات انما هي صفاة بارزة فيها ولذلك تلقب بها .

اما الاحتفال الذى يجرى في عشار الخليفة فيصفه المقريزى بما يلي :

" فيدخل الخليفة البيت المذهب وحده ومعه من الاستاذين المحنكين من يأمره من ثلاثة الى اربعة ثم يطلع في العشارى خواص الخليفة خاصة . ورسم الوزير اثنان او ثلاثة من خواصه وليس في العشارى من هو جالس سوى الخليفة باطنا والوزير ظاهرا في رواق من باب البيت الذى هو بفوانيس من الجانبين قائمة مخروطة من اخف الخشب وهي مدهونة مذهبة وعليها من جانبيها ستور معمولة برسمها على قدرها فاذا اجتمع في العشارى من جرت عادته بالاجتماع اندفع من باب القنطرة طالبا باب المقياس العالي [6]

---

١ — الخطط ج ١ ص ٤٧٣ / ٢ — نفس المصدر ج ١ ص ٤٧٨ / ٣ — نفس المصدر ج ١ — ص ٤٧٦ وصبح الاعشى ج ٣ ص ٥١٧ / ٤ — الخطط ج ١ ص ٤٧٢ / ٥ — نفس المصدر ج ١ ص ٤٧٨ وصبح الاعشى ج ٣ ص ٥٢٠ / ٦ — الخطط ج ١ ص ٤٧٦ .

وكانت هذه العشاريات وكسوتها تكلف الخلفاء كثيرا ، ويمكننا ان نقدر تلك القيم اذا قرأنا مايذكره المقريزى نقلا عن كتاب الذخائر عن قيمها واجورها يقول " ان مما اخرج من القصر في سنة ٤٦١ في خلافة المستنصر قبة العشارى وقاربه وكسوة رحله وهو مما استعمله الوزير احمد بن على الجرجارى في سنة ٤٣٦ وكان ١٦٧٧٠٠ درهم فضة نقرة ١ . وان المطلق لصناع الصاغة عن اجرة ذلك وفي ثمن ذهب لطلائه خاصا ٢٧٠٠ دينار " ٢ . ان هذا المبلغ باهظ جدا يدلنا على شدة اعتناء الخلفاء الفاطميين في امر العشاريات وكسوتها وتزيينها .

ويخبرنا المقريزى ايضا عن قيمة العشارى الذى كان لوالدة المستنصر وثمن رواقه وستوره فيقول " وعمل ابو سهل التسترى لوالدة المستنصر عشاريا يعرف بالفضي وحلى رواقه بفضة تقديرها مائة الف وثلاثون الف درهم ولزم ذلك اجرة الصناع ولطلاء بعضه الفان واربعمائة دينار واستعمل كسوة برسمه بمال جليل " ٣ . وقد مر معنا ان المستنصر انفق على العشاريات التي برسم النزهة البحرية وعلى كسوتها وحليها اربعمائة الف دينار ٤ .

وكان ينفق على هذه العشاريات وعلى رؤسائها ورجالها ونوتيتها من ديوان العمائر وكانت تضاف احيانا الى الاسطول عند الضرورة يدلنا على ذلك مايقوله المقريزى نقلا عن ابن الطوير يقول " والمراكب الحاملة للغلات السلطانية والاحطاب وغيرها وكانت تزيد على خمسين عشاريا ويليها عشرون ديماسا ولكل منها رئيس ونواتي لايبرحون ينفق فيهم من مال ديوان الجهاد ويقال له ايضا ديوان العمائر " ٥ . ويقول ايضا " وبقية العشاريات الدواميس برسم ولاة الاعمال المميزة فهي تجر لهم وينفق في رؤسائها ورجالها اينما كانوا من مال ديوان العمائر " ٦ .

اما دليلنا على ان العشاريات كانت تضاف الى الاسطول فهو مأخوذ عن المقريزى

١ــ كانت الفضة في ذلك الوقت كل مائة درهم بستة دنانير وربع سعر ستة عشر درهما بدينار . ــ عن المقريزى الخطط ج ١ ص ٤٧٩ــ / ٢ــ الخطط ج ١ ص ٤٧٥ / ٣ــ نفس المصدر ج ١ ص ٤٧٥ / ٤ــ نفس المصدر ج ١ ص ٤٧٦ / ٥ــ نفس المصدر ج ١ ص ٤٨٣ / ٦ــ نفس المصدر ج ١ ص ٤٨٢ .

ايضا يقول " اتخذ ابن طولون مائة مركب حربي سوى ماينضاف اليها من العلابيات والحمائم والعشاريات والسنابك وقوارب الخدمة " ١ فجميع هذه الانواع التي عددها المقريزي هي اسماء لانواع من المراكب كانت تضاف الى المراكب الحربية عند الضرورة الشديدة . وقد يضاف الى العشاري نعت او اسم ليدل على نوعه فيقال " العشاريات الموكبيات " ٢ و " العشاريات الموكبية " ٣ و " العشاريات الدواميس " ٤ و " العشاريات اللطاف " ٥ و " العشاري الفضي " ٦ و " الحشاري الذهبي " ٧ وغير ذلك من التسميات التي تطلق غالبا لتصف نوع العشاري المقصود .

واني آسف جدا انه ليس لدي من النصوص مايوضح كيفية اجراء العشاري ولكني ارجح انه يسير بواسطة المجاذيف اذ ان الخدمة التي يؤديها والتي يستعمل فيها تتطلب ان يكون جريه بالمجاذيف لابالاشرعة لانه في الحالة الاخيرة يكون جريه متروكا لمشيئة الرياح وهذا لايناسب طرق الاستعمال التي يستخدم فيها العشاري . ولا اجزم في الامر حتى اجد نصوصا توضح هذه الناحية وتدعم هذا الرأى .

قرقورة :

يقول البستاني القرقور السفينة الطويلة او العظيمة جمعها قراقير ٨ . اما دوزي فيقول " قرقورة جمعها قراقر وهي نوع من المراكب التجارية التي اصبحت ذات حجم عظيم " ٩ . فقول دوزي ان قرقورة تجمع على قراقر امر لااوافقه عليه لان اغلب النصوص التي بيدي تجمعها على قراقير . ولعل الجمعين جائزان الا ان الاخير اكثر شيوعا . وهذه الكلمة قديمة جدا استعملها العرب وغيرهم من الامم منذ اقدم الازمان يقول لامنس " ان هذه الكلمة قرقور كانت مستعملة عند عرب الصحراء وقد ذكرها النابغة في اشعاره : ويرد ذكرها في اشعار الراجز وغيره " ١٠ .

١ـ الخطط ج ٢ ص ١٨٠ / ٢ـ نفس المصدر ج ٢ ص ١٨١ / ٣ـ نفس المصدر ج ١ ص ٤٧٥
٤ـ نفس المصدر ج ١ ص ٤٨٢ / ٥ـ نفس المصدر ج ١ ص ٤٧٥ / ٦ـ نفس المصدر ج ١ ص ٤٧٢
٧ـ نفس المصدر ج ١ ص ٤٧٨ / ٨ـ المحيط مادة " قرق " / ٩ـ ملحق دوزي مادة " قرقر " /
١٠ـ ملاحظات لامنس ص ٧٧ .

ويشير لامنس الى انه اخذ عن الاغاني فرجعت الى المصدر فوجدت النص كما يلي :
" كان سبب غزو كسرى اياد ... هو انهم اصابوا امرأة من اشراف العجم ... فسار اليهم من كان يليهم من الاعاجم فانحازت اياد الى العراق وجعلوا يعبرون ابلهم في القراقير ويقطعون بها الفرات وجعل راجزهم يقول :

بئس مناخ الحلقات الدرهم   في ساحة القرقور وسط اليم " ١

هذا النص يدلنا على ان القراقير كانت تستعمل عند قبيلة اياد منذ ايام الفرس وكذلك كانت معروفة لدى الرومان واليونان منذ اقدم الازمان " وقد شبهها هرودوت منذ العصر القديم وكذلك ليفيوس Livius بمراكب البحر الابيض المتوسط وذلك لكبرها " ٢ وقد ورد اسمها بلغات عديدة يذكر لامنس " ان كلمة Carakue الافرنسية والكلمات Carraca, Coracoa, Caracoa الاسبانية والكلمتان Caracora , Corocora البرتغاليتان والكلمة Caracca الطليانية آتية من قرقورة او من جمعها قراقير " ٣ ثم يشير مشكلة اصل هذه الكلمة ويقول انها مشكلة مضطربة فهل اصلها عربي ام اصلها لاتيني ؟ وهل هي مشتقة من كلمة قرقورة العربية ام من الكلمة اللاتينية Cercurus او

يجيب لامنس على ذلك بحاشية كتابه بما يلي " اظن ان علماء الاشتقاق محقون عندما اكدوا بان الكلمة الاسبانية ، Coracora, Coracara والافرنسية Coracore بمعنى مراكب جزر الفيليبين وهي آتية رأسا من كركور Korakôra ال Malais وهي مراكب كثيرة الاستعمال عند سكان الارخبيل الهندي " ٤

اذن فكلمة قرقورة ليست ذات اصل لاتيني ولا عربي بل ترجع الى اصل هندي قديم . ويقول دوزى ان القرقورة " نوع من المراكب اخترعها القبرصيون " ٥ وهو لا يبين متى اخترعوها . هل كان ذلك في الزمن القديم ؟ وهل هم اول من استعملها ؟

١ـ الاغاني ج ٢٠ ص ٢٣ ـ ٢٤ مطبعة التقدم بمصر / ٢ ـ الحضارة الاسلامية ج ٢ ص ٣٣٤
٣ـ ملاحظات لامنس ص ٧٧ / ٤ـ ملاحظات لامنس ص ٧٧ / ٥ـ ملحق دوزى مادة " قرقر "

اني لاأجد جوابا على ذلك .

والقرقورة تستعمل في اغراض شتى يذكرها المقريزي : أن الناس تركب في القراقير يوم فتح الخليج لمشاهدة الاحتفال الذي يجري في النيل بقول " ويكون في البحر في ذلك اليوم الف قرقورة مشحونة بالعالم فرحا بوفاء النيل " ١ وتستعمل للركوب في الاسفار البحرية يقول ابن بطوطة " ومن اللاذقية ركبنا البحر في قرقورة كبيرة للجنويين " ٢ ويقول ايضا " فركبت البحر من مصر في قرقورة لبعض التونسيين صغيرة" ٣ وتمييز ابن بطوطة بين قرقورة الجنويين والتونسيين بان الاولى كبيرة والثانية صغيرة يدلنا على اختلاف محسوس بين حجميهما لذلك لفت نظره تلك الظاهرة البارزة بين الاثنتين . وتستعمل القرقورة في نقل البضائع والاثقال يقول ميز مايلي ٤ " وكان الرمان يحمل على الفرات في مراكب كبيرة تسمى القراقير ويبلغ عرض الواحدة منها من ستة عشر ذراعا الى عشرين " * فهذا القول يبين لنا نموذجا من حجم القرقورة التي كانت تستخدم في الفرات وهو حجم كبير ولا شك وكانت تستخدم عند الضرورة في الاسطول . يذكر البرقوقي ان القراقير هي السفن الكبيرة التي تحمل الزاد والكراع " ٦ ويجعلها احدى قطع الاسطول المحاربة . كما ان صالح بن يحي يذكر ان الجنويين سلحوا قرقورتين كانتا في ميناء بيروت وشحنوهما بالرجال والجروخ والحجارة وحاربوا — المسلمين بهما . يقول " وحضرت تعميرة الجنويين وهي اثنى عشر غرابا كبيرا ودخلوا الميناء . وكان فيها قرقورتان للبنادقة فاخذوهما وشحنوهما بالرجال وقدموهما حتى تسلطت الرماة بالجروخ ٧ والحجارة من صواريها على البرج الصغير البعلبكي " ٨

١ــ الخطط ج ١ ص ٤٧٦ / ٢ــ رحلة ابن بطوطة ج ١ ص ٢١٢ / ٣ــ نفس المصدر ج ٢ ص ٢١٦ / ٤ــ الحضارة الاسلامية ج ٢ ص ٣٣٤ نقلا عن كتاب الوزراء للصابي ** ٦ــ حضارة العرب ص ١٦١ / ٧ــ الجروخ جمع جرخ وهي لفظة فارسية معناها الدولاب يراد بها الة لرمي العدو بالحجارة والاسهم النارية والنفط . ٨ــ تاريخ بيروت ص ٣٦ .

هذا النص يبين لنا ان القرقورة كانت تستعمل احيانا لتساعد المراكب الحربية كما انه يدلنا على ان القراقيركانت تسير بالاشرعة لان وجود الصواري فيها دليل على ذلك .

وقد تطوراستعمال القراقير في الزمن المتاخر من عصر المماليك واصبحت احدى قطع الاسطول وتعد في جملة المراكب الحربية يقول ابن تغريبردى في حوادث سنة ٨٦٥ " وكانت عدة مراكبهم ثمانية واربعين مركبا مابين قرقورة وغراب وشيني وزورق [1] ويقول ايضا في حوادث سنة ٨٢٩ " ثم طلب السلطان مقدمي عساكرالغزاة من امراء مصر والشام والحاصكية المقدم كل واحد منهم على مركب وكانوا كثيرا جدا لان عدة مراكب الغزاة المصريين والشاميين زادت على مائة قطعة وقيل مائتان وقيل اكثراو اقل مابين اغربة وقراقير وزوارق " ٢ ويقول في حوادث سنة ٨٢٨ " فوافاهم الفرنج في عشرة اغربة وقرقورة كبيرة فلم يثبتوا للمسلمين " ٣ واخيرا يقول " في سنة ٧٦٩ قصدت الفرنج مدينة طرابلس الشام في مائة وثلاثين مركبا من الشواني والقراقير والغربان والطرائد وصحبتهم صاحب قبرس وهو المقدم عليهم " ٤ ويقول صالح بن يحي " واجتمعت المراكب كلها في طرابلس وهي ست حمالات وعشرة اغربة كبار وصغار وست مراكب قراقير ... ومركبان مخروطان كبيران واثنى عشر زورقا وست يفوف صغار فكانت اربعين قلاعا " ٥ . هذه الاقوال جميعها تدلنا على ان القرقورة استعملت في عصر المماليك في عداد الاسطول واصبحت سفينة محاربة .

ويصف لنا Barnaby نوعا من المراكب التي يدعيها Caracks وصفا قريبا من وصف القرقورة التي مر معنا ذكرها ولعل التسمية ماخوذة هنا من الكلمة العربية او من احدى اللغات التي تطلق هذا الاسم على هذا النوع من المراكب . ويقول بوصفه لها مايلي ٦ " وفي القرن الخامس عشر احتلت السفن المسماة Caracks المحل الارفع في الملاحة وبنيت سفينة من هذا النوع سنة ١٤١٩ كان طولها ١١٢ قدما

١ـ حوادث ج ٢ ص ٣٤٦ / ٢ـ النجوم ج ٦ ص ٦١٥ / ٣ـ نفس المصدر ج ٦ ص ٥٩١
٤ـ نفس المصدر ج ٥ ص ٢١٣ / ٥ـ تاريخ بيروت ص ٢٠٢ / ٦ـ Naval P. I4

وعرضها ٤٦ قدما ويظهر ان القلاع والاقسام المرتفعة في السفن السابقة القديمة قد الغيت او بالاحرى قد اندمجت مع بقية اجزاء السفينة وعوض عنها بالواح فاصلة وغرف للنوم . وفي هذا الزمن ادخل في هندسة السفن الغرف المتنوعة للاغراض العادية كمخازن الاطعمة والعنابر وما اشبه ذلك . وكان المطبخ في القسم الاوسط من هذه المراكب . اما البضائع فكانت امكنتها في الاطراف . وكثيرا ماتصحب هذه السفن زوارق لحمل المؤونة " . واذا قارنا هذا النص الذي يورده Barnaby عن Caracks وبين ماذكره عن ال Galley وال Galleons نجد تطورا محسوسا في بناء هذه الانواع من المراكب . وهذا التطور يجعل ال Caracks اقرب ان يكون مركبا تجاريا منه مركبا حربيا . اذ انه قد ابطلت الابراج والقلاع التي كانت في Galley ولم يبق ذكر للمدافع التي كانت في Galleons واستعيض عنها بغرف للنوم وامكنة للبضائع وعنابر للامتعة ومطبخ للطهي .

كل هذه الظواهر جعلتني اعتبر ان ال Carack اقرب ان يكون مركبا تجاريا سفريا منه مركب حربي ، يستخدم عند الضرورة في عداد المراكب الحربية .

كذلك الامر في القرقورة فقد مر معنا انها كانت في قديم الزمن مركب للنقل في نهر الفرات ثم اصبحت فيما بعد مركب للنقل في النيل وللسفر في البحار . واخيرا استعملت في جملة مراكب الاسطول .

فهل من خطأ ان نعتبر القرقورة شبيهة بال Caracks ؟ وهل من فرق جوهري بين الاثنتين ؟ ان لااجد فرقا واسعا بينهما وارجح انهما متقاربتين في الاسم والخدمة .

زورق :

تجمع على زوارق وزواريق ١ وتستخدم في اغراض شتى منها للركوب في الانهار للنزهة يقول المسعودي " ولقد حضرت سنة ٣٣٠ ليلة الغطاس بمصر ... وقد حضر النيل في تلك الليلة ملو الاف من الناس المسلمين والنصارى منهم في الزوارق

١ـ صورة الارض ج ١ ص ٢٣٥ .

ومنهم في الدور الدانية من النيل ومنهم ... " ١ ويقول ايضا " فصرتم الى هذا الزورق فرأيته قد فرش بهذا الفرش ومهد ورأيت سفرا مملوءة وجريا وسلا . فقلت : نزهة يمضون البها الى بعض القصور والبساتين ... " ٢

وتستخدم الزوارق ايضا لقطع الانهار والعبور من ضفة لاخرى والتنقل من قرية لاخرى عند فيضان النيل يقول ابن الجبير " يعبر الناس في دجلة مابين جانبي بغداد بالزوارق . والزوارق فيها لاتحصى كثرة فالناس ليلا ونهارا من تمادى العبور فيها في نزهة متصلة رجالا ونساء والعبور في الزوارق لاينقطع " ٣ . ويذكر سرهنك كتاب ارسله عمرو بن العاص للخليفة عمر بن الخطاب في وصف مصر ونيلها مايلي :
" ... فلا يمكن التخلص من القرى بعضها الى بعض الا في صغار المراكب وخفاف القوارب وزوارق كأنهن المخائل او ورق الاصائل ... " ٤ .

وقد استعملت الزوارق في الاسطول لحمل الميرة والرجال واصبحت تعد في جملة قطع الاسطول يقول ابن شداد " وكان العدو قد ظفرنا بزورق فيه نفقة ورجال" ٥ ويقول ابن تغريبردى في حوادث سنة ٨٢٩ مايلي " عدة مراكب الغزاة المصريين — والشاميين زادت على مائة قطعة وقيل مائتان وقيل اكثر او اقل مابين اغربة وقراقير وزوارق " ٦ وقال ايضا في حوادث سنة ٨٦٥ " وكانت عدة مراكبهم ثمانية واربعين مركبا مابين قرقورة وغراب وشيني وزورق " ٧ ويذكر صالح بن يحي عندما يصف الاسطول الذى ذهب لغزو قبرص مايلي " واجتمعت المراكب كلها في طرابلس وهي ست حمالات وعشرة اغربه كبار و ... اثنى عشر زورقا " ٨

ويستخدم الغواصون الزوراق في موسم جمع اللؤلؤ يقول المقريزى " وفي بحر عيذاب مغاص اللؤلؤ في جزائر قريبة منها ، تخرج اليه الغواصون في وقت معين من كل سنة في الزوارق حتى يوافوه بتلك الجزائر " ٩ .

---

١ — مروج ج ١ ص ٢٩١ / ٢ — نفس المصدر ج ٣ ص ٣٣٣ / ٣ — رحلة ابن جبير ص ٢٠٣
٤ — هامش حقائق الاخبار ج ١ ص ١٨٢ / ٥ — سيرة صلاح الدين ص ١٠٤ / ٦ — النجوم ج ٦ ص ٦١٥ / ٧ — حوادث ج ٢ ص ٣٤٦ / ٨ — تاريخ بيروت ٢٢٢ / ٩ — الخطط ج ١ ص ٢٠٣ و رحلة ابن جبير ص ٤٠ .

اما كيفية اجراء الزورق ومقدار حمولته وشكله فالنصوص التي ساوردها تنطبق على الزوارق عامة لاعلى الزوارق التي تستعمل في الاسطول فقط . واني اعتقد انه لايوجد نوع خاص للزوارق الحربية وانما هي نفس الزوارق التي تستخدم في الاغراض المختلفة وانما تضم للاسطول عند الاضطرار اليها . وانما الزيادة في الزوارق الحربية هي بما يضم اليها من السلاح والرجال المحاربين ولذلك فالوصف التالي يشمل جميع الزوارق بمختلف طرق استخدامها .

ان الزواريق ليست متساوية الحجم فبعضها صغير والاخرى كبير . فالمسعودى يذكر لنا زورقا كان يجرى في دجلة يستوعب ثمانين شخصا عدا مايحتاج اليه هؤلاء الاشخاص من الحاجيات . وقد كانت هذه الزوارق اداة مواصلات في الدجلة مابين الشمال والجنوب يستخدمها السكان للركوب والتنقل مابين المدن والقرى . اما عبارة المسعودى فهي مايلي " وكانت وفاة ابي العيناء الشاعر سنة ٢٨٢ وكان قد انحدر من مدينة السلام الى البصرة في زورق فيه ثمانون نفسا في هذه السنة فغرق الزورق ... " ١ . ويذكر ميز مايلي " وكانت حركة الملاحة كبيرة على نهر الدجلة ايضا ، فكانت تنحدر بضائع ارمينيا الى بغداد مارة بالموصل ... بل كان الحجاج ايضا يأتون من الشمال على الانهار . ففي عام ٣٦٨ هـ ٩٥٩ م غرق منهم الف نسمة وكانوا آتين من الموصل في بضعة عشر زورقا كبارا " ٢

والزورق يسير بالمجاذيف وعددها يختلف بحسب حجمه . يقول ابن جبير " فاكترينا للحين زورقا كبيرا له اربعة مجاديف " ٣ .

وفي بحر هركند احدى فروع المحيط الهندى جزائر يستخدم سكانها زواريق منقورة من خشبة يستعملونها لحمل بضائعهم والتجارة مع سكان المراكب التجارية التي تمر بهم " ان رجالهم يخرجون اليهم من الجزيرة في زواريق منقورة من خشبة واحدة ومعهم النارجيل وقصب السكر والموز وشراب النارجيل ... " ٤ ولا شك ان هذه الزواريق المنقورة من خشبة واحدة هي ابتدائية جدا تدلنا على تاخر سكان تلك الجزر

١ـ مروج ج ٤ ص ١٧٠ / ٢ـ الحضارة الاسلامية ج ٢ ص ٣٣٥ نقلا عن المقدسي ص ١٣٨ وعن مسكويه ج ٦ ص ٢٣٤ / ٣ـ رحلة ابن جبير ص ٢٩٤ / ٤ـ سلسلة التواريخ ص ١٧ ـ ١٨ .

واولينتهم في الحضارة . فبينما كانت المراكب العربية تسير في ذاك الزمن مابين سيراف وكانتون حاملة متاجر جزيرة العرب والخليج الفارسي الى بلاد الصين ،كان اهل هذه الجزر لايزالون يستعملون هذا النوع من الزوارق . ويتاجرون او يخزون المراكب العربية وغيرها من مراكب التجار . ١

القـارب :

يقول الزبيدى " القارب السفينة الصغيرة تكون مع اصحاب السفن الكبار البحرية كالجنائب لها تستخف لحوائجهم . والجمع القوارب " ٢ ويرجع دوزى اصلها الى اليونانية VaPaBOS ٣ وليس هناك بون شاسع بين وصف الزورق والقارب في المصادر العربية فالنوعان متقاربان في الوصف والخدمة . وان اختلف فانهما يختلفان في الحجم لاغير .

وقد يستعمل القارب لعمل جسور على الانهار يقول ابن بطوطه كان في مدينة تستر على الخليج الفارسي " نهر معروف بالازرق وهو عجيب في نهاية الصفاء ... ولها باب واحد للمسافرين ... وعلى باب المسافرين منه جسر على القوارب كجسر بغداد والحلة " ٤ وتستعمل القوارب في الصين " لنقل المرافق من الطعام واحجار الوقود " ٥ وتستعمل القوارب في هرمزوفي البحرين في عملية استخراج اللآلي ٦ . كما انها تستخدم " في تسيير المراكب با لمجاذيف اذا احتاج الامر" ٧ يقول بزرك " فطرحوا قارب المركب من جوفه وجعل فيه الربان المجاذيف وقدمه بين يدى المركب يجرونه يوما وليلة " ٨ .

والقوارب تضاف الى قطع الاسطول عند الضرورة وتستخدم في مساعدته ونصرته يقول المقريزى " واتخذ ابن طولون مائة مركب حربية سوى ماينضاف اليها من العلابيات

١ـ ان اخبار حسن السيرافي في سلسلة التواريخ واخبار ابن بطوطه في رحلته وقصة ماركوبولو تدل على صحة مااقول / ٢ـ تاج العروس مادة " قرب " / ٣ـ ملحق دوزى مادة قرب / ٤ـ رحلة ابن بطوطه ج ١ ص ١٤١ / ٥ـ نفس المصدر ج ٢ ص ٢٠٢ / ٦ـ نفس المصدر ج ٢ ص ٢٣٢ / ٧ـ الحضارة الاسلامية ج ٢ ص ٣٦٥ عن كتاب عجائب الهند ص ٣٠ ٨ـ عجائب الهند ص ٢٥

والحمائم والعشاريات والسنابك وقوارب الخدمة " ١ واكثر ماتستخدم في الاسطول لانزال الجند من المراكب الحربية الى البر يقول صالح بن يحي " وكان قد نزل من مراكبنا جماعة الى البر سباحة عرايا ... فلما رأى المسلمون ذلك نزلوا من اعيان شجعانهم قريب من الف رجل ونزلوا في القوارب والشخاتير " ٢ .

وكما مر معنا عند ذكر الزوارق من انها منقورة من خشبة واحدة في جزائر المحيط الهندى كذلك الامر في القوارب فهي منحوتة من خشبة واحدة في تلك الجهات يقول ابن بطوطة عن سكان جاوة " اتوا الينا في قوارب صغار كل قارب من خشبة واحدة منحوتة وجاءوا بالموز والارز والتنبول والفوفل والسمك " ٣ مما تقدم نستدل على ان هناك شبها عظيما مابين الزورق والقارب وكلاهما يقوم تقريبا بخدمات متعادلة .

جلبة :—

يقول دوزى " ان جلبة تجمع على جلب ، وجلاب ، وجلبات وهي قوارب كبيرة معمولة من الواح متصلة مع بعضها بحبال من ليف النارجيل وتستعمل عادة في البحر الاحمر " ٤ . ويقول لامنس " ان الكلمة الافرنسية Chaloupe والاسبانية Calupa والطليانية Scialuppa يعتبرها بعض العلماء آتية من Sloep ولكن لامنس يوافق M.de Eguilaz في ان هذه الكلمات مشتقة من جلب العربية . وهي بنظره قوارب كبيرة معمولة من الواح متصلة مع بعضها بحبال النارجيل " ٥ .

وقد كان حجاج المغرب ومصر في القديم يركبون الجلاب من ساحل عيذاب الى جدة ويقطعون بها بحر القلزم (الاحمر) يقول ابن جبير " ولاهل عيذاب من المرافق من الحاج اكراء الجلاب منهم وهي المراكب فيجتمع لهم في ذلك مال كثير في حمله الى جدة وردهم وقت انفصالهم عن اداء الفريضة وما من اهلها ذوى اليسار الا من له الجلب والجلبات فهي تعود عليهم برزق واسع " ٦ . ويقول المقريزى —

١— الخطط ج ٢ ص ١٨٠ / ٢— تاريخ بيروت ص ٢٢٣ و ص ٢١٨ / ٣— رحلة ابن بطوطه ج ٢ ص ١٨٤ / ٤— ملحق دوزى مادة "جلب" / ٥— ملاحظات لامنس ص ٨٤ / ٦— رحلة ابن جبير ص ٣٩ و الخطط ج ١ ص ٢٠٣ .

والحمائم والعشاريات والسنابك وقوارب الخدمة " ١ واكثر ماتستخدم في الاسطول لانزال الجند من المراكب الحربية الى البر يقول صالح بن يحي " وكان قد نزل من مراكبنا جماعة الى البر بساحة عرايا ... فلما رأى المسلمون ذلك نزلوا من اعيان شجعانهم قريب من الف رجل ونزلوا في القوارب والشخاتير " ٢ .

وكما مر معنا عند ذكر الزوارق من انها منقورة من خشبة واحدة في جزائر المحيط الهندى كذلك الامر في القوارب فهي منحوتة من خشبة واحدة في تلك الجهات يقول ابن بطوطة عن سكان جاوة " اتوا الينا في قوارب صغار كل قارب من خشبة واحدة منحوتة وجاءوا بالموز والارز والتنبول والفوفل والسمك " ٣ مما تقدم نستدل على ان هناك شبها عظيما مابين الزورق والقارب وكلاهما يقوم تقريبا بخدمات متعادلة .

جلبة :ـ

يقول دوزى " ان جلبة تجمع على جلب ، وجلاب ، وجلبات وهي قوارب كبيرة معمولة من الواح متصلة مع بعضها بحبال من ليف النارجيل وتستعمل عادة في البحر الاحمر " ٤ . ويقول لامنس " ان الكلمة الافرنسية Chaloupe والاسبانية Calupa والطليانية Scialuppa يعتبرها بعض العلماء آتية من Sloep ولكن لامنس يوافق M.de Eguilaz في ان هذه الكلمات مشتقة من جلب العربية . وهي بنظره قوارب كبيرة معمولة من الواح متصلة ببعضها بحبال النارجيل " ٥ .

وقد كان حجاج المغرب ومصر في القديم يركبون الجلاب من ساحل عباب الى جدة ويقطعون بها بحر القلزم (الاحمر) يقول ابن جبير " ولاهل عيذاب من المرافق من الحاج اكراء الجلاب منهم وهي المراكب فيجتمع لهم في ذلك مال كثير في حمله الى جدة وردهم وقت انفصاضهم عن اداء الفريضة وما من اهلها ذوى اليسار الا من له الجلب والجلبات فهي تعود عليهم برزق واسع " ٦ . ويقول المقريزي ـ

١ـ الخطط ج ٢ ص ١٨٠ / ٢ـ تاريخ بيروت ص ١٢٣ و ص ٣١٨ / ٣ـ رحلة ابن بطوطه ج ٢ ص ١٨٤ / ٤ـ ملحق دوزى مادة "جلب" / ٥ـ ملاحظات لامنس ص ٨٤ / ٦ـ رحلة ابن جبير ص ٣٩ و الخطط ج ١ ص ٢٠٣ .

" اعلم ان حجاج مصر والمغرب اقاموا زيادة على مئتي سنة لايتوجهون الى مكة — شرفها الله تعالى — الا من صحراء عيذاب يركبون النيل من ساحل مدينة مصر الفسطاط الى قوص ثم يركبون الابل من قوص ويعبرون هذه الصحراء الى عيذاب ثم يركبون البحر في الجلاب الى جدة ساحل مكة " ١ . وقد ذكر الرحالون — الذين مروا بعيذاب شدة طباع اهل هذه المدينة وقسوة قلوبهم في معاملة الحجاج ووصفوهم باقبح الصفات وسموهم باشنع الاسماء وزاد سخطهم ايضا على مدينة عيذاب بما هي عليه من جفاف الاقليم وحره وقلة مياهه ، وقد صور لنا ابن جبير الرحالة الاندلسي الذي اتى من المغرب قاصدا الحج ركوب الحجاج بالجلاب وما يقاسوه من شدة وعذاب بقوله " ولاهل عيذاب في الحجاج احكام الطواغيت وذلك انهم يشحنون بهم الجلاب ، وهي المراكب حتى يجلس بعضهم على بعض وتعود بهم كانها اقفاص الدجاج المملوءة . يحمل اهلها على ذلك الحرص والرغبة في الكراء حتى يستوفي صاحب الجلبة منهم ثمنها في طريق واحدة ، ولا يبالي بما يصنع البحر بهم بعد ذلك ويقولون علينا بالالواح وعلى الحجاج بالارواح . هذا مثل متعارف بينهم " ٢ . هذا النص الذي ذكره ابن جبير والمقريزي يصفان به الجلبة وهي ملآنة بالناس وهم متراحمين متراصين بعضهم فوق بعض كأنهم في قفص دجاج يمثل لنا بصورة حسية حالة الجلبة وهي تزخر بتلك الكتلة البشرية من الناس ، وهم يتأرجحون على اعوادها في ذلك البحر الزاخر المعروف بموجه الشديد وشعابه الخطرة المهلكة

كما ان ذلك القول المتعارف بينهم " علينا بالالواح وعلى الحجاج بالارواح " يدلنا على نفسية اولئك القوم الذين يسكنون عيذاب ويمتهنون الملاحة في تلك الجهات من انهم قوم قساة القلوب ، غلاظ الطباع ، لايبالون بارواح الحجاج ولا براحة المسافرين وكل داهم كسب المال واستغلال موارد الحجاج دون النظر الى راحتهم وحياتهم . حتى ان ابن جبير يقول " ان اكثر هلاك الحجاج بهذا المرسى " ٣ — وينصح الحجاج الا يأتوا عن طريق عيذاب بل ان يذهبوا عن طريق الشام — العراق

---

١ — الخطط ج ١ ص ٢٠٢ / ٢ — رحلة ابن جبير ص ٤١ والخطط ج ١ ص ٢٠٣ / ٣ — رحلة ابن جبير ص ٤١ .

وان لم يتيسر لهم ذلك بالذهاب فعلى الاقل في العودة عند الاياب وان طال عليهم الطريق ١ ٠

ولم تكن الجلاب تحمل الحجاج بانفسهم فقط بل كانت تحمل جمالهم وامتعتهم وازوادهم ايضا يقول ابن بطوطه " ثم ركبنا البحر من جدة في مركب يسمونه الجلبة وكان لرشيد الدين الالفي اليمني الحبشي الاصل ، وركب الشريف منصور بن ابي نمي في جلبة اخرى ورغب مني ان اكون معه فلم افعل لكونه كان معه في جلبته الجمال فخفت من ذلك ولم اكن ركبت البحر قبلها وكان هنالك جملة من اهل اليمن قد جعلوا ازوادهم وامتعتهم في الجلب وهم متأهبون للسفر " ٢ ٠

فالجلبة اذن مركب لنقل الحجاج وامتعتهم وازوادهم وكراعهم يستخدم في بحر قلزم ٠ وقد تستعمل الجلبة في هذا البحر ايضا للقتال يقول ابن جبير " وصل في سنة ٥٧٩ الى مكة الامير عثمان ابن علي صاحب عدن خرج منها فارا امام سيف — الاسلام المتوجه الى اليمن وركب البحر في جلاب كثيرة مشحونة باحوال عظيمة واموال لاتحصى كثرة ٠٠٠ وعند خروجه من البحر بموضع يعرف بالنصر لحقت جلبه حراريق الامير سيف الاسلام فاخذت جميع مافيها من الاثقال " ٣ ٠

اذن الجلبة في بحر القلزم لاتستعمل لنقل الحجاج فقط بل تستخدم للركوب ونقل الاحمال على العموم ، كما انها تستعمل احيانا للغارة والقرصنة والاعمال الحربية عند الضرورة ٠

بعد ان عرفنا طرق استخدام الجلبة نتساءل كيف كان شكلها وباى شيء كانت تسير وكيف كانت تصنع ؟

لايمكننا فهم الجلبة وشكلها الا اذا عرفنا كيفية صنعها ، ولا اريد الاطالة في هذا الامر لاني سآتي اليه عند الكلام في صناعة المراكب ٠ وساكتفي الان فقط بذكر ماقاله ابن جبير عن كيفية صنع الجلبة ٠ قال " والجلاب التي يصرفونها في هذا البحر الفرعوني (القلزم) ملفقة الانشاء لايستعمل فيها مسمار البتة انما هي مخيطة بامراس من القنبارى وهو قشر جوز النارجيل يدرسون ، الى ان يتخيط ،

---

١ — رحلة ابن جبير ص ٤٢ / ٢ — رحلة ابن بطوطه ج ١ ص ١٨٢ / ٣ — رحلة ابن جبير ص ١٤٧

على جبل في البحر ونزلت الامواج عنها فانقلبت . نعهدى بالامتعة والناس يتساقطون الى البحر من فوق الجبل وغرقت فما سلم منها احد " ١ هكذا كانت الجلبة في القديم . واظنها لاتزال مستعملة كما هي عليه في الوقت الحاضر محفوفة بالاخطار والمهالك ومكتوب بطول العمر والسلامة بمن يركبها ولا يغرق .

سنبوق :

سنبوق او صنبوق بالصاد كما ترد في رحلة ابن بطوطه تجمع على صنابق وتلفظ في ايامنا هذه بالسين المفتوحة كما يذكر Burckhardt ٢ ويقول ابن بطوطه ان الصنبوق هو قارب صغير ٣ اما دوزى فيقول عنه انه قارب كبير مكشوف تماما رفيع المقدمة وعريض المؤخرة وله شراع كبير ٤ ووصف دوزى هذا ينطبق على السنبوق في الايام الحاضرة لانه اخذ عن رحالين رحلا في الايام المتأخرة . ولعل هذا الوصف المتأخر لاينطبق تماما على ماكان عليه السنبوق في الازمنة القديمة . لاسيما واننا وجدنا في بحثنا السابق ان المراكب في تطور دائم في اسمها وحجمها وطرق استخدامها . وترد هذه الكلمة عند المقريزى هكذا " سنبوك " ويجمعها على سنابك ٥ ويذكر لامنس ان " Chebec مركب ذو ثلاثة صوارى في البحر الابيض المتوسط وهي باللغة الافرنسية القديمة Chabek وبالاسبانية Sabeque, Saveque Xabeque, Enxabeque وبالبرتغالية Xabeca وبالقطلانية Xavega, Xabech وبالطليانية Sciabecco ويقول ان هذه الكلمات ليست مشتقة من " سنبكي " بل يرجح انها مشتقة من " شبوق " وهو نوع من المراكب التي يذكرها المقدسي " ٦ .

وقد تستخدم الصنابق لنصرة الاسطول كما يقول المقريزى " واتخذ ابن طولون مائة مركب حربية سوى مايضاف اليها من العلابيات والحمائم والعشاريات والسنابك وقوارب الخدمة " ٧ .

١ـ عجائب الهند ص٧٠ / ٢ـ Arab. I, 43, II, 431. = Burton I, 174

٣ـ رحلة ابن بطوطه ج١ ص١٢٩ / ٤ـ ملحق دوزى مادة " سنبوق " /

٥ـ الخطط ج٢ ص١٨٠ / ٦ ـ ملاحظات لامنس ص٨٦ نقلا عن احسن التقاسيم ص٣٢ / ٧ ـ الخطط ج٢ ص١٨٠ .

هذه هي اهمية المراكب النهرية والعجارية التي تضاف لقطع الأسطول عند الحاجة • ولا يمكنني ان اتي علي وصف جميع انواعها لأنها من الكثرة والعدد ما لا يمكن شرحه • ولعل ذلك راجع لأختلاف اسماء هذه المراكب بحسب الأقاليم ففي كل منطقة اسماء لأنواع جديدة من المراكب وفي كل بلد اصطلاحات خاصة لأسماء هذه الأنواع يدلنا علي ذلك عبارة المقدسي التالية التي يعدد بها انواع المراكب التي يختلف بتسميتها اهل الأقاليم وقد ذكر الأنواع العالية
" سفينة - جاسوس - زورق - رقية - تلوي - قرداس - طيار - زبزب - كاروانية - مثلثة - واسطية - ملقوطة - شنكولية - براكية - خيطية - سموط - مسمحية - جهلية - مكية - زبر - باذية - سبركة - سوقية - معبر - ولجية - طيرة - برعاني - شموق - مركب - عذا - برمه - قارب - دونيج - حمامة - شيني - شلندي - بيوجة • "[١]
ويظهر ان معظم هذه الأنواع من المراكب التي عددها المقدسي زوارق نهرية يستخدمها اهل الأقطار في ملاحتهم النهرية لنقل الحاصلات والأمتعة والركوب وما أشبه ذلك من الأعمال اليومية التي تختلف عما نحن بصدده من الأعمال الحربية للأسطول •

---

١ - احسن التقاسيم ص٣١ •

الباب الثاني
معدات الاسطول

مقدمة

بعد ان اتيت علي وصف مراكب الاسطول وعددت انواعها ابدأ بتناول ناحية ثانية من البحث وهي معدات الاسطول. وقد كان الخلفاء والسلاطين قبل ارسال الاسطول للغزو علي البلاد المعادية او لرد هجمات عدو طرأ بلادهم يجهزون الاساطيل بالمعدات من النوتية والمقاتلين والاسلحة والزخيرة والمقريزي يردد العبارات التالية في أمكنة كثيرة من خططه يقول " وانحدرت الاساطيل مشحونة بالرجال والعدد والالات والاسلحة "١ ويقول ايضا " واستدعي مقدم الاسطول وخلع عليه وانحدرت الاساطيل مشحونة بالرجال والعدة "٢ ويقول " وشحن الاسطول بالرجال والسلاح وسائر ما يحتاج اليه وسيره شيئا بعد شئ"٣ ويقول المقريزي ايضا عن لسان ابن الطوير " فاذا تكملت النفقة وتجهزت المراكب وتهيأت للسفر ركب الخليفة والوزير "٤ . ويقول ايضا " واحضر مقدم الاساطيل الثانية لأن الاساطيل توجهت في الغزو وخلع عليه وأمر بأن ينزل الي الصناعتين بمصر والجزيرة وينفق في اربعين شينيا ويكمل نفقاتها وعددها ويكون التوجه بها صحبة العسكر "٥ اشار المقريزي هنا الي انه يوجد اسطولان الاول ارسل الي الغزو والثاني ينفق عليه ويعد للذهاب صحبة الجيش البري وبعد ان يشحن الاسطول بالمعدات يعين عليه جماعة من الاجناد والمقدمين ويرسل الحرب . يقول المقريزي " في سنة ٧٠٢ في سلطنة الناصر محمد بن قلاون جهزت الشواني بالعدد والسلاح والنفطية والازودة وعين لها جماعة من اجناد الحلقة ... "٦ ويقول ايضا " وفي سنة ٦٩٢ تقدم السلطان الملك الأشرف صلاح الدين خليل بن قلاون الي الوزير الصاحب شمس الدين محمد بن السلعوس بتجهيز امر الشواني فنزل الي الصناعة واستدعي الرئيس وهيأ جميع ما تحتاج اليه الشواني حتي كملت عدتها نحو ستين شونة وشحنها بالعدد والآلات الحربية ورتب بها عدة من المماليك السلطانية والبسهم السلاح فأقبل الناس لمشاهدتهم ... "٧

وفي البحث عن معدات الاسطول لن أتطرق لذكر الجند والمقدمين والرؤساء الحربيين لأن ذلك يأتي في بحث خاص فيما بعد . وانما الذى اريد ان ابحثه في هذا الباب هو عدة الاسطول فقط وقد قسمت الكلام عنها بفصلين .

الفصل الأول = المعدات الحربية التي تضاف الي المراكب.

الفصل الثاني = وسائل اجراء المراكب وتسييرها .

---

١ ـ الخطط ج١ ص٤٨٠ / ٢ ـ نفس المصدر ج١ ص٤٨٢ / ٣ ـ نفس المصدر ج ص٢١٩ وكتاب الظاهر بيبرس ص١٤٤ و ١٥٠ / ٤ ـ الخطط ج١ ص٤٨٠ و ج٢ ص١٩٣ / ٥ ـ نفس المصدر ج٢ ص١٩٤
٦ ـ نفس المصدر ج٢ ص١٩٥ / ٧ ـ نفس المصدر ج٢ ص١٩٤

الفصـــل الأول

المعدات الحربيـــة التي تضــاف الي المراكــب

ان المعدات الحربية التي تضاف الي المراكب البحرية علي انواع مختلفة وهي من الكثرة بحيث نضطر الي الاكتفاء بأهمها . وتسهيلا للبحث أتكلم عن كل آلة حربية علي حدة وسأختصر في الكلام عن هذه المعدات ما استطعت لأن الغاية اظهار ان العرب استخدموها في اساطيلهم البحرية معان بعضها كان مستعمل ايضا في الحروب البرية . ولو توسعت في البحث عن هذه المعدات لخرجت عن سياق الموضوع الذي الزمت نفسي فيه ودخلت في بحث آخر وهو تاريخ السلاح عند العرب وهذا مما لادخل له في البحث عن الاسطول ولذلك سأتكلم بلمحات مختصرة عن كل آلة من معدات المركب بقدر ما يساعدني الوصف علي ابراز هذه الآلة في ذهن القارئ وبقدر ما لها تماس ايضا في الاسطول وابدأ اولا بذكر المنجنيق .

المنجنيق

" المنجنيق بفتح الميم وسكون النون وفتح الجيم وكسر النون الثانية وسكون الياء وقاف في الآخر . وحكي ابن الجواليقي فيه كسر الميم وحكي فيه ايضا منجوق بالواو . ومنجميق بابدال النون الثانية ميما وهو اسم اعجمي . فان الجيم والقاف لا يجتمعان في كلمة عربية " ١ " وقال الجوهري فارسيتها هي (من جه نيك) اي انا ما اجودني . وليس في الصحاح انا وهي لازمة الذكر . ويجمع علي منجنيقات قال

ويوم حلانا عن الاهاتم　　　　بالمنجنيقات والأمائم

ويجمع ايضا علي مجانق " ٢ . ويقول القلقشندي انه يجمع ايضا علي مجانيق ومناجيق ٣ . وقد ورد الجمع الأخير في سيرة صلاح الدين الأيوبي يقول " ولما تكاملت عنده الآت القتال من المناجيق والدبابات والستائر " ٤ . ومما يستدرك علي المنجنيق الجنق بضمتين وهي حجارة المنجنيقات وقال ابن الأعرابي الجنق اصحاب تدبير المنجنيق ٥ .

قال الجوهري وهو " آلة ترمي بها الحجارة اي علي العدو وذلك بان تند سوار مرتفع جدا من الخشب يوضع عليها ما يراد رميه ثم يضرب بسارية توصله لمكان بعيد جدا " ٦

---

١ ـ صبح الأعشي ج ص ١٣٧ / ٢ ـ تاج العروس " مادة جنق " / ٣ ـ صبح الأعشي ج ص ١٣٧
٤ ـ سيرة صلاح الدين ص٥٥ / ٥ ـ تاج العروس مادة " جنق " / ٦ ـ نفس المصدر مادة " جنق " وخطط الشام ج ص ١٧ .

وقد وصفه القلقشندي بصورة أوضح وأجلي فقال " هو آلة من خشب لها دفتان قائمتان بينهما سهم طويل رأسه ثقيل وذنبه خفيف وفيه تجعل كفة المنجنيق التي يجعل فيها الحجر يجذب حتي ترفع اسافله علي أعاليه ثم يرسل فيرتفع ذنبه الذى فيه الكفة فيخرج الحجر منه فما أصاب شيئا الا أهلكه " ١ .

والمنجنيق آلة قديمة كانت مستعملة قبل مجيء العرب " استخدمها الفنيقيون قديما وعنهم اخذها اليونان والأسرائليون وورد ذكرها غير مرة في سفر المكابيين وانتشرت بواسطة اليونان في سائر دول الأرض فاستخدمها الفرس وعنهم اخذها العرب بعد الأسلام " ٢

وفي بعض الروايات أن الجاهليين عرفوا المنجنيق واستعملوه في حروبهم يقال ان " أول من وضع المنجنيق جذيمة الأبرش ملك الحيرة علي العرب " ٣ ثم لما اتي الأسلام استخدم المسلمون المنجنيقات في اعمالهم الحربية واول من استعمله النبي محمد (ص) في حصار الطائف ٤ ويقول زيدان " والمشهور ان العرب لم يستخدموا هذه الآلة الا في اواسط القرن الأول للهجرة بعد مخالطتهم الروم والفرس. ولكننا رأينا في السيرة الحلبية انهم استخدموها في حصار الطائف ارشدهم اليها سليمان الفارسي ويقال انه صنعه لهم بيده . وذكر صاحب هذه السيرة ايضا ان المسلمين لما فتحوا حصن الصعب في خيبر وجدوا فيه منجنيقات ودبابات " ٥ .

اذن لقد عرف العرب المسلمون المنجنيق من اقدم ازمانهم واستخدموه في حروبهم البرية . فهل استخدموه في حروبهم البحرية ؟ اقول نعم . ولكن الزمن الذي بدأ فيه العرب استخدامهم له في الأسطول لا يمكنني تحديده . ففي معركة ذات الصواري التي قامت سنة ٣٤ هـ مابين الأسطول العربي والبيزانطي استخدم العرب في قتال اعدائهم الحجارة يقول المقريزي " قالوا نفذ النبل والنشاب فهم يرمون بالحجارة " ٦ ولكن النص لايبين ما اذا كانت هذه الحجارة ترمي بالمجانيق او بشيء آخر لذلك لا يمكنني اعتبار هذا التاريخ سنة ٣٤هـ هو الزمن الذي بدأ العرب يستخدمون به المنجنيق في مراكبهم . وانما لدي نصوص متأخرة تؤكد استعمال هذه الآلة في المراكب . يقول المقريزي ان الخليفة المعز لدين الله الفاطمي سنة ٣٥٠ هـ كان يجلس لوداع الأسطول قبل ذهابه للغزو ويصف المقريزي المراكب بقوله

١- صبح الأعشي ج٢ ص١٣٧ وحضارة العرب هامش ص١٦٦ - ١٦٧ / ٢- التمدن ج١ ص١٧٥ / ٣- تاج العروس مادة " جنق " وصبح الأعشي ج٢ ص ١٣٧ / ٤- سيرة ابن هشام ج٣ ص ٣٠٣ والنظم الأسلامية ص٢٣٣ / ٥- التمدن ج١ ص ١٧٥ / ٦- الخطط ج١ ص١٦٩

" فاذا جلس للوداع جاءت القواد بالمراكب من مصر الى هناك للحركات في البحر بين يديه وهي مزينة باسلحتها ولبودها وما فيها من المنجنيقات فيرمى بها . وتنحدر المراكب وتقلع وتفعل سائر ما تفعله عند لقاء العدو " ١ ويروي ايضا عن ابن الطوير عند كلامه عن منظرة المقس ما يلي " ... جاءت القواد بالمراكب من مصر الى هناك للحركات بين يديه وهي مزينة باسلحتها ولبوسها (لبودها) وفيها المنجنيقات تلعب فتنحدر وتقلع بالمجاذيف كما يفعل في لقاء العدو بالبحر الملح " ٢ هذان النصان يدلان دلالة واضحة على وجود المنجنيق من مراكب . ولكن هذا التاريخ سنة ٣٥٠ متاخر جدا واظن ان العرب قد استخدموا هذه الآلة في الأسطول قبل ذلك التاريخ ولعل هناك نصوصا تؤيد ذلك لم اصدفها في قراءتي .

وقد استخدم الافرنج سنة ٦٩٠ هـ اثناء حصار عكا المنجنيق في مراكبهم ورموا به المسلمين . يقول ابي الفداء " ... واحضروا بطسة فيها منجنيق يرمي علينا وعلى خيمنا من جهة البحر فكنا منه في عدة حتى اتفق في بعض الليالي هبوب رياح قوية فارتفع المركب وانحط بسبب الموج وانكسر المنجنيق الذي فيه بحيث انه انحط ولم ينصب بعد ذلك " ٣ .

وكان يطلق على بعض المنجنيقات اسماء خاصة تميزها عن غيرها وذلك عندما تكون تلك المنجنيقات ذات اهمية عظيمة . كما يطلق اليوم على المدافع بحرا اسماء خاصة تعرف بها . فالبلاذري مثلا يذكر المنجنيق المعروف " بالعروس " كان عند الحجاج بن يوسف الثقفي ارسله صحبة محمد بن القاسم لمحاربة ملك الهند سنة ٨٩ هـ وهدم به صنما من اصنامه يقول " ونصب منجنيقا تعرف بالعروس كان يمد فيها خمسمائة رجل " ٤ اذن كان يشتغل على هذا المنجنيق خمسمائة رجل للرمي عنه وهذا العدد من الأشخاص يبين لنا اهمية هذا المنجنيق ...

ويحدثنا ابي الفداء عن منجنيق يعرف " بالمنصوري " لا يقل اهمية عن " العروس " يقول ابو الفداء عنه " ان السلطان الملك الأشرف سار بالعساكر المصريه سنة ٦٩٠ الى عكا وارسل الى العساكر الشاميه وامرهم بالحضور وان يحضروا صحبتهم المناجيق ... وتسلمنا منه منجنيقا عظيما يسمى المنصوري حمل مائة عجلة ففرقت في العسكر الحموي وكان المسلم الي منهم منه عجله واحده ... وكان سيرنا بالعجل في آواخر فصل الشتاء فاتفق وقوع الأمطار والثلوج علينا ... فقاسينا من ذلك بسبب جر العجل وضعف البقر وموتها بسبب البرد شدة عظيمه ... وكذلك امر السلطان الملك الأشرف بجر المجانيق الكبار والصغار ما لم يجتمع على غيرها " ٥ هذا النص يبين لنا ان المنجنيقات على انواع منها الصغير ومنها الكبير . وان الكبير منها ينقل بعد ان يفكك الى اجزاء ينقل كل جزء منه على حدة اما بواسطة العجل او بواسطة السفن .

---

١ - الخطط ج ٢ ص ١٩٣ وصبح الأعشى ج ٣ ص ٥٣٣ و التمدن ج ١ ص ١٩٧ / ٢ - الخطط ج ١ ص ٤٨٠

٣ - المختصر ج ٤ ص ٢٥ / ٤ - فتوح البلدان ص ٤٤٢ و التمدن ج ١ ص ١٧٦ / ٥ - المختصر ج ٤ ص ٢٤

وقد كانت هذه المنجنيقات تكلف الأموال الكثيرة يقول ابن شداد عن منجنيق كبير انه كلف الف وخمسمائة دينار ١

ويلحق بالمنجنيق الزيارات وهي اللوالب والحبال التي يجذب بها المنجنيق حتي ينحط أعلاه ليرمي به الحجر ٢ وهو علي أنواع منه ما يمد بلوالب واقواس ومنه ما يدار عليه المقلاع ٣

ويستخدم المنجنيق اما لرمي السهام او الحجارة او قدر النفط او العقارب او نحوها من آلات الأذي فان كانت المقذوفات خفيفة ثقلوها بالرصاص وان كانت من السوائل كالنفط ونحوه اتخذوا لها كفة كالكاس علقوها بسلاسل . وكانوا يستخدمون المنجنيق لاحراق اماكن العدو بالنفط ونحوه فيرسلون به نفطا مولعا بالنار يقذفونه بواسطة كفة من الزرد يجعلون بها الأوعية المملوءة بالنفط كالقدور ونحوها ويرسلونها بمنجنيق رمي الحجارة ٤ .

هذه لمحة مختصرة عن المنجنيق ووصفه وطرق استخدامه اقول مختصرة لأني علي يقين ان هناك مجالا اوسع للبحث في هذه الآلة وصناعتها وقد الف الأقدمون كتبا عن المنجنيق اذكر منها كتابا يدعي الأنيق في المجانيق الفه شمس العلا منكلي بغا الشمس الزردكاش عام ٨٦٧ هـ وهو في جملة كتب الأستاذ زكي باشا مأخوذ بآلة التصوير في ١٠٩ لوحة ويصف المؤلف في هذا الكتاب المنجنيق واجزاءه وطريق صناعته وهو محلي بصور بديعة للغاية .

اني آسف جدا الأسف لعدم تمكني من الأطلاع علي هذا الكتاب لعدم وصولي اليه . وانما استفدت بعض الفائدة مما كتبه الأستاذ " امين الخولي " في مجلة المقتطف الجزء الرابع من المجلد ٦٣ في كانون الأول سنة ١٩٢٣ م في مقال عنوانه " الأسلحة النارية في الجيوش الأسلامية " . وكم كنت اتمني لو اتيح لأحد رجالات مصر العاملين نشر هذا الكتاب وابرازه لحيز النشر والوجود فما احوجنا الي ان نعرف عن اسلحة اجدادنا وما لهم من الآثار والأيدي الكبري في هذا المضمار ......

وشبيه بالمنجنيق من آلات الرمي أذكر :

العرادة

العرادة (بالتشديد شيئ اصغر من المنجنيق) شبيهه والجمع العرادات ٥ وقد انتقل هذا اللفظ الي اللغة الأسبانية algarada ٦ وهي آلة تصغر المنجنيق ترمي بالحجارة او السهام

---

١ ـ سيرة صلاح الدين ص٩٦ ـ ٩٧ / ٢ ـ صبح الأعشي ج٢ ص١٣٧ / ٣ ـ التمدن ج١ ص١٧٥ /
٤ ـ نفس المصدر ج٢ ص١٧٦ / ٥ ـ تاج العروس مادة " عرد " / ٦ ـ ملاحظات لامنس ص ١٢

المرمي البعيدة وبقدور النفط او العقارب وما اليها ١ وليس هناك من فارق كبير بين العرادة والمنجنيق الا في الحجم فلا حاجة للتوسع عنها .

ومن الآت القذف ايضا

الجروخ

جرخ جمعها جروخ وهي آلة يقذف بها السهام والنفط ٢ ويقول الأب شيخو ان هذا اللفظ فارسي معناه الدولاب ويراد به آلة للرمي العدو بالحجارة والأسهم النارية والنفط ٣.

ومن الجروخ اذن تشتق لفظ الجرخية وهم الذين يرمون بالنفط ٤.

فالجروخ اذن آلآت للرمي وترد كثيرا في المصادر بهذا المعني يقول ابن شداد "فاستصحبوا المنجنيقات والدبابات والجروخ والآت الحصار وغير ذلك " ٥ ويقول ابوا الفداء " "وكانوا يرموننا بالنشاب والجروخ من المراكب " ٦ ويقول صالح بن يحي "حتي تسلطت الرماة بالجروخ والحجارة من صواريها " ٧ ويقول ايضا " ورموا علينا بالجروخ " ٨

بعد ان عرفنا الآت الرمي يجب علي ان أبين القذائف التي كانت ترمي بهذه الآلات لأن هذه الآلات دون قذائفها لاتفيد شيئا . فما هي تلك القذائف ؟

الاحجار وقوارير النفط والقدور

يوجد انواع عديدة من القذائف التي كانت ترمي بأحدي الآت الرمي التي مر ذكرها. وهذه القذائف بعضها مؤلف من الحجر ويدعي " قنابل الحجر وتتخذ من حجر مدور ويجعل فيه اربعة خزائن وتملأ هذه الخزائن بلزاق كمة مكون من نفط ومصطكي وغيرها الخ " ذكرها صاحب الأنيق عس العلا منكلي " ٩ وبعض هذه القذائف مؤلف من قوارير زجاج او القدور .

قال القلقشندي عنها ما يلي " قوارير النفط وهي قدور ونحوها يجعل فيها النفط ويرمي بها علي الحصون والقلاع للأحراق علي ان القوارير في اللغة اسم للزجاج وانما استعيرت في آلات النفط مجازا " ١٠

---

١ ـ هامش حضارة العرب ص١٦٦ / ٢ ـ ملحق دوزي مادة "جرخ" / ٣ ـ هامش تاريخ بيروت ص٣٦

٤ ـ رحلة ابن بطوطة ج ص١٤١ / ٥ ـ سيرة صلاح الدين ص٢٧ / ٦ ـ المختصر ج٤ ص٢٥

٧ ـ تاريخ بيروت ص٣٦ / ٨ ـ نفس المصدر ص٣٨ / ٩ ـ المقتطف ج مجلد ٦٣ سنة ١٩٢٣م ص٣٧٦

١٠ ـ صبح الأعشي ج٢ ص١٣٨ .

وكان بعض هذه القدور من النحاس تسكب علي مثال حجر المنجنيق مجوفة وتملأ - بمواد - ومواد اخرى ذكرها علي اقدارها ونسبها الزردكاش صاحب الأنيق ... ومن قنابل النحاس ما يكون علي شكل صناديق تعرف بصناديق الخاشفة ويكون في جنبها مزراق نحاس وله انابيب تنفذ اليه فيملأ الصندوق نفطا ويجعل علي رأس المزراق وردة لباد وتشعل ويرسل الصندوق بالمنجنيق فيشتعل منها وينفجر "١".

وكان بعض هذه القدور من الزجاج ويدعي قدور الزجاج - وهي قوارير تملأ من دهن يؤلف يتركب من نفط معقد - وهو النفط الأبيض - وكبريت وكندس ... الخ ثم ترمي هذه القوارير بالمنجنيق فتلطخ المكان الذى تقع فيه ويؤتي بعد ذلك بحجر عليه مشاقة مرواة من النفط المطبوخ تشعل فيه النار ويرمي حيث وقعت القوارير فيلتهب المكان ولا ينطفئ حتي يصير رميما "٢"

وقد احرق المسلمون للفرنج عند حصار عكا كبشا بالنفط يقول ابن عداد - ولما راى المسلمون ما نزل بالعدو من الخذلان والهزيمة هجموا علي كبشهم فالقوا فيه النار والنفط وتمكنوا من حريقه "٣" وقد وصف ابن الاثير عند ذكر حصار الافرنج لعكا سنة ٥٨٦ كيف ان العرب المسلمين احرقوا ابرج الافرنج الثلاثة التي وضعوها حول البلد وذلك بقذفهم اولا قدور فيها نفط ومواد محرقة علي البروج حتي تتلوث تلك البروج ثم ارسال قدور اخرى بعدها فيها نفط مشتعل فتلهب البروج وتحرقها يقول "... فاتاهم الله بنصر من عنده واذن من احراق الابرج وكان سبب ذلك ان انسانا من اهل دمشق كان مولعا بجمع الات النفاطين وتحصيل عقاقير تقوى عمل النار فكان من يعرفه يلومه علي ذلك وينكره عليه وهو يقول هذه حالة لم اباشرها بنفسي وانما اشتهي معرفتها وكان بعكا لأمر يريده الله فلما راى الأبراج قد نصبت علي عكا شرع في عمل ما يعرفه من الأدوية المقوية للنار بحيث لايمنعها شيئ من الطين والخل وغيرهما فلما فرغ منها حضر عند الأمير قراقوش وهو متولي الأمور بعكا والحاكم فيها وقال له يأمر المنجنيقي ان يرمي في المنجنيق المحاذى لبرج من هذه الأبراج ما اعطيه حتي احرقه .... فاجابه الي ذلك وأمر المنجنيقي بامتثال امره فرمي عدة قدور نفطا وادوية محرقة ليس فيها نار فكان الفرنج اذا راؤا القدر لا يحرق شيئا يصيحون ويرقصون ويلعبون علي سطح البرج حتي علم ان الذي القاه قد تمكن من البرج القى قدرا مملوأة وجعل فيها النار فاشتعل البرج

---

١ - المقتطف ج٤ مجلد ٦٣ سنة ١٩٢٣ م ص٣٧٦ / ٢ - نفس المصدر / ٣ - سيرة صلاح الدين ص ١٠٤

والقى قدرا ثانية وثالثة فاضطرمت النار في نواحي البرج واعجلت من في طبقاته الخمس عن الهرب ... وحمل ذلك الرجل الى صلاح الدين فبذل له الاموال الجزيلة والاقطاع الكثيرة فلم يقبل منه الحبه الفرد وقال انما عملته لله تعالى ولا اريد الجزاء الا منه " ١ .

هذه صورة بديعة عن استعمال العرب لقدور النفط واحراق بروج الاعداء بواسطتها وهناك نوع آخر من القدور كان العرب يستعملونها ليمنعوا العدو من اطفاء النار وهذه القدور ملوءة بالعذرة والاقذار يرمونها ليشغلوا العدو بنفسه عن القتال . يذكر ابن الاثير هذه القدور عند ذكر حصار الفرنج لصور سنة ٥٠٥ فيقول وعملوا (الافرنج) عليها المجانيق والصقوا احداها الى سور البلد واخلوه من الرجال . وكانت صور للآمر باحكام الله العلوى ونائبه بها عز الملك الاعز فاحضر اهل البلد واستشارهم في حيلة يدفعون بها شر الابراج عنهم فقال شيخ من اهل طرابلس وضمن على نفسه احراقها واخذ معه الف رجل بالسلاح التام ومع كل رجل منهم حزمة حطب فقاتلوا الفرنج الى ان وصلوا الى البرج الملتصق بالمدينة فالقى الحطب من جهاته والقى فيه النار ثم خاف ان يشتغل الفرنج الذين في البرج باطفاء النار ويتخلصوا فرماهم بجرب كان قد اعدها ملوءة من العذرة فلما سقط عليهم اشتغلوا بها وبما نالهم من سوء الرائحة والتلويث فتمكنت النار منه فهلك كل من به الا القليل واخذ منه المسلمون ما قدروا عليه بالكلاليب ثم اخذ سلال العنب الكبار وترك فيها الحطب الذى قد سقاه بالنفط والزفت والكتان والكبريت ورماهم بسبعين سلة واحرق البرجين الاخرين . " ٢ في هذا النص يبين ابن الاثير انواع المواد والعقاقير التي كان العرب يستعملونها في تعجيل الاحراق وهي كما رأيت النفط والزفت والكبريت وما اشبهها .

هذه القذائف التي ذكرتها كانت ترمى بالمنجنيق وهناك نوع آخر شبيهها من القذائف كانت تقذف باليد وهي اشبه (بقنابل اليد) في يومنا هذا وتدعى قوارير النفط وهي « " مؤلفة من زجاجة مدورة ذات عرى تحشى بالنفط والصبر وبذر

١ـ الكامل ج ١٢ ص ١٩ ـ ٢٠ وسيرة صلاح الدين ص ٨٤ والروض ص ١٦٦ وخطط الشام ج ٥ ص ١٧ / ٢ ـ الكامل ج ١٠ ص ١٨٤ ـ ١٨٥ .

القرطم المقشور الخ ... وتجعل لها سلسلة فيشعلها الضارب ثم يرمي بها فيكسرها " ١
وقد استعمل العرب هذا النوع من القوارير في حصار عكا سنة ٥٨٦ لحرق بطس الافرنج
يقول ابن شداد " خرج اصحابنا من الثغر المحروس (عكا) في شواني على بغتة من
العدو وضربوا البطسة المعدة لاخذ البرج الذباب بقوارير نفط فاحترقت وارتفع لهبها
في البحر ارتفاعا عظيما وحزن الالمان لذلك " ٢ ويقول ابن شداد ايضا عما جرى
في حصار عكا " ولقد حكى بعض من دخل عليهم (الفرنج) اسوارهم انه كان هناك
راجل واحد افرنجي صعد سور خندقهم واستدبر المسلمين والى جانبه جماعة يناولونه
الحجارة وهو يرميها على المسلمين الذين يلاسقون سور الخندق وقال انه وقع فيه
زهاء خمسين سهما وحجرا ولا يمنعه ذلك عما هو بصدده من الذب والقتال حتى
ضربه زراق مسلم بقارورة فاحرقه " ٣

وهناك قنابل مضيئة" وهي مؤلفة من بندق يركب من كبريت رومي اسود وصمغ
ودن بلسان ونوره ومواد اخرى تبندق وتجفف فاذا اريد الرمي بها تمسح بنفط مصعد
— اي ابيض — مطبوخ ويذر عليها كبريت مسحوق فاذا رمي بها عن قوس صلبة شديدة
اشتعلت نارا بوقوعها في الهواء سواء كان ذلك في ليل او نهار " ٤ وهناك نوع من
القدور يشبه (قنابل شرمبل) التي تقشر الجلد عن اللحم وتحرقه وتصنع من قدور مطوءة
بمواد من نفط وغيره ذكرها باقدارها صاحب الانيق ورسم القدر نفسها .

وقد ورد استعمال هذه القوارير اليدوية عند ابن الاثير عندما يتكلم عن عماد
الدولة ابن بويه وحربه مع ياقوت . فقد استعمل الاخير جماعة من رجاله يقاتلون بقوارير
النفط يقول " ذكرنا مسير عماد الدولة ابن بويه الى القنطرة وسبق ياقوت اليها فلما
وصلها ابن بويه وصده ياقوت عن عبورها اضطر الى محاربته فتحاربا في جمادى الاخرة
سنة ٣٢٢ ... ثم ان ياقوتا قدم امام اصحابه رجالة كثيرة يقاتلون بقوارير النفط —
فانقلبت الريح في وجوههم واشتدت فلما القوا النار عادت النار عليهم فعلقت بوجوههم

---

١ — المقتطف ج ٤ مجلد ٦٣ سنة ١٩٢٣ ص ٣٧٦ / ٢ — سيرة صلاح الدين ص ١٠٤ /
٣ — نفس المصدر ص ١٢٧ / ٤ — المقتطف ص ٣٧٦ حتى ٣٧٧ .

وثيابهم فاختلطوا واكب عليهم اصحاب ابن بويه فقتلوا اكثر الرجالة "١ في هذا النص الذى يذكره ابن الاثير يبين لنا ان قوارير النفط هذه كان لها خطرها على مستعملها اذا لم يساعده الريح . فقد انقلبت نيران النفط على ياقوت وجماعته واحرقتهم عند انقلاب الريح في وجوههم .

وقد يستعمل الخلفاء النفط لاخماد الثورات الداخلية التي تجرى في بلادهم كما جرى سنة ٣٨٦ هـ عندما احرق النصارى الاسطول في صناعة المقس وقامت البحرية بالاشتراك مع العامة في تقتيل الذين قاموا بالعمل . ولاخماد الفتنة التي نشبت في مصر " طاف متولي الشرطة وبين يديه ارباب النفط بعددهم والنار مشتعلة "٢ حتى هدأت العامة وسكنت ثورتهم .

ان هذه القدور او القنابل التي ذكرتها هي من النوع المشتعل اذ ان المادة الرئيسية فيها هي النفط المصعد " وهو " خلاصة القار البابلي وله قوة يستلب بها النار فيستوقد منها وان لم يتماسا ولونه ابيض ويكون منه الاسود " ٣ وهناك انواع اخرى من القدور التي تقذف على الاعداء ولكن المواد المستعملة فيها غير مشتعلة وانما هي مؤذية ومضرة اذكر منها "

قدور الانزلاق : وهي قدور من الصابون اللين الذى يزلق الاقدام . اوقدور تملأ بالسدر والخطمة الرقيقين المخلوطين بدق الصابون بختم رأسها وتقذف على السفن البحرية فتتكسر فيها . ثم يقذف بعد هذه القدور نوع آخر من القوارير التي تشبه — قنابل المكروبات — في يومنا هذا وهي قدور مملوءة بالحشرات تدعى — قدور العراكب — وهي مؤلفة من قدر كبيرة من الفخار توضع فيها حيات عتاق وعقارب ويختم رأسها وترسل على المقاتل بعد قنابل الانزلاق السابقة الذكر فتتكسر وينتشر مافيها فكل من لسعته قتلته . ويزيد هول هذه القنابل كونها تلقى على المراكب فلضيق المكان واحاطة الماء بسكان المركب تجعل الخطر عظيما والاضطراب عاما عند الجميع وهناك نوع آخر من القدور يحمل من جرار النورة وهو اشبه — بالغازات الخانقة

---

١ — الكامل ج ٨ ص ٩٤ — ٩٥ / ٢ — الخطط ج ٢ ص ١٩٦ / ٣ — المقتطف ج ٤ مجلد ٦٣ ص ٣٧٧ / ٤ — نفس المصدر ص ٣٧٦ .

والنورة هي حجر الكلس وتدل ايضا على خلاط تضاف الى الكلس من زرنيخ وغيره يستعمل لازالة الشعر قيل هي عربية وقيل هي معربة قال الشاعر :

فابعث عليهم سنة قشورة   تحلق الجلد كحلق النوره ١

ويقول البرقوقي جرارة النورة " هي مسحوق ناعم مؤلف من الكلس والزرنيخ يرمون به الاعداء في مراكبهم فتعمى ابصارهم بنارها وقد تلتهب فيهم التهابا " ٢

ويقول الاستاذ امين خولي عن قدور النورة انها — قنابل خانقة — استعملها العرب في البر والبحر وهي مؤلفة من قدور تملأ من النورة المدقوقة غير المطفأة (وهي مزيج من الكلس والزرنيخ) فتعمي بغبارها الابصار وتلتهب عليهم اذا تبددت . وشبيه من جرار النورة قدور مملوءة بالكلس المطفأ يتصاعد غبارها اذا كسرت الى مناخير الجند وعيونهم فما يستطيعون القتال . وهناك انواع من الغازات التي يستعملونها لا يتدخين الكبريت والجيف على مهب الريح حتى يفسد الهواء على العدو . ٣

وهناك انوع كثيرة من الات الضرر التي يتألف تركيبها من النفط والنطرون والنورة والزرنيخ وامثال هذه المواد المشتعلة تستعمل فقط في الاعمال الحربية البرية ولا ضرورة لذكرها هنا عددها الاستاذ امين الخولي في مقالته بالمقتطف ٤ . وقد اقتبسها من مخطوط قديم اشرت اليه سابقا يدعى (كتاب الانيق في المجانيق — الفه شمس العلا منكلي) . واخذ الاستاذ نفسه ايضا في بحثه السابق عن مخطوطة اخرى لاحدى مقدمي الجند بمصر في دولة المماليك ويدعى " الاحكام الملوكية والضوابط الناموسية في فن القتال في البحر . لمحمد بن منكلي " وهذا الكتاب مخطوط يوجد منه نسخة في خزانة العلامة احمد تيمور باشا اعتمد عليها الاستاذ الخولي في بحثه عن انواع السلاح عند العرب .

ولما لم يكن بوسعي الاطلاع على تلك المخطوطتين لذلك اعتمدت ماكتبه الاستاذ خولي واقتبست عنه اشياء كثيرة في البحث عن النفط وقدوره وقواريره .

١ـ المحيط مادة " نور " وملحق دوزي ايضا / ٢ـ حضارة العرب ص ١٧١ والتمدن ج ١ ص ٢٠٠ / ٣ـ المقتطف ج ٤ مجلد ٦٣ سنة ١٩٢٣ ص ٣٧٧ / ٤ـ نفس المصدر .

زراقة

جمعها زراقات . يقول الزبيدي " زرق بمعني رمي او طعن " ١ ولا يذكر زراقة بمعني "آلة التي يرمي بها النفط " ٢ ويصف محمد بن منكلي في كتابه الأحكام الملوكية الزراقات بقوله " " وكانوا يرسلون النفط من انابيب تجعل في السفن وتعرف في اليونانية باسم (سيفونية) وتسمي عند العرب بالزراقات تنبعث منها نار النفط بارعاد ودخان عديد فتحرق السفن " ٣

ويقول كاترمير " ان معني زراقة مجرى. وفي شرح كتاب المواقف ٤ يحددها بما يلي الزراقة انبوبة معمولة من نحاس ومصنوعة بشكل ان نصفها رقيق والقسم المجوف منه ضيق للغاية بينما نصفها الثاني ثخين وذو تجويف عريض . وفيها قطعة من الخشب التي تجري بحجم يملأ الفراغ العريض ثم يملؤ الأنبوب ماء ا وتحكم قطعة الخشب علي مدخله وتضغط بعنف فيخرج الماء بقوة من الطرف الضيق الي مسافة بعيدة " ٥ هذا هو المبدأ الذى بنيت عليه زراقات النفط فهي بواري من النحاس او من اي معدن صلب آخر يوضع به النفط وينفث علي الأعداء .

يقول كاتر مير " ان كلمة زراقة نجدها مستعملة عند كتاب القرون الوسطي لتفيد انبوبة يرمي منها النفط . فالمقريزي في خططه يقول زراقات النفط " ٦ .

ومن كلمة زراقة اشتقت كلمة زراق وهو الرجل الذي يرمي النفط عن هذه الآلة ويعدد كاتومير نصوصا كثيرة تؤيد ذلك يقول " اننا نقرأ في كتاب الكامل ٧ مايلي انسان زراق ضرب دارا بقارورة نفط ... وفي كتاب حياة بيبرس للنويري ص٧٢ ب يقول رمي الزراقون بالنفط . وفي كتاب حياة ... قلاون للمؤلف نفسه ٨ يقول لعب الزراقون بالنفط وفي ص٢٠ يقول عدة الحجارين والزراقين الف وفي كتاب السلوك للمقريزي (ج ١ ص٢٢٩) يقول دفع الزراقون النفط . وفي كتاب تاريخ فتح بيت المقدس ٩ يقول كل زراق زرق الخسارة علي اهل النار بالنار وفي (ص٢٩ ب) يقول التهم الزراق والتهب الحراق " ١٠ . ويقول ابن شداد عند حصار عكا " فوصل رسول الخليفة وهو شاب شريف ووصل معه حملان من النفط وجماعة من النفاطين والزراقين " ١١ ويقول المقريزي " في سنة ٧٠٢ في سلطنة الناصر بن قلاون جهزت الشواني بالعدد والسلاح والنفطية والأزودة ... وندب الأمير سيف الدين

---

١ ـ تاج العروس مادة " زرق " ٢ ـ ملحق دوزي مادة " زرق " ٣ ـ المقتطف ج ٤ المجلد ٦٣ سنة ١٩٢٣ ص٣٧٥
٤ ـ طبعة القسطنطينية ص٣٣٢ ٥ ـ هامش السلوك ج ٢ قسم ٢ ص١٤٧ / ٦ ـ السلوك ج ٢ قسم ٢ ص١٤٧ في الهامش مأخوذة عن الخطط ج ١ مخطوطة رقم ٧٩٧ ص٣٤٩ ب / ٧ ـ مخطوطة ج ٥ ص٢٨٨ / ٨ ـ مخطوطة رقم ٦٨٣ ص ١٩
٩ ـ عماد الدين الأصفهاني مخطوطة رقم ٧١٤ ص٥٧ آ / ١٠ ـ السلوك ج ٢ قسم ٣ ص١٤٨ / ١١ ـ سيرة صلاح الدين ص٨٣

كهرداش المنصوري الزراق الي الغفر بهم ومعهم جماعة من مماليك السلطان الزراقين" ١

مما تقدم يتبين لنا ان الزراقة آلة يرمي الزراق بها النفط وهذا النفط يشتعل نارا علي الأعداء الا ان المسعودي يذكر نصا يبين فيه انه علاوة عن النفط الذي يقذف من هذه الآلة فانها تحمي ايضا بالحصي والرمل. يقول عند ذكر حصار جند المامون لبغداد ما يلي "ونصب له (هرثمة ابن اعين) علي بغداد المنجنيقات.. فتاذى الناس به وصد نحوه خلق من العيارين واهل السجون. وكانوا يقاتلون عراة في اوساطهم التبابين والميازر . وقد اتخذوا لرؤوسهم دواخل من الخوص سموها الخوذ ودرقا من الخوص... والبوارى قد قيرت وحشيت بالحصي والرمل "٢ ومعني قوله البواري قد قيرت اي ان الزراقات التي هي بشكل البواري قد ملئت بالقار وهو النفط ثم حشيت بعد ذلك بالحصي والرمل.

وفي حوادث سنة ٣١٥هـ يذكر ابن الأثير مايلي " سار الدمستق في جيش عظيم من الروم الي مدينة دبيل وفيها نصر السبكي في عسكر يحميها وكان مع الدمستق دبابات ومناجيق ومعه مزارق تزرق بالنار عدة اثني عشر رجلا فلا يقوم بين يديه احد من عدة ناره واتصاله فكان من اعد شيء علي المسلمين " ٣

ويسمي فون كريمر هذه النار التي تقذف عن الزراقات بالنار ~~////~~ اليونانية ويقول ان العرب استعملوها في سفنهم المدعوة بـ Galley اي الشونه . ٤

فما هي النار اليونانية؟؟

النار اليونانية او النفط القاذف

اتفق معظم المؤرخين الذين ذكروا النار اليونانية ان مخترعها رجل سوري من اهالي بعلبك يدعي كالينكوس Callinicus اهتدي لمعرفة هذه النار واسرخبرها للبيزانطيين سنة ٦٧٣ م الذين فاستخدموها في محاربة العرب عند حصار القسطنطينية واحرقوا بها السفن العربية في سنة ٣٤ هـ . يقول حتي "ان استعمال النار اليونانية تخبر عن تأثير هذه النار علي سفن العرب ويقول ان البيزنطيين هم اول من ~~//~~ استعمل هذه النار في الحروب" ٥ .

وقد بالغ الروم في كتمان اسماء المواد التي يتألف منها تركيب هذه النار وبقي سرا مكتوما بينهم حتي عرفه العرب علي ما يقول فون كريمر في اوائل القرن الثاني عشر للميلاد ٦ .

ويقول زيدان "ان تركيب المواد المؤلفة منها النار اليونانية لم يعرفه اهل اوربا الا في القرن

---

١ - الخطط ج٢ ص١٩٥ / ٢ - مروج ج٢ ص٣٠٢ طبعة القاهرة سنة ١٣٠٣ و النظم الأسلامية ص٣٣٤

٣ - الكامل ج٨ ص٦٠ / ٤ - نقلا عن كتاب Leo the wise (Tactica XIX, the Orient P 360

٥ - تاريخ العرب ص٢٠٢ ٦ - التمدن ج ص١٧٩ / ** التمدن ج ص١٧٩ وخطط الشام ج ص٣٦

السابع عشر للميلاد " ١ .

اما تركيب النار اليونانية فمختلف فيه ولعل ذلك راجع الى عدم وجود تركيب ثابت لها . ومع ذلك فهناك مواد محرقة ثابتة ولازمة في تركيب هذه النار . يذكر ابن منكلي في كتابه الاحكام الملوكية والضوابط الناموسية في فن القتال في البحر تركيب هذه النار فيقول " وتتخذ من شحم كلاب البحر والزفت والكبريت والراتنج وغيرها على مقادير محدودة بعينها في كتابه فتشتعل اذا اشعلت وتظل يومها وليلتها — لاتنطفي " ٢ . اما البرقوقي فيذكر تركيب هذه النار من انها مزيج " من الكبريت وبعض الراتنجات والادهان في شكل سائل " ٣ ويذكر العبارة نفسها زيدان ولا ادري عمن نقل هذان المؤلفان لانهما لايشيران الى المصادر التي يأخذان عنها .

" ومن خصائص هذه النار انها تشتعل في الماء والهواء " ٤ " ولذلك اذا اصابت المراكب لاتطفأ الا بالتراب الندى او الرمل " ٥ " وقد بقي استعمالها في المراكب واستعمال قوارير النوره وماء الكلس التي ترمى على عيون الاعداء قرنا من الزمن بعد ادخال المدافع Ordnance في ال Galley اى الشونه " ٦

وكانت هذه النار تطلق " من اسطوانة نحاسية مستطيلة كانوا يشدونها الى مقدم السفينة فيقذفون منها السائل مشتعلا او يطلقونه بشكل كراة مشتعلة او قطع من الكتان الملتوت بالنفط فيقع على السفن او البيوت فيحرقها ... وكان العرب يسمون النار اليونانية : النفط القاذف " ٧

"وقد تفنن العرب في استعمال هذه النار فادخلوا استعمالها في الرماح والسهام والدبابيس . فمن ذلك رمح يجعل في سنانه كلابان من الحديد وحلقة منه ايضا ويلف السنان بلباد عليه مزيج من المواد المشتعلة ،كذلك استعملوا السهام الملتهبة والدبابيس وهذه الدبابيس آلات من حديد ذات اضلاع يحملها الفرسان في السروج تحت ارجلهم ، ويتقاتلون بها بعد التضارب بالسيوف والرماح وكانت تعرف

١— التمدن ج ١ ص ١٧٩ / ٢— المقتطف ج ٤ مجلد ٦٣ ص ٣٢٨ / ٣— حضارة العرب ص ١٦٩ والتمدن ج ١ ص ١٨٠ / ٤— حضارة العرب ص ١٧٠ / ٥— خطط الشام ج ٥ ص ٣٥ / ٦— Naval. P II / ٧— التمدن ج ١ ص ١٨٠ والبرقوقي ص ١٦٩

اولا العمد ثم سميت بالدبابيس وواحدها دبوس وادخل استعمال النار في تلك الدبابيس ايضا " ١ .

لاشك ان هذه النار اليونانية كانت خطرا كبيرا على السفن والمقاتلين لذلك فقد اخترع القوم ملابس وستائر حفظوا بها اجسامهم ومراكبهم للوقاية من هذه النار .
وسانكلم الان عن هذه الملابس والستائر .

ثياب النفاطين — وستائر المراكب .

جاء في كتاب الاغاني الرواية التالية " قال حدثنا محمد بن يزيد قال كان من خبر غزاة الرشيد هرقلة ان الروم كانت قد ملكت امرأة ... وكانت تكتب الى المهدى والهادى والرشيد اول خلافته بالتعظيم والتبجيل وتدر عليه الهدايا حتى بلغ ابن لها فحاز الملك دونها وعاث وافسد ، وفاسد الرشيد ، فخافت على ملك الروم ان يذهب وعلى بلادهم ان تعطب لعلمها بالرشيد وخوفها من سطوته . فاحتالت لابنها فسلت عينيه فبطل منه الملك وعاد اليها فاستنكر ذلك اهل المملكة وابغضوها من اجله فخرج اليها نقفور وكان كاتبها فاعانوه وعضدوه وقام بامر الملك ... (وشق عصا الطاعة على الرشيد فشخص الرشيد) يؤم بلاد الروم في جمع لم يسمع بمثله . وقواد لايجارون نجدة ورايا . فلما بلغ ذلك نقفور ضاقت عليه الارض بما رحبت وشاورهم في امره وجد الرشيد يتوغل بلاد الروم فيقتل ويغنم ويسبي ويخرب الحصون ويعفي الاثار حتى صار الى طرق متضايقة دون قسطنطينية فلما بلغها وجدها وقد امر نقفور بالشجر فقطع ورمي به في تلك الطرق والقيت فيه النار . فكان اول من لبس ثياب النفاطين محمد بن مزيد فخاضها ثم اتبعه الناس فبعث اليه نقفور بالهدايا وخضع له " ٢

هذه الرواية تدل على ان الوقاية من النيران قد وجدت منذ ايام العباسيين وان العرب كانوا يستخدمونها منذ تلك الايام او ماقبلها . وكان الجيش يصحب معه فرقا مستعدة لاقتحام النيران ومجهزة بهذا النوع من الثياب . فمن اى شيء تتركب تلك الثياب ؟ يقول ابن منكلي في كتابه الاحكام الملوكية " هي ثياب تطلى من الداخل

١ــ المقتطف ج ٤ مجلد ٦٣ سنة ١٣٢٣ ص٣٧٧ / ٢ــ الاغاني ج ١٧ ص ٤٤ .

والخارج بمواد متخذة من النشادر والشب المصري والشب اليماني ... ومواد اخرى فاذا التهبت النار في الثوب لاتزال مشتعلة فيه وانت تنفخ على الثوب من النفط ساعة بعد ساعة يوهك اجمع ولا يصل الى داخل الثوب شيء ويلبسها الرجال اتقاء للنار في القتال " ١ كذلك استعمل العرب ستائر يسترون بها سفنهم خشية — احتراقها بالنيران وهذه الستائر على انواع منها الجلود . يقول ابي الفداء عند ذكر فتح عكا سنة ٦٩٠ هـ " كانت منزلة الحمويين برأس الميمنة وكان بحضر الينا مراكب مقبية بالخشب الطبس جلود الجواميس وكانوا برموننا بالنشاب والجروخ " ٢ هذا النص يدل على ان مراكب الفرنج كانت مجلاة بجلود الجواميس . ولكن العرب ايضا استعملوا هذا النوع من الوقاية في مراكبهم . يقول البرقوقي " ومن حيلهم التي يتخذونها وقاء لهم من اعدائهم انهم يحيطون المراكب بالجلود " ٣ كما ان ابراج الحصار التي توضع على الاسوار عند حصار المدن تغطى بالجلود . يذكر ابن شداد عند ذكر حصار الفرنج لعكا " ان العدو كان قد اصطنع ثلاثة ابراج من خشب وحديد والبسها الجلود المسقاة بالخل على ماذكر . بحث لاتنفذ فيها النيران " ٤ وعدا عن الجلود يستعمل اللبود ايضا في ستر السفن لدرء نار الاعداء عنها يقول المقريزي " فاذا جلس (الخليفة المعز لدين الله) للوداع جاءت القواد بالمراكب من مصر الى هناك للحركات في البحر بين يديه وهي مزينة باسلحتها ولبودها ... " ٥ وكان هذا اللبود يبلل بالخل والماء والشب والنطرون ومواد اخرى . يقول عنها زيدان " وكانوا يعلقون حول المركب من الخارج الجلود او اللبود المبلول بالخل او الماء والشب والنطرون لدفع اذى النفط . وقد يحتاطون لذلك بالطين المخلوط بالبورق والنطرون او الخطمي — المعجون بالخل فان هذه المواد تقاوم فعل النفط " ٦

ويذكر ابن الاثير نوعا من السفن يعرف " بالشذوات والواحدة شذاة كانت تسقف بالاخشاب ويعمل عليها الجبس وتطلى بالادوية التي تمنع النار من احراقها

---

١ — المقتطف ج ٤ مجلد ٦٣ سنة ١٩٢٣ ص ٣٨٧ / ٢ — المختصر ج ٤ ص ٢٤ — ٢٥

٣ — حضارة العرب ص ١٧١ / ٤ — سيرة صلاح الدين ص ٨٤ / ٥ — الخطط ج ٢ ص ١٩٣

٦ — التمدن ج ١ ص ٢٠٠ .

ويرتب النفاطون داخلها يرمون بالنفط ، وتارة يرمون بالرصاص المذاب " ١

هذه هي الستائر التي تستعمل ضد النفط والنار اليونانية . وهناك نوع آخر من الستائر تسدل على المراكب لتحجبها عن الانظار وغالبا ماتكون بلون الماء زرقاء حتى تختلط على العدو ولا يراها من بعيد . يصفها القلقشندى بقوله " الستائر وهي الات الوقاية من الطوارق ، وما في معناها مما يستر به على الاسوار والسفن التي يقع فيها القتال " ٢ .

وهناك حيل اخرى يحتال بها بحارة المسلمين ليحجبوا مراكبهم عن اعين العدو يذكرها البرقوقي وزيدان مابلي " من تلك الحيال انهم اذا جن الليل لايشعلون في مراكبهم نارا ولا يتركون فيها ديكا وقد يسدلون على المراكب قلوعا زرقاء " ٣ . ومن معدات الاسطول ايضا .

مكاحل البارود :اولا او المدافع

يقول القلقشندى " مكاحل البارود ، وهي المدافع التي يرمى عنها بالنفط " ٤ وكلمة مدفع آتية من فعل دفع يقول الزبيدى " دفع اليها شيئا ودفع عنه الاذى والشر على المثل كمنع . يدفع دفعا ودفاعا بالفتح ومدفعا ازاله بقوة ... وفي الصحاح المدفع (واحد مدافع المياه الى تجرى فيها) وقال ابن شميل مدفع الوادى حيث يدفع السيل وهو اسفله حيث يتفرق ماؤه قال لبيد :

فمدافع الريان عرى رسمها   خلقا كما ضمن الوحي سلامها "٥

ثم استعملت كلمة مدفع فيما بعد للالة التي تقذف البندق والسهام يقول دوزى " مدفع بالكسر وبالعامية مدفع با لفتح استعملت لاول مرة في مصر لتدل على المعنى المفهوم وهو Canon وذلك في سنة ٧٩٢ (الف وثلاثمائة وثلاثة وثمانين)؟ والمدافع في القديم على انواع يذكرها القلقشندى فيقول " وحالها مختلف :

١ــ المقتطف ج ٤ مجلد ٦٣ سنة ١٩٢٣ ص ٣٧٨ / ٢ــ صبح الاعشى ج ٢ ص ١٣٨

٣ــ حضارة العرب ص ١٧٢ والتمدن ج ١ ص ٢٠١ / ٤ــ صبح الاعشى ج ٢ ص ١٣٧

٥ــ تاج العروس " مادة " دفع / ٦ــ ملحق دوزى مادة " دفع) .

فبعضها يرمى عنه باسهم عظام تكاد تخرق الحجر وبعضها يرمى عنه ببندق من حديد من زنة عشرة ارطال بالمصرى الى مايزيد على مائة رطل . وقد رأيت بالاسكندرية في الدولة الاشرفية شعبان ابن حسين في نيابة الامير صلاح الدين بن عرام رحمه الله ، بها مدفعا قد صنع من نحاس ورصاص وقيد باطراف الحديد رمي عنه من الميدان ببندقة من حديد عظيمة محماة ، فوقعت في بحر السلسلة خارج باب البحر وهي مسافة بعيدة " ١

وقد استعملت المدافع في المراكب يقول القلقشندى " والحراقة السلطان العظمى المعروفة بالذهبية وحراريق الامراء يلعب بها في وسط امتدادها ويرمى بمدافع النفط على مقدامها " ٢ ويقول صالح بن يحي " واما نحن في المراكب فتقدمنا الى مراكب الفرنج ورمينا عليهم بالمدافع ساعة ورموا علينا ايضا " ٣ وفي حوادث سنة ٩١٧ يقول ابن اياس " وكان سبب نزول السلطان ("قانصوه الغورى) الى هناك قيل انه عرض المركب الكبير الغليون ... فلما كمل زينوه بالصناجق والطوارق والمكاحل وتوجهوا به الى طرا وعرضوه على السلطان في البحر وارموا قدامه بالمدافع ذهابا وايابا " ٤ وفي حوادث سنة ٩١٤ يذكر " ثم احضر بين يديه (قانصوه الغورى) تلك المراكب الاغربة فلعبوا قدامه في البحر ذهابا وايابا والطبول والنفوط عمالة وارموا قدامه في البحر عدة مدافع وكان له يوم مشهور " ٥ .

اما في اوربا فقد استعملت المدافع في الملاحة سنة ١٣٦٠ يقول Barnaby " ولاول مرة استعملت المدافع Guns في الملاحة الاوربية كان سنة ١٣٦٠م وكان الاسبانيون يستعملون سفنا تدعى الغليون Galleon كبير بالمجاذيف وبين هذه المجاذيف توضع المدافع ... وفي سنة ١٤٦٠ اصبح استعمال مدافع الحديد والصفر والنحاس عاما . وهذه المدافع تقذف الحجارة والرصاص ... وفي سنة ١٥١٥م بنيت سفينة باربع صواري وكان فيها ١٧٢ مدفع بالرغم من ان طولها كان لايزيد عن مائة قدم . ففيها ٣٠ مدفعا من كل جانب من طبقاتها الرئيسية وفوق هذه من الاعلى ثلاثة

١ــ صبح الاعشى ج ٢ ص١٧٣ هامش حضارة العرب ١٦٦ وملحق دوزى مادة " دفع "

٢ــ صبح الاعشى ج ٤ ص٤٨ / ٣ــ تاريخ بيروت ص٢٢٣ / ٤ــ بدائع الزهور ج ٤ ص ٢١٥

٥ــ نفس المصدر ج ٤ ص١٤٢

صفوف من المدافع من الامام والموخرة " ١ وقد استعمل الافرنج هذه المدافع في محاربة المسلمين ايام الحروب الصليبية يذكر صالح بن يحي ان تعميره للجنويين جاءت سنة ٧٨٤ هـ ١٣٨٢ م الى بيروت " فرموا الفرنج المسلمين بالجروخ والمدافع فتحوا المسلمين عن قبالة الفرنج واستتروا بالحيطان " ٢ ومازال استعمال المدافع يتقدم ويترقى حتى اصبح في هذه الايام من اشد آلات الضرر على البشرية ·

ومن معدات الاسطول ايضا القوس والنبل · وقد خصصت هذين النوعين من السلاح بالذكر لاهميتهما في الحروب البحرية فهناك انواع اخرى كان المقاتلون يتجهزون بها في حملاتهم البحرية · لكنها ليست مختصة بالسلاح البحري وحده ، وانما تدخل في انواع السلاح عامة · وسوف لا اذكرها لشهرتها ولانها لا تدخل مباشرة في الكلام عن معدات الاسطول وانما اكتفي بذكر اسمائها فقط ·

السيف ، الدبوس ، الرمح ، السنان ، العصا ، المغفر ، البيضه ، الدرع السكين ، الحدبة ، والدرق وانواع اخرى كثيرة يصفها القلقشندى ٣ ويذكرها زيدان ٤ يمكن الرجوع اليها لمن احب اخذ فكرة عن هذه الانواع من الاسلحة ولننتقل الان لوصف القوس ·

القوس : —

يقول الزبيدى " القوس معروفة عجمية وعربية مؤنثة · وقد تذكر · فمن انث قال في تصغيرها قويسه · ومن ذكر قال قويس · وجمعها قسي بالكسر وقسي بالضم وتجمع ايضا على اقواس " ٥ وللقسي انواع عديدة نذكر منها مايلي :

يقول القلقشندى " والقسي على ضربين : احدهما العربية وهي التي من خشب فقط ، ثم ان كانت من عود واحد قيل لها قضيب · وان كانت من فلقين قيل لها فلق · والثانية الفارسية : وهي التي تركب من اجزاء من الخشب والقرن والعقب والغراء ولاجزائها اسماء يخص كل جزء منها اسم فموضع امساك الرامي من القوس يسمى

---

١ — ٢ — تاريخ بيروت ص ٣١ / ٣ — صبح الاعشى ج ٢ ص ١٢٥ الى ١٤٦ / ٤ — التمدن ج ١ ص ١٧٠ وما بعدها / ٥ — تاج العروس مادة (قوس) Naval P 13-14

المقبض ومجرى السهم فوق قبض الرامي يسمى كبد القوس . وما فوق المقبض من القوس وهو ماعلى يمين الرامي يسمى رأس القوس وما اسفله وهو ما على يسار الرامي يسمى وجل القوس " ١

هذان النوعان من القسي هما النوعان اللذان كان العرب والفرس يستعملونهما في حروبهما الأولى اما في الأيام الأخيرة فقد تفنن القوم في صنع القسي وأصبح لها انواع اخرى يذكر بعضها ابن الأثير في كلامه عن فتح قلعة صهيون زمن صلاح الدين سنة ٥٨٤ فيقول " ودام رشق السهام من قسي اليد والجرخ والزنبورك والزيار " ٢ ويضيف المقريزي انواعا اخرى في قوله الآتي " ومن القسي لرماية اليد المنسوبة الى صناعها مثل الخطوط المنسوبة الى اربابها ... ثم قسي الرجل والركاب وقسي اللولب الذي زنة نصله خمسة ارطال .. والنشاب الذي يقال له الجراد وطوله شبر يرمي به عن قسي في مجار معمولة برسمه فلا يدري الفارس او الراجل الا وقد نفذ " ٣ .

ويبين زيدان بعض هذه الأنواع من القسي فيقول " وتفنن المسلمون بالرمي في العصور الوسطى حتى اصطنعوا من الأقواس الآت مركبة ولعلهم اخذوا بعضها عن الفرس كالمجراة التي استنبطها العجم لما حاربوا التتر . وهي عبارة عن انبوبة من حديد او خشب فيه شق يوضع السهم فيه فيقذف قذفا شديدا كما يقذف الرصاصة بالبندقية اليوم وتكون الأسهم قصيرة " ٤

وكانت هذه القسي تحفظ في خزائن السلاح التي يقول عنها ابن مماتي " خزائن السلاح لها مستخدمون يستدعون ما يحتاج اليه من خشب وحديد وعقب وسلوخ واصباغ والآت يعملون فيها ما يؤمرون به من الآت السلاح على اختلاف اوصافها وتباين اصنافها ولها ضرائب مستقرة في اجرة الصناع وغيرها " ٥ . وكان الخليفة زمن الفاطميين يتفقدها بنفسه يقول المقريزي في ذلك " وقال ابن الطوير خزانة السلاح يدخل اليها الخليفة ويطوفها قبل جلوسه على السرير هناك ويتامل حواصلها ويرمي من كل سهم بين يديه فينظر كيف مجراه " ٦ . وقد كانت خزائن السلاح في ايام الفاطميين تحفظ في مكان يدعى خان مسرور وهي برسم الاستعمال للأساطيل ٧ .

وقد كان للعرب عناية خاصة بالرمي وشهرة فائقة في النزع بالقوس في جاهليتهم واسلامهم حتى بلغ من مهارتهم ما يفوق حد التصديق حتى لو أراد احدهم ان يرمي احدى عيني الغزال دون العين الأخرى لرماها . ولذلك سموا مهرة الرمي " رماة الحدق " وكان احدهم يعلق ضبا بشجرة ثم يرمي فقراته فقرة فقرة . فلا يخطيء واحدة منها ٨ .

---

١ - صبح الاعشى ج ٢ ص١٣٤ / ٢ - الكامل ج ١٢ ص ٤ / ٣ - الخطط ج١ ص ٤١٧ / ٤ - التمدن ج١ ص١٧٠ / ٥ - قوانين الدواوين ص١٩ / ٦ - الخطط ج١ ص٤١٧ / ٧ - نفس المصدر ج١ ص٤١٧

٨ - العقد الفريد لأبن عبد ربه ج١ ص٥٢ .

لذلك بعد ان ثقف العرب الرماية ومهروا بها اصبحوا يعتمدونها في حروبهم ويبدؤن بها في معالم البري والبحري . يقول فون كرومر " ان العرب لا يدخلون معركة لا يستطيعون عليها وغالبا ينتظرون مهاجمة العدو لهم ويتمركزون بقوة عندما يشتبكون في معركة مع اعدائهم ويتقدمون الي الأمام دون تقهقر ويتبعون هذه القواعد الحربية في حروبهم البرية والبحرية فاولا يبدؤن برشق النبال والرماح علي الأعداء ثم يضعون مجناتهم امامهم ويتقدمون للقتال بصفوف متراصة . ولذلك فهم يمتازون في ترتيبهم العجيب... هذه بعض الملاحظات التي قدمها ليو الحكيم امبراطور بيزنطة عن صفة حروب العرب " ١

وقد حض النبي العربي المسلمين علي تعلم الرماية ووعد الرجل المحتسب الذي يقتل بالسهم بالجنة يذكر زيدان بعض هذه الأحاديث بقوله الآتي " كان النبي يقول - اركبوا وارموا وان ترموا احب الي من ان تركبوا - ومن اقواله ايضا - كل لهو المؤمن في ثلاثة تأديبه فرسه ورميه عن كبد قوسه وملاعبته امرأته فانه حق . ان الله ليدخل الجنة بالسهم الواحد عامله المحتسب والرامي في سبيله . ومن اقواله وهو قائم علي المنبر - اعدوا ما استطعتم من قوة . الآ ان القوة الرمي - الآان القوة الرمي - الآان القوة الرمي . " ٢ . وغير ذلك من الأحاديث التي تبين فضل الرماية وتحض القوم علي حذقها . وكتب الأدب ودواوين الشعر فيها الكثير من وصف القسي والنبال والتمدح بالرماية ومن ذلك قول ابن الرومي

لهم عدة تكفيهم كل عدة	بنات المنايا والحني الموتر
يزلون عن اكبادكل حنية	خفافا مع الآجال تعلو وتقصر
لها السن ماء تستفيق لهاتها	يكاد لعاب الموت منهن يقطر
ظماء الي ورد الدماء نواهل	لها مورد من غير مأتاه مصدر ٣

هذا هو وصف القسي ولاشك ان القوس دون نبال لاقيمة له فلا بد من وصفها بصورة مقتضبة وذكر انواعها وطرق استخدامها .

النبل او السهم او النشاب

" النبل بالفتح السهام وقيل هي العربية وهي مؤنثة (بلا واحد) له من لفظه فلا يقال نبله وانما يقال سهم ونشابة جمعها أنبال ونبال ... والنبال بالتشديد صاحبه وصانعه كالنابل وحرفة النبالة بالكسر " ٤ . يستفاد من تفسير هذه الكلمة ان النبل هي السهام التي يرمي عن القسي العربية ولا يستعمل المفرد منها بالهاء فلا يقال نبلة بل يقال سهم ونشابة .

---

١ - The Orient P 330 ٢ - التمدن ج ص١٦٩ والنظم الأسلامية ص٢٢٣/ ٣ - ديوان ابن الرومي ج ص٩٥ ٤ - تاج العروس مادة (النبل)

اما " السهم واحد النبل وهو مركب النصل والجمع اسهم وسهام "١ والنشاب بالضم النبل وبالفتح . متخذة ايضا . والمفرد منها بالهاء ٢. والنشاب يرمي به عن القسي الفارسية ٣

اما اقسام السهم فتسمي" مجري الوتر من السهم يسمي الفوق وحديده يسمي النصل والريش يسمي القذذ . والسهم قبل تركيب الريش يسمي القدح بكسر الدال المهملة " ٤

والنشاب علي انواع يذكر بعض انواعها المقريزي فيقول" قال ابن الطوير خزانة السلاح يدخل اليها الخليفة ويطوفها قبل جلوسه علي السرير هناك ويتامل حواصلها ... وفيها الأسنة البرصانية والقسي ... ويتامل النشاب وكانت نصوله مثلثه الأركان علي اختلافها .. ويرمي من كل سهم بين يديه فينظر كيف مجراة والنشاب الذي يقال له الجراد وطوله شبر يرمي به عن قسي في مجار معمولة برسمه .... وهي برسم الأستعمالات للأساطيل "٥ . يلفت نظرنا المقريزي لنوعين من النشاب . النوع الأول ذو النصول المثلثة الأركان والأخرى تدعي بالجراد قصيرة النصل وجميعها برسم الأستعمال للأساطيل . وقد استعمل العرب في معركة ذات الصواري سنة ٣٤ النشاب في قتال البيزنطيين . يقول المقريزي" فاقتتلوا بالنبل والنشاب "٦ .

وقد يستعمل النشاب كرسالة الي العدو فيها التهديد والوعيد او العفو والأحسان وقد استعمل السلطان صلاح الدين الأيوبي سنة ٥٧٩ في حصار مدينة آمد هذا النوع من السهام . يقول ابن الأثير " وامر صلاح الدين ان يكتب علي السهام الي اهل البلد يعدهم الخير والأحسان ان اطاعوه ويتهددهم ان قاتلوه " ٧.

ونجد ظاهرة جميلة ابتدعها الأمين في محاربة عسكر اخيه المأمون وذلك بأن يرميهم بنشاب من خالص الذهب يذكر ذلك الأستاذ كرد علي بقوله " واستعمل الملوك والأمراء النشاب للتسليه واظهار الشجاعه ومعرفة اساليب الرماية فاذا رموا اصبوا واذا افضلوا بالغوا وقد استعمل الأمين لقتال عساكر اخيه المأمون نصول النشاب من خالص الذهب ونقش عليها هذين البيتين .

ومن جودنا نرمي العداة باسهم   من الذهب الابريز صيغت نصولها
يداوي بها المجروح منها جراحه   ويشري بها الأكفان منها قتيلها"

واستعمل ذلك كثير من الملوك ومنهم السلطان احمد بن الملك الناصر بن محمد بن قلاون وكان يجلس كل يوم بين شراريف قلعة الكرك وهو محصور ويرمي سبعة سهام صيغت نصولها من فضة موطاة بذهب٨ ان هذا الكرم والتسامح في الحروب قلما يجده في هذه الأيام العصيبة من ان الأمين

---

١ - تاج العروس مادة "سهم" / ٢ - نفس المصدر مادة " نشب " / ٣ - صبحي الأعشي ج٢ ص ١٣٥

٤ - نفس المصدر ج٢ ص ١٣٥ / ٥ - الخطط ج١ ص٤١٧ / ٦ - نفس المصدر ج١ ص١٦٩ / ٧ - الكامل ج١١ ص٢٠٥

فبالرغم من ان الأمين كان يحارب جند اخيه المأمون الا ان نفسه الكريمة كانت تابي عليه ان يجرح دون ان يداوى او يقتل دون ان يواسي . فليعتبر اهل الغرب في هذه الأونه الحاضرة وليحافظوا علي طبيعتهم الأنسانية ويفكروا بأخوانهم المقتولين علي مذبح الأنانية المتعصبة والفردية البحتة .

الحمام الزاجل

لقد كثرت الأسماء التي تطلق علي هذا النوع من الحمام فبعضهم يسميه - حمام الهدى لأنه يهتدي الي المكان المرسل اليه واخرون يدعونه[٢] - حمام الرسائل - لأنه واسطة لنقل الرسائل والأخبار وغيرهم يلقبه - حمام البطاق - ٣ والبطاق مفردها بطاقة وهي كلمة يونانية معناها ورقة او رسالة وغير ذلك من الأسماء . ومهما اختلفت اسماء هذا الطير ، تعددت القابه ونعوته فهو يدل علي شئ ثابت معين وهو فكرة نقل الرسائل بواسطة هذا الحمام الذي يربي خاصة لهذا الغرض .

واستعمال هذا الطير معروف من اقدم الأزمان عرفه الرومان ٤ والفرس ٥ ونقله العرب الي الصين ٦ واوربا . يقول المعلم بطرس البستاني " علي ان المسيحيين لم يعرفوا هذه الرسل الا سنة ١٠٩٨ ميلادية لما حاصروا اورشليم وكان القائد العربي في قلعة الحصار بين انطاكية واورشليم يميل الي التسليم الي الصليبيين فخابر قومه بواسطة الحمام . وعند ذلك طار خبر الحمامة التي انقض عليها طير جارح فسقطت ميتة بين عساكر الصليبيين وهم يعطون سهول عكا فعرفوا مقاصد العرب بالأطلاع علي الرسالة التي وجدوها تحت جناحها " ٧ .

وقد اهتم العرب بصورة خاصة بهذا الطير وبتربيته لاسيما الخلفاء العباسيين " كالمهدي ثالث خلفاء بني العباس والواثق والناصر وتنافس فيه رؤساء الناس بالعراق . لاسيما بالبصرة ... وتنافسوا في اقتنائه ولهجوا بذكره ... وانه كان لا يمتنع الرجل الجليل ولا الفقيه ولا العدل من اتخاذ الحمام والمنافسة فيه والأخبار عنها والوصف لأثرها والنعت لمشهورها ... وانه كان عندهم دفاتر بانساب الحمام كانساب العرب ... وبالغوا في اثمانه حتي يبلغ ثمن الطائر الفاره منها سبعمائة دينار ويقال انه بلغ ثمن طائر منها جاء من خليج القسطنطينية الف دينار وكانت تباع بيضة الطائر المشهور بالفراهة بعشرين دينارا ... وكان الحمام عندهم متجرا من المتاجر لا يرون بذلك باسا " ٨ . وقد نشأ الحمام اولا في الموصل واقتبسه الخلفاء الفاطميون بمصر وبالغوا في الأعتناء به حتي افردوا له ديوانا وجرائد بانسابه ٩ . وقد اعتني به ايضا الشهيد نور الدين بن زنكي

---

١ - صبح الأعشي ج٢ ص٨٦ / ٢ - دائرة المعارف مادة "حمام" / ٣ - نفس المصدر / ٤ - الحضارة الأسلامية ج٢ ص٣٥٨ / ٥ - مقدمة ٦ / Chau-Jukua P.28 - ٦ نفس المصدر ص٢٨ / ٧ - دائرة المعارف مادة حمام " ٨ - صبح الأعشي ج٢ ص ٨٦ / ٩ - نفس المصدر ج٣ ص٨٢ .

صاحب الشام ونقله من الموصل سنة ٥٦٥ وشيد له ابراجا وخصص له نظارا يراقبون وصوله وصنع له قوارير من الذهب الرقيق جدا لتحفظ به الرسائل ويذكر ذلك المعلم بطرس البستاني فيقول " وبين سنة ١١٤٦ و ١١٧٣ فتح السلطان نور الدين اقاليم كثيرة ورأي انه لابد له من ان يقف علي اخبار سلطنته بالسرعة فرتب حمام البطاق ولاسيما في مصر وشيد لها في كل جهاتها ابراجا واقام لها نظارا وحراسا يراقبون وصولها نهارا ... وكان ينفق في هذا السبيل اموالا وافرة وكان كل برج يبعد عن الآخر ١٢ ميلا وعند حدوث امر ذي بال كان يعلق في عنق حمامة قارورة صغيرة من الذهب الرقيق جدا كالورق . داخلها رسالة ورقها رقيق جدا سمي ورق الطير كانوا يذكرون فيها تاريخ اليوم والساعة التي طارت فيها الحمامة وكانوا يطلقون حمامة اخري حاملة الخبر نفسه خوفا من فقدان الأولي وكان حارس كل برج يقيد ساعة وصول الحمامة الي برجه علي ظهر الرسالة . وكان اسم السلطان مكتوبا مكتوبا علي رجلي الحمامة ومنقارها . وكان اكثر هذا الحمام من حمام العراق المطوق العنق بالابيض لأنه يدجن سريعا ويتعلم في برهة قصيرة ... وكان رئيس الحرس وحده مفوضا بفك الرسالة من عنق الحمامة . وكان الحراس يراقبون الجو علي الدوام لئلا يمر الحمام وهم علي غير انتباه . وخربت الأبراج التي بناها ملوك مصر في سورية بالأهمال " ١

وكان النوع الجيد من هذا الحمام الذى يدعوه القلقشندي " الطائر الفاره " يقطع مسافات بعيدة ذكرت قبلا خبر طائر وصل من خليج القسطنطينية الي البصرة وهناك اخبار اخري نذكر منها ان طائرا وصل من تونس الي مصر . وطائرا آخر وصل من عبادان علي نحر بحر فارس الي الكوفة ٢

واستخدام هذا الطائر لم ينقطع طيلة ايام حكم العرب في مختلف الأقطار الأسلامية الا ان الحاجة كانت تشتد اليه في بعض الأحيان لاسيما في الظروف الصعبة . يذكر ميز عن دي غوية في بحثه عن القرامطة ٣ " ان مؤسس فرقة القرامطة في القرن الثالث الهجري كان اول من نظمه (حمام الزاجل) واستعمله علي صورة واسعة النطاق فجعل لنفسه من اول امره طيورا تحمل الأخبار من جميع النواحي له في مقره بالعراق ليستعين بذلك علي الصيدة والأخبار بالغيب " ٤

وقد لعب هذا الطائر زمن الحروب الصليبية دورا هاما في المواصلات بين الجيوش الأسلامية والأخبار التي تروي عن استخدامه كثيرة جدا اذكر بعضها من قبيل الأستشهاد فقط .

في حوادث سنة ٥٠٥ هـ يذكر ابن الأثير ما يلي " فارسل طغتكين طائرا فيه رقعة ليعلمه وصول المال ويأمره ان يقيم مركبا بمكان ذكره لتجيء الرجال اليه فسقط الطائر علي مركب الفرنج فأخذه رجلان مسلم وافرنجي فقال الفرنجي نطلقه لعل فيه فرجا لهم فلم يمكنه المسلم وحمله الي الملك بغدوين

---

١ - دائرة المعارف مادة " حمام " / ٢ - صبح الأعشي ج ٢ ص ٨٦ / ٣ - De Goeje, Mem. sur les Carmathes P. 207
٤ - الحضارة الأسلامية ج ٢ ص ٣٥٨ هـ ٣٥٩

فلما وقف عليه سير مركبا الي المكان الذي ذكره طغتكين "ـ ١ من هذا النص نري ان الطائر لم يكن اداة أمينة في المخابرات اذ انه كثيرا ما يضيع او يصاد او يتعب فينزل في امكنة العدو ويطلعهم علي بعض الأسرار الهامة . ولذلك كثيرا ما كان المسلمون يرسلون طائرين في حالة الأخبار الهامة حتي اذا وقع احدهما او أخطأ الهدف المرسل اليه يصل الطائر الآخر .

وقد استخدم المسلمون هذا الطائر في حصار عكا لأننا نعلم ان الصليبيين كانوا محيطين بمدينة عكا من جميع جهاتها وقاطعين المواصلات بين السلطان صلاح الدين واهالي عكا . فكان هذا الطائر خير رسول ما بين الطرفين . يقول ابن شداد " هذا والكتب متواصلة من عكا ومنا اليها علي اجنحة الطيور وايدي السباح والمراكب اللطاف تخرج ليلا وتدخل سرقة من العدو" ٢ ويقول ايضا في سنة ٥٨٦ "وصل كتاب طائر في طي كتاب وصل من حماه قد طار به الطائر من حلب... " ٣ هذا النص يدلنا علي اتساع شبكة المواصلات بواسطة الحمام بين البلدان في ذاك الزمن . وعند حصار الفرنج لدمياط سنة ٦٤٧ كانت المواصلات بين القاهرة والمحصورين علي اتصال دائم بواسطة رسائل الحمام الزاجل . وكانت هذه الرسائل ذات تأثير فعال علي نفوس الحكام والسكان وهي تتراوح ما بين الأستبشار والفزع حسب ما يأتي به الطائر الي القاهرة . يقول المقريزي " وكانت البطاقة عند الكبسة سرحت علي جناح الطائر الي القاهرة فانزعج الناس انزعاجا عظيما وورد السوقة وبعض العسكر ولم تغلق ابواب القاهرة ليلة الأربعاء . وفي يوم الأربعاء سقط الطائر بالبشارة بهزيمة الفرنج وعدة من قتل منهم فزينت القاهرة وضربت البشائر بقلعة الجبل وسار المعظم توران شاه الي دمشق فدخلها يوم السبت آخر شهر رمضان واستولي علي من بها . ولأربع مضين من شوال سقط الطائر بوصوله الي دمشق فضربت البشائر في العسكر بالمنصورة " ٤ . وقد استخدم الحمام الزاجل في الملاحة البحرية منذ اقدم الأزمان استخدمه اهل الهند والصين وفارس والعرب في مراكبهم . استخدموه بشيرا يطمئن الأهل والأصحاب بالوصول بالسلامة . واستخدمه العرب اداة للأطلاع علي الحركات العسكرية والمناورات البحرية للعدو ولدينا نصوص تؤيد هذا الأمر . كان البحارة الهنديون يصحبون في مراكبهم الحمام الزاجل وقد وجد ذكر ذلك في مصادر بوذية يعود تاريخها الي القرن الخامس قبل الميلاد يقول المؤلف الهندي باللسان البوذي ٥ :- "في الأيام القديمة كان تجار البحر عندما يبحرون في عرض

---

١ ـ الكامل ج١٠ ص ١٨٥ و ج ١١ ص ٤٩ / ٢ ـ سيرة صلاح الدين ص٩٤ و ص٩٨ / ٣ ـ نفس المصدر ص١٠٤

٤ ـ الخطط ج١ ص ٢٢١ / ٥ ـ The Kevaddha Sutta of the Digha Nikaya

البحر الخضم يصحبون معهم علي ظهر المركب حماما زاجلا . وعندها يتمكنون من السفر في جميع الجهات ... ويطلقون هذا الحمام عند الحاجة فيرتفع في الأفق حتي اذا نظر الأرض تابع طيرانه واذا لم يشاهدها انحط عائدا الي المركب " ١ ويعلق الناشرين لكتاب Chau-Ju-Kua انه من المحتمل ان يكون حمام الزاجل ادخل الي الصين بواسطة تجار من الهنود او العرب

هذا النص يدلنا علي ان الحمام كان يساعد ربان المركب في معرفة جهة البر وقربه من البر او بعده عنه . فان هذا الطير ان رأي اليابسة اتجه نحوها عائدا الي عشه والا عاد الي المركب معلما سكانه انهم بعيدون عن القارة . ونستدل ايضا ان لتجار الهند او العرب يدا في ايصال هذا النوع من الحمام الي الصين . ولا يعين الكاتبين (هرث . و ووكهيل) اي الصينيين قام بهذا العمل اولا وكان السابق اليه وانما يقولان ان اول كاتب صيني ذكر ذلك الأمر هو Chang Kin-ling الذي ولد سنة ٦٧٣ م .

وبعد ذلك نجد في المصادر الصينية بان العادة جرت في المراكب التي تبعد عن الشاطئ في ابحارها ان تحفظ معها حماما . يرسلون بواسطته رسائل الي الشاطئ " ٢

وقد استخدم الفرس في القرن التاسع هذا النوع من الحمام في مراكبهم يقول " Tuan في كتابه Ch'ong Fu-li في القرن التاسع انه يوجد علي مراكب الفرس التي تمخر عباب البحر كثير من الحمام الذي يستطيع ان يطير بضعة الآف " لي " li (مقياس للمسافة) واذا اطلق طار عائدا الي بلاده رسولا يحمل احسن الأخبار " ٣

ومما لاشك فيه ان العرب استخدموا هذا الطائر في مراكبهم من اقدم الأزمان ولكن ليس لدى نصوص تعين بالضبط الزمن الذي بدؤا به استخدامه في الملاحة البحرية . وقد رأينا سابقا بعض الروايات الصينية تشير الي ان لهم معرفة لهذا الطير وانهم والهنود ادخلوه الي بلاد الصين . وفي الزمن المتأخر استخدموه في مراكبهم يقول ابن الأثير في حوادث سنة ٥٤٣ مايلي " فاغتنم رجار هذه السنة فعمر الأسطول واكثر منه فبلغ نحو مائتين وخمسين شينيا ... وسار الأسطول عن صقلية ووصل الي جزيرة قوصرة وهي ما بين المهدية وصقليا فصدفوا بها مركبا وصل من المهدية فأخذ اهله واحضروا بين يدي جرجي مقدم الأسطول فسألهم عن حال أفريقية . ووجد في المركب قفص حمام فسألهم هل ارسلوا منها فحلفوا بالله انهم لم يرسلوا شيئا فامر الرجل الذي كان الحمام صحبته ان يكتب بخطه اننا لما وصلنا جزيرة قوصرة وجدنا بها مراكب

---

١ ـ هامش مقدمة كتاب Chau-Ju-Kua P28 / ٢ ـ نفس المصدر ص٢٨ ينقل عن كتاب Yu-Yang-tsa tsu مؤلفه Tuan Ch'ong-shi توفي حوالي سنة ٨٦٣ م . كذلك صفحة ٣٣ من المصدر نفسه .

٣ ـ نفس المصدر ص٢٨ والحضارة الأسلامية ج٢ ص٣٦٥ .

من صقلية فسألناهم عن الأسطول المخذول فذكروا انه اقلع الي جزائر القسطنطينية واطلق على الحمام فوصل الي المهدية فسر الأمير الحسن والناس واراد جرجي بذلك أن يصل بغتة ." ١

هذا النص يبين تماما الي ان العرب كانوا يحفظون اقفاص حمام الزاجل في مراكبهم ويستعينون به للمخابرات وايصال الحوادث وهناك اشارة اخري في كتاب الكامل نفسه تبين ذلك ٢

ولا يعني التوسع في هذا البحث اكثر من ذلك اذ ان ما كتب عن حمام الزاجل وصفاته وعدد ريش جناحيه وذنبه واسمائها والفرق بين الذكر والأنثي منه والفراسة في الطائر الفاره من حال صغره قبل طيرانه وبيان الزمان والمكان اللائقين بالأفراخ والمسافة التي يقطعها هذا الطير يستغرق فصلا كاملا عند القلقشندي ما بين صفحة ٨٦ _ ٩٤ فمن احب التوسع في ذلك فاليرجع اليه .

وقد الف بعض المصنفون العرب في القديم كتبا خاصة عن هذا الحمام اذكر منها كتاب ابو الحسن بن ملاعب القواس البغدادي وضع كتابا للناصر لدين الله العباسي . _ وكتاب القاضي محي الدين بن عبد الله الظاهر صنف كتابا سماه " تمائم الحمائم " والكتابين يذكرهم القلقشندي وهما غير مطبوعين . ٣

ولا يزال الحمام مستعملا حتي يومنا هذا بالرغم من ارتقاء طرق المخابرات. ويستعمل الآن غالبا في المخابرات العسكرية عند انقطاع اسلاك الهاتف الا ان استعماله قل كثيرا .

ومن طرق المخابرات التي استخدمها العرب ايضا النار في الليل والدخان في النهار وسأتكلم عن ذلك مختصرا لشدة علاقتها بحفظ السواحل وخفرها من هجوم مراكب العدو .

نار المخابرات

ان استخدام النار للمخابرات قديم . وكان معروف عند البيزنطيين ثم انتقل الي البلاد الأسلامية التي كانت خاضعة لحكم أولئك القوم . وقد استخدمت بصورة حسنة في القرن الثالث الهجري علي الساحل الأفريقي الشمالي . اذ ان الرسائل كانت تصل من الأسكندرية الي سبتة في ليلة واحدة ومن طرابلس الي الأسكندرية في ثلاث ساعات الي اربع . ثم بطل استعمالها في سنة ٤٤٠ هـ ١٠٤٨ م عند ما ثار المغرب علي الفاطميين ولم يعد في امكانهم حماية الحصون من العدو ٤

وعند مجئ الصليبيين لهذه البلاد ازدادت الحاجة لهذه النار اذ ان هؤلاء القوم كانوا يطرقون السواحل الشامية والمصرية وينهبون المدن والقري ويلتجئون الي جزيرة قبرص احيانا او انهم ينزلون في الشواطئ ويقاتلون اهل البلاد . لذلك اضطر السلاطين الي تعهد منائر في رؤوس الجبال وفي

---

١ _ الكامل ج١١ ص٥١ / ٢ _ نفس المصدر ج ١١ ص٤٩ / ٣ _ صبح الأعشي ج٢ ص٨٧ / ٤ _ الحضارة الأسلامية ج٢ ص٣٥٧ اخذها عن المركشي ص٢٩٩ =.

الأماكن المرتفعة ليصلوا السواحل مع المراكز الداخلية ليعلموا السلاطين بما يحدث من طوارئ علي السواحل. ولما كان الطائر لا يستخدم الا نهارا كانت المخابرات الليلية غالبا ما تكون بوساطة النيران يقول صالح بن يحي في سنة ٦٩٣ " وقرروا ايضا نارا تصل الي دمشق في ليلة فكانوا من ظاهر بيروت يصلوها فتجاوبها نار في رأس بيروت العتيقة. ومنه الي جبل بوارش ومنه الي جبل بيوس ومنه الي جبل الصالحية ومنه الي قلعة دمشق. والنار للحوادث في الليل وحمام البطاق للحوادث في النهار والبريد للأخبار " ١ ويقول ايضا " فصلوا النار ليلا اشارة لوصول الفرنج الي بيروت فوصلت النار بالعدويج في تلك الليلة الي دمشق " ٢

وقد يستعمل الدخان في النهار وينوب مناب النيران في الليل وتكون المخابرات بوساطة اشارات متفق عليها. وقد ارصد في كل منار النظارة والموظفون لرؤية ما يحدث من الأشارات والمخابرات. وكل موظف يري النار من برج يعطي الأشارة للبرج الذي خلفه وهكذا بالتسلسل حتي يصل الخبر الي السلطان. فكان ما يحدث عشاء بالفرات يعلم به السلطان بكرة في مصر٣ وهكذا كانت الأخبار متصلة ما بين اطراف المملكة الأسلامية اما عن طريق النار او الدخان او الطير الزاجل او البريد.

ونلاحظ ان النار والدخان شبيهان جدا بما يسمي النجوم المورس وهو ارسال الكلام بطريق الأشارة مهما كان نوعها سواء بالصوت او النور او اي اشارة اخري وطريقة - المورس- تستعمل في هذه الأيام بالبواخر للمخابرات. فهل كانت طريقة النار تستعمل ايضا بالمراكب ؟

ليس لدي نصوص تبين ذلك ولكن ما يمكن ان اقوله هو انه لعل ذلك حدث. ولا أبت في الأمر حتي تظهر ادلة خطية تبين ذلك.

ومن معدات المراكب ايضا الأعلام

الأعلام

يقول القلقشندي " الأعلام هي الرايات ومن شعار الملك القديمة وقد ورد ان النبي صلي الله عليه وسلم كان يعقد لأمراء سراياه الرايات عند بعثها ثم قد يعبر بعضها بالعصائب جمع عصابة وهي الألوية. أخذ من عصابة الرأس. لأن الراية تعصب رأس الرمح من اعلاه. وقد يعبر عنها بالسناجق جمع سنجق.. والسنجق باللغة التركية معناه الطعن سميت الراية بذلك لأنها تكون في اعلي الرمح. والرمح هو آلة الطعن يسمي بذلك مجازا " ٤.

---

١ - تاريخ بيروت ص ٤٠ / ٢ - المصدر نفسه ص٣٦ / ٣ - خطط الشام ج٥ ص ١٩ / ٤ - صبح الأعشي ج ٣ ص١٢٧ - ١٢٨ .

أوردت قول القلقشندي المتقدم لنتعرف علي الأسماء المختلفة للرايات والبنود وكيفية تطور أسمائها مع الزمن .

وليس مرادي في الكلام عن العلم ان أؤرخ تاريخ العلم في الدول الأسلامية وما اتخذته كل دولة من الأعلام والبنود . ولا أن أصف كيفية عقد اللواء للقواد وامراء البحر ولا ان أصف تأثير العلم في نفوس المحاربين وتمسكهم بعلمهم زمن القرون الوسطي وتفانيهم في الزود عنه وحمايته . ولا أريد ان اعدد انواع الرايات واسماء مشاهيرها التي كانت عند العرب ولا ان اصف الوانها واشكالها والزخارف والكتابات التي كانت تنقش عليها ..... لا اريد ان اتعرض لذلك لأن هذا البحث لادخل له في الأسطول . وانما يتعلق بتاريخ العلم في الجيوش الأسلامية عامة ولست الآن أبحث عن ذلك . وانما الذى اريد ان ابينه هو ان العرب استخدموا الأعلام في مراكبهم واساطيلهم . واني آسف جد الأسف علي ان النصوص التي بين يدي قليلة جدا فيما يتعلق بالأسطول واظن ان تلك الأعلام كانت شبيهة باعلام الجيوش البرية ان لم تكن نفسها . فالمقاتلون الذين كانوا ينقلون بالمراكب لفتح بعض الجزر والبلاد الساحلية كانوا يصحبون أعلامهم معهم ويرفعونها لتخفق في قمة الصواري واعالي الأبراج . وفي الأمكنة المشرفة . يدلنا علي ذلك ما كان يفعله الصليبيون عند غزو السواحل السورية والمصرية ، يقول ابن شداد " وكان اول شاني القي من فيه بالبر شانيه (ملك الانكتار) وكان احمر وفرشته حمراء وبيرقه احمر " ١ ويقول صالح بن يحي " فقصدت الشواني الي البر ونزل منهم شرذمة كبيرة وعليهم مقدم من كبرائهم وبيده سنجق وصعدوا في الجونة الي جهة الخرائب لينصبوا السنجق علي علوة امارة منهم انهم ملكوا البلد ... فهجم من المسلمين شرذمة مع الوالد علي الذي معهم السنجق فقهروهم ورموا السنجق فلما نظرت الفرنج الي وقوع السنجق وقف عزمهم ووقعت قلوب المسلمين . " ٢ . هذان النصان يشيران الي ان الصليبيين كانوا يصحبون اعلامهم معهم . وعندما ينزلون الي البر يرفعونها علي الحصون والأسوار كدليل علي استيلائهم عليها . ويشير النص الأخير الي التأثير الكبير الذي كان للعلم في القرون الوسطي . اذ أنه عندما يرفع العلم علي مكان يستدلون منه علي وقوع هذا المكان بأيديهم .

يقول ابن شداد عند مجئ ملك الانكتار لنجدة الفرنج اهل يافا وتخليصها من جيش صلاح الدين ما يلي " وكان سبب انقطاع النجدة انهم رأوا البلد مشحونا ببيارق المسلمين

---

١ - سيرة صلاح الدين ص ١٨٤ / ٢ - تاريخ بيروت ص ٣٦ /

ورجالهم فخافوا ان تكون القلعة قد اخذت " ١ فوجود اعلام المسلمين في البلد اوقفت نجدات الصليبين ودلتهم علي سقوط البلد .

وقد تغيرت اشكال الرايات والوانها في الدول الأسلامية فاتخذت كل دولة شعارا ولونا خاصا بها . واظن ان الأعلام المستعملة في الأساطيل كان لونها بلون اعلام الدولة التابعة لها . وقد لخص زيدان الوان الرايات في الجاهلية عند العرب ووصفها حتي زمن العثمانين . فقال" لانعرف ما كانت الوان الرايات في الجاهلية سوى راية العقاب فقد كانت سوداء وكذلك كانت راية النبي . وذكر صاحب آثار الأول انه كانت له ايضا الوية بيضاء اما الرايات الأسلامية فقد كانت الوانها تختلف باختلاف الدول . فكانت اعلام بني امية حمراء. وكل من دعا الي الدولة العلوية فعلمه ابيض ومن دعا الي بني العباس فعلمه اسود والسواد شعار العباسيين علي الأطلاق اتخذوه حزنا علي شهدائهم من بني هاشم ونعيا علي بني امية في قتلهم ولهذا سموا المسودة . ولما افترق الهاشميون وخرج الطالبين علي العباسين في كل جهة وعصر ذهبوا الي مخالفتهم في ذلك فاتخذوا الرايات بيضاء . وسموا المبيضة . والظاهر ان شعار دعاة بني هاشم من الشيعة كان الخضرة لأن المامون لما بايع لعلي بن موسي بولاية العهد امر جنده بطرح السواد ولبس الثياب الخضر حتي اذا رجع عن البيعة عاد الي السواد . واما ملوك البربر في المغرب من صنهاجة وغيرهم فلم يختصوا في راياتهم بلون واحد بل وشوها بالذهب واتخذوها من الحرير الخالص ملونة ... واما دول الأتراك في المشرق فكانوا يتخذون راية واحدة للسلطان في رأسها خصلة كبيرة من الشعر يسمونها (الشالش) و (الجتر) وهي من شعار السلطان عندهم . ثم تعددت الرايات ويسمونها -سناجق- واحدها سنجق . وهي الراية في لسانهم " ٢

فزيدان بين في هذا النص ان لون العقاب في زمن الجاهلية كان اسود . وان النبي اتخذ رايات سوداء وبيضاء والأمويين حمراء . والعلويين والطالبين اعلامهم بيضاء .والعباسيين سوداء والهاشميين خضراء . ورايات البربر مختلفة الالوان وهي متخذة من الحرير الموشي بالذهب. اما رايات المماليك فتتميز بالشالش والجتر في اعلاها .

هذه هي الوان الأعلام في الدول الأسلامية وقد اعتني الفاطميون بالأعلام لما كان لها من اهمية عظيمة في احتفالاتهم واعيادهم . لذلك اسوا لها دارا دعوها خزانة البنود كانوا يخزنون بها اعلامهم ورايتهم وكانوا ينفقون عليها (٨٠) الف دينار كل سنة . ٣

١- سيرة صلاح الدين ص١٨٤ / ٢- التمدن ج١ ص ١٦٦ - ١٦٧ / ٣- نفس المصدر ج١ ص١٦٨

بعد هذه اللمحة الموجزة عن الوان الأعلام . نذكر بعض النصوص التي تدل علي ان العرب استخدموا الأعلام في مراكبهم يقول المقريزي في وصف الأسطول الذي بعثه السلطان بيبرس لفتح قبرس سنة ٦٦٩ مايلي " وقد عمل ابن حسون رئيس الشواني في اعلامها الصلبان يريد بذلك انها تخفي اذا عبرت البحر علي الأفرنج حتي تطرقهم علي غفلة فكره الناس منه ذلك " ١ . فابن حسون اضاف لأعلام الشواني الأسلامية الصلبان ليخدع بها اهالي قبرس ويأخذهم علي حين غرة مما يدلنا علي ان اعلام الفرنج من اهالي قبرس كانت مزدانة بالصلبان .

ويقول ابن اياس في حوادث سنة ٩١٤ " حضر المراكب الغربة عدتهم ستة ...وقد زينوا بالصناجق والشاقات ودقت فيهم الطبول وزعقت الزمور واجتمع هناك الناس افواجا افواجا " ٢ ويقول ايضا في كلامه عن الغليون الذى بناه قانصوه الغوري في بولاق ما يلي " فلما كمل زينوه بالصناجق والطوارق والمكاحل " ٣

اذن فالأعلام كانت مستعملة في الأسطول عند العرب والأفرنج وكانت اهميتها في البحر لا تقل عنها في الجيش البري .

الفانوس

يقول القلقشندي " فانوس جمعها فوانيس وهي آلة كرية ذات اضلاع من حديد مغشاة بخرقة من رقيق الكتان الصافي البياض يتخذ للاستضاءة بغرز الـ ////// الشمعة في اسفل باطنه فيشف عن ضوئها ومن شأنها ان يحمل منها اثنان . اما السلطان او الأمير في السفر في الليل " ٤ . اذن فالفانوس ليس اداة للضياء فحسب بل هو شارة من شارات الأمارة والسلطنة يرفعه السلطان او الأمير في الليل ليهتدي القوم بنوره في دجي الليل الحالك والظلام الدامس

وقد استخدم الفانوس في الأسطول للدلالة علي الأمارة والقيادة ايضا . يعطيه الخليفة او السلطان لأمير البحر عند توديعه قبل ارساله للغزو والفتح فيرفعه امير البحر علي صاري مركبه ليستضئ بقية العسكر بنوره ويأخذون الأوامر والتعاليم من عنده فيقلعون عند اقلاعه ويرسون عند ارسائه وقد اشار المقريزي لذلك بقوله " ويعين من هؤلاء القواد المقدم من يقع الأجماع عليه لرياسة الأسطول المتوجه للغزو فيكون معه الفانوس وكلهم يهتدون به ويقلعون باقلاعه ويرسون بارسائه " ٥

---

١ - الخطط ج٣ ص١٩٤ / ٢ - بدائع الزهور ج٤ص ١٤٢ / ٣ - نفس المصدر ج٤ ص٢١٦ /

٤ - صبح الأعشي ج٢ ص ١٣٠ / ٥ - الخطط ج١ ص٤٨٢ .

الأبراج

يقول الزبيدي " البرج بالضم الركن والحصن والجمع ابراج وبروج ... وانما قيل للبروج بروج لظهورها وبيانها وارتفاعها . والبارج الملاح الفاره " ١

وقد استعيرت كلمة ابراج فيما بعد للأبنية الخشبية التي تعمر علي ظهر المراكب ليقف عليها المحاربون ويقاتلون منها الأعداء الذين علي اسوار القلاع او في اي مكان آخر يقول ابن الأثير في كلامه عن حصار الأفرنج لدمياط سنة ٦١٥ ما يلي " وعملوا الآت ومرمات وابراجا يزحفون بها في المراكب الي هذا البرج ليقاتلوه ويملكوه " ٢

والأبراج موجودة في شون المسلمين وبطس الأفرنج نستدل علي ذلك من قول المقريزي يقول عن الشون الأسلامية " فبرزت الشواني واحدة بعد واحدة وقد عمل في كل شونة برج وقلعة تحاصر والقتال عليها ملح والنفط يرمي عليها وعدة من النقابين في اعمال الحيلة في النقب وما منهم الا من اظهر في شونته عملا معجبا وصناعة غريبة يفوق بها علي صاحبه " ٣ .

اما الأبراج الموجودة في البطس الأفرنجية فتتجلي من عبارة المقريزي عند حصار الفرنج لدمياط يقول " وفي مدة اقامة الفرنج بهذا البر الغربي عملوا الآلات والمراسي واقاموا ابراجا يزحفون بها في المراكب الي برج السلسلة ليملكوه ... وكان هذا البرج مشحونا بالمقاتلة فتحيل الفرنج عليه وعملوا برجا من الصواري علي بطسة كبيرة واقلعوا بها حتي اسندوها اليه وقاتلوا من به حتي اخذوه " ٤ وقد اخترع الفرنج في حصار عكا برجا له خرطوم حاولوا بواسطته الأستيلاء علي برج الذباب يقول ابن شداد " واعدوا في البحر بطسة هائلة وصنعوا فيها برجا بخرطوم اذا ارادوا قلبه علي السور انقلبت بالحركات ويبقي طريقا الي المكان الذي ينقلب عليه تمشي عليه المقاتلة وعزموا علي تقريبه الي برج الذباب ليأخذوه به " ٥

وكثيرا ما كانت هذه الأبراج محاطة بالجلود المسقاة بالخل او المطلية بالطين والأدوية التي تمنع النار من احراقها . ٦ .

القلاع

يقول البستاني " القلعة جمعها قلع بالضم وقلاع وقلوع وهي الحصن الممتنع " ٧ وقد استعيرت

---

١ - تاج العروس مادة " برج " / ٢ - الكامل ج ١٢ ص ١٣٣ / ٣ - الخطط ج ٢ ص ١٩٥ / ٤ - نفس المصدر ج ٢ ص ٢١٥ - ٢١٦ / ٥ - سيرة صلاح الدين ص ١٠٣ / ٦ - الكامل ج ١٢ ص ١٩ / ٧ - المحيط مادة " قلع "

هذه الكلمة فيما بعد لأمكنة خشبية تكون في المركب يتحصن بها المقاتلون من سهام الأعداء ويرمون منها النبال والنفط ١ وقد ذكر برنيمي ان في الغونة Galley قلاعا مرتفعة يرمي الجند منها السهام وتكون في نهايتي المركب ٢ .

العواييت

يقول دوزي " العابوت او Hune هو سطح فوق الصاري " ٣ ويصفها البرقوقي بقوله هي صناديق كبيرة مفتوحة من اعلاها يصعد اليها الرجال قبل استقبال العدو فيقيمون فيها للأستكشاف ومعهم حجارة صغيرة في مخلاة معلقة بجانب الصندوق فيرمون العدو بها وهم مختفون في هذه الصناديق ومعهم عدا الحجارة قوارير النفط وجرار النورة ... وهم يرمونهم ايضا بقدور الحياة والعقارب وبقدور الصابون اللين كي يزلقوا اقدامهم " ٤

ويذكر برنيمي هذه العواييت باسم Circular box ويقول انها تستوعب في داخلها عدة اشخاص واكثر ما يكون ستة فقط وذلك في اكبر انواعها وظيفتهم صب الأحجار والآجر وقضبان الحديد من الأسفل وقذفها على السفن المعادية لثقبها واغراقها ٥ . ويقول ابن شداد عند الكلام عن حصار الفرنج لبرج الذباب في عكا سنة ٥٨٦ مايلي " فجعلوا على صواري البطس برجا وملأوه حطبا على أنهم يسيرون البطس فاذا قاربت برج الذباب ولاصقته احرقوا البرج الذي على الصاري والصقوه ببرج الذباب ليلقوه على سطحه ويقتل من عليه من المقاتلة " ٦ اطلق ابن شداد كلمة برج في هذا النص المتقدم على ما سميناه العابوت لأنه ليس من المعقول ان يكون البرج – وقد عرفنا وصفه – فوق الصاري وكيف يمكن القاء برج مملؤ بالحطب فوق سطح برج آخر . والمرجح ان الفرنج عمروا تابوتا فوق الصاري واملأوه حطبا وارادوا احراق برج الذباب بواسطته .

الأسطام واللجام

يصف البرقوقي وزيدان هاتين الأداتين بقولهما اللجام اداة في مقدم المركب كالفاس او " هي حديدة طويلة محدودة الرأس واسفلها مجوف كسنان الرمح يدخل من اسفلها في خشبة كالقناة بارزة في مقدم المركب يقال لها الأسطام فيصير اللجام كانه سنان رمح .

---

١ - الخطط ج ٢ ص ١٩٥ ؛ النظم الأسلامية ص ٢٥٣ / ٢ - Naval. Ps. 11, 13.

٣ - ملحق دوزي مادة "تابوت" / ٤ - حضارة العرب ص ١٧١ والعدد ج ١ ص ٣٠٠ / ٥ - Naval P. 11

٦ - سيرة صلاح الدين ص ١٠٠ - ١٠١ .

بارز في مقدمة المركب فيطعنون به مراكب العدو فلا يلبث حتي ينخرق فينصب فيه الماء" ١
ويذكر بيرنيمي الأسطام عند وصف ال Galley ويسميه ب Spur ويقول انه حديدة رفيعة
ترتكز في مقدم السفينة تثقب به سفن الأعداء " ٢ . ولم اعثر في قراءتي عن الأسطول ورود
هاتين الكلمتين في المصادر القديمة واستخدامهما في المراكب ولا اعلم من اين اخذهما زيدان
والبرقوقي اذ انهما لا يشيران الي المصادر التي ينقلان عنها .

الحبال

انتقلت كلمة حبل الي لغات اوربية عديدة يقول لامنس" ان كلمة Câble الأفرنسية
و Cable الأسبانية و Cabre البرتغالية و Chable في الأفرنسية القديمة آتية
من كلمة حبل العربية " ٣ ويقول V. Kremer " ان الأسطول العربي في العصور القديمة
كان نموذجا من وجوه عديدة لأساطيل البلاد المسيحية تدل علي ذلك من ان كلمات عربية
بحرية كثيرة قد حفظت في لغات جنوب اوربا مثل Cable آتية من الكلمة العربية حبل ٤

والحبل قديم الأستعمال عند الأمم وهو اداة ضرورية في الملاحة البحرية ولا يستغني عنه
مطلقا في الأسطول ولست الآن معولا علي ذكر منافعه لأنها كثيرة لاتنحصر في المراكب فحسب بل
تتعلق بالمراكب عامة لذلك اكتفي بذكر بعض الملاحظات فقط .

يستعمل الحبل بربط مراكب الأعداء وجرها لطرف خصمه واسر من في المركب كما يذكر
المقريزي من اخبار سنة ١٩٩ هـ يقول " ثم عاد فدعاهم الي الصلح ولاطف السري فخرج اليه في
زلاج وخرج الجروي في مثله فالتقيا في وسط النيل مقابل سندفا وقد اعد الجروي في باطن
زلاجه الحبال وامر اصحابه بسرعتها اذا لصق بزلاج السري ان يجروا الحبال اليهم فلصق الجروي
بزلاج السري فربطه في زلاجه وجر الحبال واسر السري ومضي به الي تنيس فسجنه بها " ٥

ويستعمل الحبل لجذب المنجنيق حتي ينحط اعلاه ٦ ويستعمل في الأشرعة لنشرها وطيها .
ويستعمل نوع من الحبال يدعي القنباري وهو قشر جوز النارجيل يدرسون الي ان يتخيط ويفتلون
منه امراسا يخيطون بها المراكب.... والقنباري هذا مجلوب من الهند واليمن " ٧

وعدا عن ذلك فالحبال تستعمل للربط والجر والتعلق وامور اخري كثيرة . والحبل يصنع
من الياف القنب والكتان وجلود البقر ومن ورق الهودي وصف النخل ومن الياف نباتات كثيرة

١/ السلوك ج ١ ص ٢٠١ وحضارة العرب ص ١٧١ - ١٧٢ / ٢ - Naval P II / ٣ - ملاحظات
لامنس ص ٩٢ / ٤ - The Orient P 362 / ٥ - الخطط ج ١ ص ١٧٨ / ٦ - صبح الأعشي
ج ٢ ص ١٣٧ / ٧ - رحلة ابن جبير ص ٤١ /

يذكرها المعلم بطرس البستاني في دائرة معارفه ١ . وقد ذكر ابن حوقل صنع حبال المراكب من البربير في مدينة بلرم من جزيرة صقلية فقال " وفي خلال اراضيها بقاع قد غلب عليها البربير وهو البردي المعمول منه الطوامير ولا اعلم لما بمصر من هذا البربير نظير علي وجه الارض الا ما بصقلية منه واكثره يفتل حبالا لمراسي المراكب واقله يعمل للسلطان منه طوامير القراطيس "٢ وعندما يذكر ماركو بولو السفن الصينية يقول " ولا يستعملون حبال القنب الا من اجل الصواري والأشرعة ولديهم قصب بطول ١٥ خطوة يشقونه علي طوله قطعا رفيعة ويضفرون هذه القطع بعضها مع بعض ويشكلون منها حبالا بطول ٣٠٠ خطوة . ويصنعونها بمهارة لدرجة انها تكون بقوة الحبال المصنوعة من القنب " ٣ .لقد ذكرت استخدام حبال القنبر في بحر القلزم لخياطة الجلاب والآن اذكر ما قاله ابن بطوطة في كيفية صنع هذا النوع من الحبال يقول " القنبر (بفتح القاف وسكون النون وفتح الباء الموحد والراء) وهو ليف جوز النارجيل وهم يدبغونه في حفر علي الساحل ثم يضربونه بالمرازب. ثم يغزله النساء وتصنع منه الحبال لخياطة المراكب وتحمل الي الصين والهند واليمن وهو خير من القنب . وبهذه الحبال تخاط مراكب الهند واليمن لأن ذلك البحر كثير الحجارة فان كان المركب مسمرا بالمسامير الحديد صدم الحجارة فانكسر واذا كان مخيطا بالحبال اعطي الرطوبه فلم ينكسر " ٤ . هذه لمحة بسيطة عن الحبال وانواعها والآن انتقل الي ذكر الكلاليب والسلاسل

الكلاليب والسلاسل

يقول زيدان عن الكلاليب " اما الكلاليب فقاعدتها انهم اذا دنوا من مركب العدو القوا الكلاليب عليه فيوقفونه ثم يجذبونه اليهم ويرمون عليه الألواح كالجسر ويدخلون اليه ويقاتلون وان كان العدو قويا ابطل فعل الكلاليب بفاس ثقيل من فولاذ يضربون به تلك الكلاليب فتنقطع " ٥ واستخدام السلاسل شبيه بما ذكر زيدان عن الكلاليب اذ أننا نري ان العرب استخدموا السلاسل في معركة ذا الصواري سنة ٣٤ هـ لنفس الغرض يقول المقريزي "... وربطوا المراكب بعضها ببعض يقتلون بالسيوف... وكانت السفن اذ ذاك تقرن بالسلاسل عند القتال. قال فقرن مركب عبد الله بن ابي سعد بن ابي سرح يومئذ وهو الأمير بمركب من مراكب العدو فكان مركب العدو يجتر مركب عبد الله اليهم فقام علقمة بن يزيد القطيفي وكان مع عبد الله بن سعد في المركب فضرب السلسلة بسيفه فقطعها " ٦ فالسلاسل والكلاليب اذن هي ادوات متممة بعضها لبعض تستخدم لجر مراكب الأعداء

---

١ ـ دائرة المعارف مادة " حبل " / ٢ ـ صورة الأرض ج ١ ص ١٢٢ / ٣ ـ رحلة ماركو بولو ص ٢٢٧

٤ ـ رحلة ابن بطوطة ج ٢ ص ١٥٠ / ٥ ـ التمدن ج ١ ص ٢٠١ و ٦ ـ الخطط ج ١ ص ١٦٩

Nawal, P. 11

لتقربها منهم وتاخذ من فيها اسري.

وقد استخدمت السلاسل في اغراض اخري متعلقة بالأسطول منها انها توضع في فم الأنهار والمضايق والخلجان لتمنع دخول مراكب العدو الي داخل النهر او المضيق او الخليج كما فعل البيزنطيون سنة ٧١٦ - ٧١٧ عندما وضعوا السلاسل في وجه سفن العرب ليمنعوها من الوصول الي القسطنطينية ١ . قال ابن خرداذبة " وعلي خليج القسطنطينية صخرة عليها برج فيه سلسلة تمنع سفن المسلمين من دخول الخليج " ٢ وقد استخدم المسلمون هذه الطريقة وطبقوها في مرافئهم ليصدوا بها سفن الصليبيين عندما جاءوا للاستيلاء علي سوريا ومصر . يذكر ابن حوقل وجود سلسلة في بحر الخزر عند مدينة باب الأبواب يقول " ومدينة باب الأبواب علي بحر الخزر ... وللسفن مدخل مقلوب من ناحية بالبلد وعلي فم المدخل الذي تدخل فيه السفن سلسلة ممدودة كالتي بصور وبيروت بالشام وعلي خليج القسطنطينية . وعليها قفل لمن ينظر في امر البحر فلا يخرج المركب ولا يدخل الا بامر صاحب القفل" ٣ . فابن حوقل يشير في قوله المتقدم الي وجود سلسلة في ميناء بيروت وصيدا ويذكر السلسلة التي علي خليج القسطنطينية والتي مر ذكرها سابقا .

وكان في دمياط برج يدعي " برج السلسلة" سمي بذلك لوجود سلسلة من حديد ممتدة هناك وصفها ابن الأثير بقوله " وقد بني في النيل برج كبير منيع وجعلوا فيه سلاسل من حديد غلاظ ومدوها في النيل الي سور دمياط لتمنع المراكب الواصلة من البحر المالح أن تصعد في النيل الي ديار مصر ولولا هذا البرج وهذه السلاسل لكانت مراكب العدو لا يقدر احد علي منعها عن اقاصي ديار مصر وادانيها . " ٤

وعند مجئ الصليبيين لحصار مدينة دمياط قطعوا هذه السلاسل فبني الملك الكامل جسرا علي النيل ليصد به مراكب الأعداء يذكر المقريزي ذلك فيقول" واشتد الفرنج والحوا في القتال حتي استولوا علي برج السلسلة وقطعوا السلاسل المتصلة به لتجوز مراكبهم في بحر النيل ويتمكنوا من البلاد فنصب الملك الكامل بدل السلاسل جسرا عظيما لمنع الفرنج من عبور النيل فقاتلت الفرنج عليه قتالا شديدا الي ان قطعوه وكان قد انفق علي البرج والجسر ما ينيف علي سبعين الف دينار " ٥ . وكان في بيروت بابا يدعي باب السلسلة سمي بذلك لوجود سلسلة تصل ما بين سور البلد وبرج البعلبكي تمنع المراكب الصغيرة من دخول الميناء والخروج منه . ذكر ذلك صالح ابن يحي في قوله " ولما جدد الأمير بيدمر نائب الشام سور بيروت علي جانب البحر... وجعل

---

١ - تاريخ العرب ص٢٠٣ / ٢ - المسالك ص١٩٤ / ٣ - صورة الأرض ج ٢ ص٣٣٩ / ٤ - الكامل ج ١٢ ص١٣٦

٥ - الخطط ج - ص٢١٦ .

بين آخر هذا السور وبين البرج المذكور بابا وركب عليه سلسلة تمنع المراكب الصغار من الدخول والخروج وسمي باب السلسلة "١

وهكذا فالسلاسل لم تكن تستعمل فقط لجر مراكب الأعداء بل كانت تستعمل ايضا لجرها. وفي كلا الحالتين يمكننا ان نعتبرها اداة نافعة للأسطول.

هذه بعض معدات الأسطول قد اتيت علي وصفها وفيما يلي نص لأبن عبد المنعم يذكر فيه انواعا اخري من المعدات التي تجهز بها الأساطيل يقول عند ذكر فتح الملك الناصر محمد بن يعقوب من سلاطين الموحدين لجزيرة ميورقة سنة ٥٩٩ هـ مايلي " وكان الأسطول ثلاثمائة جفن منها سبعون غرابا وثلاثون طريدة وخمسون مركبا كبارا وسائرها قوارب متنوعة . واما العدد والسلاح والمجانيق والسلالم والمساحي والفؤوس والمعاول والرقائق والحبال فشئ لا يأخذه عدد وكذلك الدروع والسيوف والرماح والبيضات والأتراس والدرق والقسي وصناديق النشاب وجملة وافرة من الطعام " ٢

هذه بعض العدد التي يجهز بها الأسطول وقد اتيت علي ذكر اهمها . ولننتقل الآن لذكر وسائل اجراء مراكب الأسطول.

---

١ - تاريخ بيروت ص٤٠ / ٢ - الروض ص ١٨٩ .

الفصـل الثـانـي

وسائل اجراء المراكب

ذكرت في الفصل السابق معدات الأسطول وعددت انواع هذه المعدات علي اختلافها . وفي هذا الفصل سأتكلم عن الأدوات التي كانت تجرى المراكب بواسطتها وعن المعدات التي كانت تساعد مقدمي الأسطول وروؤسائه في اجرائه وتوجيهه . وسأتبع في هذا الفصل الطريقة التي اتبعتها في الأبحاث المتقدمة من الكلام عن كل اداة علي حدة وابدأ اولا بذكر - الأبرة المغناطيسية -

الأبرة المغناطيسية

وتسمي ايضا بابرة الملاحين وابرة القبلة وبيت الأبرة نسبة الي استخدامها في الملاحة ومعرفة القبلة والي معدن المغناطيس الذي تتركب منه الأبرة المغناطيسية .

وقد دعا بعض المولدين هذه الأبرة بالحك ودعاها بعض العامة بالبوصلة ... وهي ابرة مغناطيسية مرتكزة علي وسطها بصورة افقية تدور بدون مانع وتتجه دائما جهة ثابته وتعين بواسطتها الجهات .

وقد عرف الصينيون الأبرة المغناطيسية من اقدم الزمان وذكرها كتابهم . ومنهم اذكر Sung-shu الذي عاش في زمن سلالة Tsin التي حكمت ما بين سنة ٢٦٥ - ٣١٣ م ١.

الا ان الصينين بالرغم من معرفتهم لهذه الأبرة في هذا التاريخ وما قبله فانهم لم يستخدموها في الملاحة البحرية الا في ازمنة متاخرة . واول ذكر ثابت لاستخدام الصينين للأبرة المغناطيسية في الملاحة يرد في رواية الكاتب الصيني P'ing-chou-ko-t'an في القرن الحادي عشر ميلادية . ثم يذكر استخدامها فيما بعد سنة ١١٢٢ م ٢

اما الروايات العربية القديمة فان بعضها يرجع اختراع المغناطيس الي النبي داود . والبعض اختراع الأبرة المغناطيسية الي الخضر او الأسكندر يقول ابن ماجد " واما ضرب بيت الأبرة بالمغناطيس قيل انها من داود عليه السلام (لأنه كان معتنا بالحديد وخواصه وقيل من الخضر عليه السلام) لما خرج في طلب ماء الحياة ودخل الظلمة وبحره ومال لأحد الأقطاب حتي غابت

---

١ - هامش مقدمة Chau- Ju- Kua P29 نقلا عن China Remiew XVIII P I97

٢ - نفس المصدر ص ٢٩ .

عنه .... " ١ ويقول في مكان آخر " وكل فن من فنون البحر له اصل فاصل السفينة ذكرناها انه من نوح عليه السلام . واما المغناطيس الذي عليه المعتمد ولا تتم هذه الصنعة الا به وهو دليل علي القطبين فهو الاستخراج داود عليه السلام وهو الحجر الذى قتل به داود جالوت " ٢ فابن ماجد في قوليه السابقين يبين لنا اهمية المغناطيس في صناعة البحر وخاصته في تعيين القطبين ثم يرجع اصله لزمن النبي داود .

ان هذا التعليل في ارجاع اولية الأمور للأنبياء والأولياء لا يقوم علي اساس علمي صحيح بل هي خاصة يتميز بها رجال القرون الوسطي من تاويل الحوادث والمظاهر الطبيعية تاويلا دينيا اذ ان النزعة الشائعة عند اهل ذاك العصر كانت نزعة دينية فكل ما يجدون من خوارق طبيعية كانوا يؤولوه تاويلا مستندا الي دينهم وعقائدهم . وابن ماجد هو من رجال القرن الخامس عشر ميلادية والتاسع هجرى قد تاثر بروح ذاك العصر في كتابته وتاويله فلا عجب ان اسند اختراع المغناطيس الي النبي داود او غيره من الانبياء .

اما النزعة العلمية السائدة في العصر الحديث عند الكتاب المحدثين فهي ان المغناطيس اول ما وجد في الصين واول من عرف خاصته من مغنطة الحديد والأتجاه نحو جهة ثابتة هم الصينيون هذا امر متفق عليه عند معظم من درسوا هذه المشكلة عن اولية المغناطيس . اما الذي اختلف فيه المؤرخون هو من اول من استخدم الأبرة المغناطيسية في الملاحة البحرية ؟

لقد تنبهت الأمم في الأيام الحديثة الي اهمية الأبرة المغناطيسية وما كان لتطبيقها في الملاحة البحرية من اثر نافع وخدمات عظمي في ترقي البحرية لذلك اثيرت مشكلة في من هو اول من استخدم هذه الأبرة في الملاحة . فقام كتاب بعض الأمم يدعون هذا الأمر لأمتهم ويقولون بأسبقية ملاحيهم لأستخدامها في البحر فقال الطليان ان فلافيوجيوجا من سكان نابولي هو مخترع الأبرة المغناطيسية سنة ١٣٠٢ م . وقال الدكتور جلبرت ان ماركو بولو هو الذي اتي بالأبرة المغناطيسية من الصين الي ايطاليا سنة ١٢٩٥ م . الا ان الأفرنسيين اعترضوا علي ذلك وبينوا انهم عرفوا الأبرة المغناطيسية قبل الطليان واستخدموها قبلهم منذ سنة ١١٥٠ م كما ان النروجين قالوا انهم استخدموا الأبرة المغناطيسية قبل سنة ١٢١٦ م ٣

ولكن الحقيقة التي اتفق عليها معظم الباحثين هي ان العرب هم اول من طبق الأبرة

---

١ - كتاب الفوائد ص٥ آ / ٢ - نفس المصدر ص٥ ب / ٣ - دائرة المعارف مادة " ابرة القبلة

المغناطيسية في الملاحة البحرية . فاذا كان الفضل يعود للصينيين في معرفة هذا المعدن قبل غيرهم من الشعوب فان الفضل في تطبيقه في الملاحة البحرية يعود لتجار العرب.

يقول Coppée "ان الصينين الذين عرفوا بالاكتشاف والأختراع ولكنهم لم يعرفوا حسن التطبيق والاستفادة من مخترعاتهم عرفوا المغناطيس وعرفوا ان الحديد يتأثر به فيحتفظ تحت تأثيره ... وقد زعم بعض الطليان انهم هم الذين اكتشفوا الأبرة المغناطسية في القرن الرابع عشر ولكن الأبحاث المتأخرة الدقيقة اظهرت بجلاء ان الفضل الأول يعود للعرب في استعمالها حيث نقلوها عن الصينين في فتوحاتهم الشرقية " ١

ويقول حتي " والأغلب ان الصين هم اول من اكتشف الأتجاه الثابت للقطب فاتخذه الأبرة المغناطيسية . ولكن المسلمين الذين لهم علاقة تجارية منذ القديم مع الصين وكانت تجارتهم قائمة ما بين الخليج الفارسي ومياه اقاصي الشرق هم اول من استعمل هذه الأبرة للملاحة" ٢

ويقول هرث " لعل التجار العرب الذين لهم علاقة تجارية مع الصين اخذوا معلوماتهم عن خصائص هذه الأبرة المغناطيسية من الصين واستخدموا هذه الأبرة في الملاحة قبل اهل الصين انفسهم " ٣ .

نعم لقد كانت العلاقات التجارية قائمة بين العرب من التجار الذين يسكنون شواطئ عيذاب وعدن وسيراف وهرمز والبصرة وغيرهم من سكان المرافئ البحرية الواقعة على بحر القلزم والمحيط الهندي والخليج الفارسي وبين اهالي مدينة خانفو (كانتون) والزيتون وغيرها من مدن الصين وجزائر المحيط الهندي . فلا عجب اذا نقل التجار العرب الأبرة المغناطيسية من الصين وطبقوها في رحلاتهم البحرية الطويلة لاسيما وانهم باشد الحاجة الي آلة تهديهم الطريق السوي الذي يوصلهم الي هدفهم وغايتهم .

ان شهادة هؤلاء المؤرخين المحدثين تدل دلالة واضحة علي ان العرب هم اول من استخدم الأبرة المغناطيسية في الملاحة البحرية ونقلوها عن الصين في خلال رحلاتهم التجارية . ولنرجع الآن الي مؤرخي العرب القدماء انفسهم ولنر متي ورد ذكر البوصلة في كتبهم !

فعل استعراض النصوص العربية القديمة التي ورد فيها استخدام الأبرة المغناطيسية يجدر بنا ان نلاحظ الملاحظتين الآتيتين .

اولا ان تطبيق هذه الأبرة عمليا في البحر سبق ورود ذكرها في المصادر العربية القديمة.

---

١ - Coppée Vol II,P 396-397 / ٢ - تاريخ العرب ص ٦٦٩ / ٣ - مقدمة Chau-Ju-Kua P 29 نقلا عن كتاب Hirth Ancient,Hist.Of China P I26 الي I34

لأنه ليس من المعقول ان يكتب عنها المؤرخون او يشيروا اليها مالم يكن قد انتشر استعمالها انتشارا كبيرا وعرفت فائدتها وخواصها.

ثانيا من المرجح ان استخدام الأبرة المغناطيسية في الملاحة بقي سرا تجاريا زمنا طويلا . ولم يشع هذا السر الا بعد مدة من استخدامه في الملاحة لأن المعروف ان التنافس التجاري القائم بين تجار العرب انفسهم وبين تجار الأمم الأخري لحمل بضائع الجزيرة العربية الي اقاصي الصين والأتيان بحاصلات تلك البلاد الي الغرب كان يدعوا العرب الي التكتم في نشر هذا الأختراع العظيم الي حيز الوجود والتحفظ في نشره الي الآخرين . وبالرغم من ذلك فاننا نجد اول ذكر للأبرة المغناطيسية في المصادر العربية يعود الي سنة ١٢٣٠ م في مجموعة فارسية تعرف بجوامع الحكايات ولوامع الروايات كتبها محمد العوفي . وفي احدي الحكايات يقص ذاك المؤلف الذي كان ملاحا عن كيفية اهتدائه الي الطريق بواسطة سمكة طلاها بالمغنطيس ١

ثم نجد بعد هذا التاريخ تتابع الروايات العربية التي تشير الي هذه الأبرة ومنها ما ذكره القبساقي في سنة ١٢٨٢ م عن وصف الأبرة المغناطيسية ٢

والمقريزي الذي توفي سنة ١٤٤١ م يشير الي هذه الأبرة ويقول " وما برح المسافرون في بحر الهند اذا اظلم عليهم الليل ولم يروا ما يهديهم من الكواكب الي معرفة الجهات يحملون حديدة مجوفة علي شكل سمكة ويبالغون في ترقيقها جهد المقدرة ثم يعمل في فم السمكة شيئ من مغناطيس جيد ويحك فيها بالمغناطيس فان السمكة اذا وضعت في الماء دارت واستقبلت القطب الجنوبي بفمها واستدبرت القطب الشمالي . وهذا ايضا من اسرار الخليقة فاذا عرفوا جهتي الجنوب والشمال تبين منهما المشرق والمغرب فان من استقبل الجنوب فقد استدبر الشمال وصار المغرب عن يمينه والمشرق عن يساره فاذا تحددت الجهات الأربع عرفوا مواقع البلاد بها فيقطعون حينئذ جهة الناحية التي يريدونها " ٣

كما ان الملاح العربي ابن ماجد المشهور بأسد البحر وبالمعلم وضع عدة كتب نثرا وشعرا لأرشاد البحريين الي الطرق البحرية في مختلف البحار التي حول الجزيرة العربية وعلمهم كيفية الأهتداء الي معرفة الجهات بواسطة النجوم ليلا وبواسطة الشمس نهارا والذي ارشد الأسطول البرتغالي الذي كان بقيادة فاسكو دي غاما لطريق الهند . قد ذكر البوصلة في القرن الخامس عشر ميلادية وعرف خواص المغناطيس واهميته في تعيين الجهات واستخدامه في الملاحة البحرية

١ـ تاريخ العرب ص٦٦٩ / ٢ـ الحضارة الأسلامية ج٢ ص٣٦٤ / ٣ـ الخطط ج١ ص٢١٠

قال" واما المغناطيس الذي عليه المعتمد ولا تتم هذه الصنعة الا به وهو دليل علي القطبين فهي استخراج داود عليه السلام ... واما ضرب بيت الأبرة بالمغناطيس قيل انها من داود (لأنه كان معتنياً بالحديد وخواصه وقيل من الخضر عليه السلام) لما خرج في طلب ماء الحياة ودخل الظلمة وبحره ومال لأحد الأقطاب حتي غابت عنه الشمس قيل اهتدي بالمغناطيس وقيل اهتدي بالنور . والمغناطيس حجر يجذب الحديد فقط والمغناطيس كل شيئ ما جذبه اليه . وقيل ان السبع السموات والأرض معلقات بمغناطيس القدرة . وقال الناس في ذلك اقوال كثيرة فلم استشهد سوي ما قلته في قصيدة طويلة نظما

دبارك مغناطيس رجلاي ان مشيت وعضك مغناطيس قلبي وناظري "١

هكذا نجد ان معرفة العرب للمغناطيس والأبرة المغناطيسية قديم جدا وان اول ذكر لأستخدامه في الملاحة البحرية في المصادر الأسلامية يعود الي اوائل القرن الثالث عشر ميلادي. وظلت الأشارات الي الأبرة المغناطيسية فيما بعد متصلة متسلسلة عند المؤرخين العرب . مما يدلنا علي استمرار استعمال العرب لهذه الأبرة واستخدامها في الملاحة .

ويشير بعض المؤرخين الغربيين الي ان العرب نقلوا الأبرة المغناطيسية الي الأندلس وحسنوها وجعلوها اكثر ملائمة للأستعمال بوضعها علي محور في وسطها بعد ان كانت سابقا توضع علي قطعة من الفلين ٢ . ولعل هذه الأبرة انتقلت عن طريق الأندلس الي اوربا واقتبسها الأوربيون من العرب بواسطة الأندلسيين الذين اوصلوا كثيرا من المعارف والعلوم الي الغرب...

ولا يسعني الأطالة اكثر من ذلك عن الأبرة المغناطيسية ومن اراد التوسع في هذا البحث يمكنه الرجوع الي ما كتبه الأستاذ Léopold de Saussure في مجموعة جمعها الأستاذ فراند ٣

وعلاوة عن الأبرة المغناطيسية فقد كان العرب يعرفون وسائط اخري لتعيين الجهات . يذكرها ابن ماجد في كتابه ٤ . اذكر منها النجوم علي اختلاف انواعها وابراجها والرياح علي اختلاف مهابها . ثم انهم يعرفون الأقاليم والمناطق البحرية بواسطة الجزائر التي يمرون عليها ومن انواع الطيور التي يرونها وانواع الأسماك التي يشاهدونها ومن هيئة الجبال التي يصادفونها نادرة في طريقهم ومن رائحة التراب الذي يأخذونه من قعر البحر .. وما اشبه ذلك من الوسائط الكثيرة التي نظمها ابن ماجد في حاويته اذكر منها ما يلي علي سبيل التمثيل.

---

١ - الفوائد ص٦آ / ٢ - Scott Vol III P 633 / Introduction à l'Astro-
٣ - nomie Nautique Arabe
٤ - الفوائد ص٥٩آ - ٦٠ ب/

" والطين والحيات والاطيار ‏ ‏ ‏ ‏ والحوت والحشيش خذ اخباري
لاتعتبر الا بما جـــربته ‏ ‏ ‏ ‏ او يكن الواصف قد حـــققتـه
وان ترى اللزاق فيه الصفر ‏ ‏ ‏ ‏ يكذب مرة ويصـــدق مـرة
فربما جاءت بـه الحـــيتان ‏ ‏ ‏ ‏ لقعر بحر نازح لا دانـــي
اما الذي يافتي يصطاد ‏ ‏ ‏ ‏ اشارة يعزى بها الغـــوادي
والقدماء الفضلاء الثقـــات ‏ ‏ ‏ ‏ توافقوا في صحة الحـــيات
وان ترى في البحريوما بارزة ‏ ‏ ‏ ‏ ميتة فليس هي بالجـــائزة
لان فيهـــا لغة كثيرة ‏ ‏ ‏ ‏ يعلمهـــا ذو القـدرة القديـرة
تغير الامواه في الحـــالات ‏ ‏ ‏ ‏ يحصل من ظـــل ومن حـــيات
وان رأيت الماء قد تغيرا ‏ ‏ ‏ ‏ مازجة السحاب فمنه الحـــذرا
ثم صفات البر والجـــبال ‏ ‏ ‏ ‏ افعل بتجريبك ولا تبـــالي " ١

<u>الاســـطرلاب :</u>

الاسطرلاب جمعه اسطرلابات ٢ وهي لغة يونانية ٣ ἀστρολάβος مركبة من Astron ومعناها كوكب و Lavi معناها اخذ والحاصل : اخذ الكوكب ، لانه اول مااستعمل لاخذ ارتفاع الكواكب ٤ ويفســر العرب هذه الكلمة بميزان الشمس او ميزان الكواكب ويؤلون سبب تسمية هذه الالة بالاسطرلاب تأويلات عديدة منهـــا ماذكره حاجي خليفه : ان الاوائل كانوا يتخذون كرة على مثال الفلك ويرسمون عليها الدوائر ويقسمون بها الليل والنهار ويصححون بها الطالع الى زمن ادريس عليه السلام وكان لادريس ابن اسمه (لاب) وله معرفة في الهيئة فبسط الكرة واتخذ هذه الالة فوصلت الى ابيه فتأمل وقال من سطر هذه فقيل اسطرلاب ، فوقع عليه هذا الاسم وقال الفيروزبادي (لاب اسم رجل سطر سطرا وبنى عليه حسابا فقيل سطرلاب ، ثم نزعت الاضافة فصار اسما واحدا ، وقيل هو كلمة فارسية وهي استاراه ياب ومعناها مدرك احوال الكواكب فغيرت الحروف وصارت اسطرلاب ٦ .

١ـ حاوية الاقتصار لابن ماجد ص ٩٠ آ وص ٩٠ ب .
٢ـ ملحق دوزى مادة " اسطرلاب " ٣ـ الموسوعة الاسلامية مادة " Asturla B
٤ـ المقتطف ج ١١ سنة ١٨٨٩ ص ٧٢١ . ٥ـ حاجي خليفه كشف الظنون ج ١ ص ٣٢٤
٦ـ دائرة المعارف مادة اسطرلاب .

ان هذه الاقوال الاخيرة لتعليل كلمة اسطرلاب ليس لها اساس علمي صحيح وانما هي من عصارة افكار وعقول كتاب القرون الوسطى الذين يحبون ان يؤولوا ويفسروا بحسب ماتوحيه لهم بيئتهم وطبائعهم · والصحيح هو ماذكرته اولا وهو ان هذه الكلمة مأخوذة عن اليونانية · وقد عرف اليونان هذه الالة منذ القرن الثاني قبل المسيح وشرحها بطليموس في المجسطي واول من عرفها من المسلمين هو ابراهيم ابن حبيب الفزاري وانتقلت الى اوربا في القرن العاشر ميلادي ١

والاسطرلاب ثلاثة انواع اساسية وهي الاسطرلاب المسطح والاسطرلاب الكروي والاسطرلاب الخطي وقد تكلم المعلم بطرس البستاني عن النوعين الاولين في دائرة معارفه وتكلم عن الانواع الثلاثة C.A.Nallino في الموسوعة الاسلامية فمن اراد معرفة شيء عن هذه الانواع فيمكنه الرجوع الى هذين المصدرين تحت مادة " اسطرلاب " ·

ولا يزال بعض هذه الاسطرلابات محفوظا حتى الان في مكاتب العالم ومتاحفه اذكر منها اسطرلاب جعفر بن المكتفي الذي صنعه له احمد بن خلف حوالي سنة ٣٢٠ هـ وهو محفوظ الان في متحف باريس · واسطرلاب صنعه محمد بن الصفار بمدينة طليطلة بالاندلس سنة ٤٢٠ هـ وهو محفوظ في مكتبة برلين · واسطرلاب صنعه محمد بن فتوح الخمايري بمدينة اشبيليه بالاندلس سنة ٦١٣ هـ وهو محفوظ في مكتب دار الهندسة بالاستانة · واسطرلاب آخر صنعه هذا الرجل نفسه سنة ٦١٥ هـ محفوظ في مكتبة فرانسه واسطرلابات اخرى ورد ذكرها في المقتطف يمكن الرجوع اليها ٢

ويقول حتى ان اهم المدن في صناعة الاسطرلاب هما مدينتا طليطلة واشبيليه من بلاد الاندلس ٣ ويوافق قوله هذا ماذكرته عن بعض هذه الاسطرلابات المحفوظة حتى الان · فنجد ان صناعها من اهالي تلك المدينتين ·

وفيما يلي وصف موجز عن اجزاء الاسطرلاب اوردها ليكون للقارئ فكرة عن هذه الالة الفلكية ·

١ــ تاريخ العرب ص ٥٩١ / ٢ــ المقتطف ج ١١ سنة ١٣ سنة ١٨٨٩ ص ٧٢٢

٣ــ تاريخ العرب ص ٥٩١ ·

اجزاء الاسطرلاب اربعة وهي اولا . الألواح . ثانيا العنكبوته . ثالثا ام الأسطرلاب رابعا العضادة .

والألواح رقوق مستديرة مثقوبة في مركزها وكل لوح منها معلم من وجهيه بخطوط ودوائر واقواس وحروف وارقام . وقد تكون هذه الألواح اربعة فقط وقد ينيف علي العشرة ... و

والعنكبوته هي لوح مخرق بخروق كثيرة بحيث يبقي فيه دائرة مركزها خلاف مركز الألواح ودائرة اخري تصنع مع الأولي هلالا ونواتئ كثيرة حادة....

وام الأسطرلاب صفيحة مقرفة من احد جانبيها يسمي الجانب المفرغ منها بالحجرة فتوضع الألواح فيها وتوضع العنكبوته فوقها ....

وعلي ظهر الأسطرلاب قطعة طويلة تسمي العضادة احد جانبيها يمر بمركز الأسطرلاب وعلي طرفيها هنتان تسميان بالهدفتين في كل منهما ثقب صغير ويمكن رفعهما فتقفان عموديتين علي الأسطرلاب وثقباهما متقابلان .

والألواح المذكورة والعنكبوتة وام الأسطرلاب والعضادة مثقوبة كلها في مركزها فيمر بها مسمار او لولب يمسكها بعضها ببعض يقال له الفرس. وفي طرف كل من الألواح المتقدم ذكرها نتوء يدخل في ثقب في جانب الحجرة فيتمكن في مكانه ولا يدور بدوران العنكبوته . وفي طرف الأسطرلاب عروة فيها حلقة اذا مسك الاسطرلاب بها وقف من نفسه عموديا علي سطح الأفق بسبب ثقله ١

هذا وصف موجز جدا للأجزاء التي يتألف منها الأسطرلاب ولناخذ فكرة عن كيفية استخدام هذه الآلة في معرفة ارتفاع الأفلاك والنجوم اذكر ما ورد في المقتطف عن قياس ارتفاع الشمس (هامش) عمليه لايحتاج معها الي اعمال حسابية وكل ما في الأمر هو ان تضبط عضادة الاسطرلاب بوضع جيد ويقرأ الدرجة الموافقة لهذه العضادة علي محيط الأسطرلاب.

وقد ذكر صاحب كتاب رياض المختار المسائل التي يمكن معرفتها بواسطة الأسطرلاب اذكر منها ١ـ اخذ ارتفاع الشمس ٢ـ معرفة وجود الشمس في اية درجة من اي برج في اي يوم كان . ٣ـ معرفة ميل الشمس والكواكب وغايات ارتفاعها واستخراج عرض البلاد منها ٤ـ تعيين اوقات الصلاة والفجر والشفق ٥ـ معرفة البعد بين بلدين وسمت احدهما بالنسبة للآخر ٦ـ اجراء العمليات المختصة بالكواكب وتعيين بروجها ٧ـ معرفة سمت القبلة ٨ـ معرفة الجهات الأربعة في اي وقت وفي اي بلد... ومسائل اخري كثيرة لاحاجة لذكرها. ٢

١ـ المقتطف الجزء ١١ سنة ١٣ سنة ١٨٨٩ ص٧٢٣ / (هامش) ارتفاع الشمس " يمسك الاسطرلاب باليد من حلقته بحيث يكون حرفه متجها نحو الشمس ثم تحرك العضادة التي علي ظهره بحيث ان الأشعة المارة بثقب احدي هدفتيها تمر بالهدفة الأخري ويقرأ علي محيط الأسطرلاب درجة الأرتفاع المطلوب فوق خط المشرق والمغرب" (المقتطف ص٧٢٦) ٢ـ المقتطف ص٧٢٨

فبالأسطرلاب ~~لا~~ يمكننا معرفة الجهات وتعيينها في اي وقت كان فهو اذن اداة جيدة للملاحة البحرية يستطيع بواسطتها البحريون الأهتداء لطريقهم وتعيين وجهتهم التي يقصدونها . وكتب ابن ماجد وسليمان المهري الموضوعة لتعين الطرق البحرية التي يجب ان يتبعها الملاحون في اسفارهم مبنية في اساسها علي الأهتداء بواسطة النجوم وابراجها . وتكون هذه المعرفة بواسطة الأسطرلاب. يقول حتي " وكان المسلمون يستعملونه في تعيين اوقات الصلاة وموقع مكة الجغرافي وكان من اثمن الأدوات للبحارة في استخدامه في الملاحة لمعرفة الجهات بواسطة النجوم ... " ١

كما ان هرث و روكهيل يقولان "انه لم يكن يخلو مركب من مراكب العرب من الأسطرلاب " ٢

الرهنامج

ان هذه الكلمة فارسية مركبة من راه بمعني طريق ومن نامه وهو الكتاب - اي كتاب الطريق - ٣ وهو الكتاب الذي يسلك به الربانية البحر ويهتدون به في معرفة المراسي وغيرها ٤ ولم اجد تفسير هذه الكلمة في المعاجم العربية ولعلها اخذت من الفارسية في زمن متأخر وعربت واطلقت علي هذا النوع من التاليف الذي يبحث عن الطرق ومنها الطرق البحرية . فان هذه الكلمة اذن لاتشير الي كتاب معين خاص وانما هي كلمة علامة لكل كتاب يبحث عن الطرق . واهم الكتب العربية التي الفت في هذا البحث عن الطرق البحرية هي مصنفات ابن ماجد وسليمان المهري من اهل القرن الخامس عشر ميلادية والقرن العاشر هجري . ولا باس ان نتعرف علي اسماء مصنفات هذين البحارين العربيين علي الأقل لنطلع بواسطتهما علي هذه الناحية الهامة من التأليف العربي .

اهم كتب ابن ماجد هي مايلي :

اولا كتاب الفوائد في اصول علم البحر والقواعد . - وهو مؤلف من اثني عشر فائدة تبحث في مواضيع مختلفة معظمها فلكية يبحث فيها المؤلف عن اقسام البروج التي في السماء ويعددها باسمائها المختلفة ونجومها المتعددة ويبين كيفية قياس هذه البروج واستخدامها في معرفة الجهات والطريق في البحر الا انه يكتب بلغة سقيمة مستندة الي الاصطلاحات العامية والتعابير البحرية ويكثر من اسماء المواضع غير المشهورة . لذلك يجد الباحث في قراءتها اشد الصعوبات لاسيما اذا لم يكن خبيرا بلغة البحريين والفلكيين من العرب الأقدمين وفي الفائدة العاشرة يذكر الجزر الكبار المشهورة في العالم ويعددها ويصف موقعها الجغرافي . واهم المرافئ فيها واشهر اقسامها .

Chau-Ju-Kua P 29

١ - تاريخ العرب ص٥٩١ / ٢ - هامش مقدمة

٣ - كتاب الألفاظ الفارسية ص٧٤ / ٤ - هامش حضارة العرب ص١٧٣ .

وفي الفائدة الثاني عشر يذكر بحر القلزم وجزره وعمايه .

ثانيا حاوية الأختصار في اصول علم البحار . - وهي ارجوزة نظمها ابن ماجد ضمنها كثيرا من المعلومات التي ذكرها في كتابه السابق كتاب الفوائد . ولكن لغتها العصرية خففت من سقم عباراته النثرية في كتابه السابق . وجعلتها اقرب للفهم والذوق . قسم المؤلف هذه القصيدة الي عشرة فصول ذكر في بعضها معلومات بحرية وذكر في البعض الآخر معلومات فلكية .

وهناك اراجيز اخري بعناوين مختلفة نشرها فرّاند في المجموعة التي خصها لمؤلفات ابن ماجد والمهري يمكن الرجوع اليها والتعرف عليها لمن اراد .

اما مصنفات الملاح العربي الثاني سليمان المهري فأهمها:

العمدة المهرية في ضبط العلوم البحرية وهو كتاب في سبعة ابواب كل باب مقسوم الي عدة فصول حيث بحث فيها المؤلف عن الكواكب وابعادها ومداراتها وارتفاعها . ثم ذكر اهم ديارات المحيط الهندي وهي بلاد العرب والعجم والسومال وبرسيام والصين وما الي ذلك . ثم بحث في اهم جزر المحيط الهندي وعددها وهي جزيرة القمر وجزر ندمن وجزيرة سقطري وجزر الفال وجزر الديب وجزيرة سيلان وجزيرة سمطري وجاوة والجزر الجنوبيات الشرقيات واخيرا بحث في الطرق بين البلاد المختلفة من بلاد العرب والهند والصين وغيرها . واسلوب هذا المؤلف اوضح من اسلوب ابن ماجد السابق الا انه اقل قيمة من الأول لأنه اعتمد كثيرا في كتبه علي السماع دون التحقق بنفسه لتلك الطرق البحرية . وله كتب اخري علاوة عن العمدة المهرية منها كتاب تحفة الفحول في تمهيد الاصول - وكتاب المنهاج الفاخر في علم البحر الزاخر - ورسالة قلادة الشموس واستخراج قواعد الاسوس وغيرها كثير من المؤلفات والرسائل التي نشرها - فرّاند -

لقد بدأ الأستاذ فرّاند بنشر هاتين المجموعتين لأبن ماجد وسليمان المهري سنة ١٩٢٥ م نشرها بالتصوير الفتوغرافي بعنوان Instructions Nautiques et Routiers Arabes et Portugais Des XVe et XVIe Siècles .

وقدم لهذين الكتابين كتابا اخر سماه — Introduction à L'astronomie nautiques Arabe وهو مجموعة ابحاث لكتاب مختلفين يبحث في مواضيع متعددة لها علاقة بالملاحة والأدوات البحرية وفيه فصل عن ابن ماجد وسليمان المهري وغايته في هذا الكتاب الأخير تسهيل قراءة وفهم السلسلتين السابقتين اللتين اعتني بنشرهما .

وليست هاتان السلسلتان عن ابن ماجد وسليمان المهري هما الوحيدتان في هذا الموضوع عن الطرق البحرية ومعرفة البحار وجزره بل يمكنني ان اعتبر معظم كتب الرحلات التي قام بها

العرب هي من هذا النوع من التاليف لأنها تشير الي الطرق البحرية وتصف البلاد والجزر التي يمر بها المؤلف وتصف خصائص كل قطر وصقع من كثير من الوجوه .

ان هذه الكتب نعرفها لأنها وصلتنا ونشرت علي ايدي مختلف العلماء . الا انه يوجد كثير من الكتب والدفاتر والمعلومات الكثيرة التي كان بعض العرب يعرفها ولم تصل الينا . يذكر ذلك المقدسي عند كلامه عن المحيط الهندي . يقول " واما أنا فسرت فيه نحو الفي فرسخ ودرت علي الجزيرة كلها من القلزم الي عبادان سوي ما توهت بنا المراكب الي جزائره ولججه وصاحبت مشايخ فيه ولدوا ونشؤا من ربانيين واشاتمة ورياضيين ووكلاء وتجار ورأيتهم من ابصر الناس به وبمراسيه وارياحه وجزائره فسألتهم عنه وعن اسبابه وحدوده ورأيت معهم دفاتر في ذلك يتدارسونها ويعولون عليها ويعملون بما فيها فعلقت من ذلك صدرا صالحا بعدما ميزت وتدبرت ... وبينا انا يوما جالس مع ابي علي بن حازم انظر في البحر ونحن بساحل عدن اذ قال لي ما اراك متفكرا قلت ايد الله الشيخ قد حار عقلي في هذا البحر لكثرة الاختلاف فيه والشيخ اليوم من اعلم الناس به لأنه امام التجار ومراكبه ابدا تسافر الي اقاصيه فان رأي ان يصفه لي صفة اعتمد عليها وارجع من الشك اليها فقال علي الخبير بها سقطت ثم مسح الرمل بكفه ورسم البحر عليه لا طيلسان ولا طير وجعل له معارج متلسنه وعصابا عدة ثم قال هذه صفة هذا البحر لا صورة له غيرها وانا اصوره ساذجا وادع المعب والخلجان الاشبه وبلغة لشهرتها وقلة الحاجة الي معرفتها وكثرة الاسفار فيها وادع ما اختلفوا فيه وارسم ما اتفقوا عليه ... " ١

هذا النص يبين لنا انه لم تكن طبقة واحدة من الناس تعرف جغرافية البحار وطرقه بل هناك الربان من البحارين والرياضيين والتجار الذين يعرفون عن تلك المحيطات والبحار ولهم دفاتر يتدارسونها ويعملون بها خلاف هذه الدفاتر وما هي مادتها ! نحن لا نعرف اليوم الا القليل من المعلومات عن معارف اولئك القوم الذين خبروا البحار وثقفوها حتي ان احد تجار ذلك الزمن وهو ابو علي بن حازم يرسم خريطة البحر الهندي ويشرح للمقدسي مناطقه وخلجانه دون تردد او شك كأن هذا الأمر قد اصبح جزأ من كيانه واصبحت معرفته له معرفة قوية لا يحتاج معها الي تفكير عميق واستعداد طويل .

اننا قليلا ما نعرف عن اولئك القوم فمن هو ابو علي بن حازم ومن هم اولئك الملاحون الذين كانوا يمضون معظم ايامهم في خوض البحار والاسفار واين معلوماتهم التي دونوها في دفاترهم ! لاشك ان معظم هذه المعلومات ضاعت وما وصلنا منها ان هو الا القليل النادر .

---

١ - احسن التقاسيم ص١٠ - ١١

المجاذف

ورد كلمة المجاذف بالذال كما بين ذلك الزبيدي ١ وترد ايضا بالدال كما يستعملها كثير من الكتاب والمؤلفين ٢ ويستعملها صالح بن يحي بالقاف فيقول المقاذيف ٣ وهو صحيحة في الحالات الثلاثة .

وقد وردوصف المجاذيف في العصر العربي ومن جيد ما قيل في وصفها ما ذكره ابو عمرو يزيد بن ابي خالد اللخمي الاشبيلي الأندلسي قال

مجاذف كالحيات مدت رؤسها علي وجل في الماء كي تروى الظما

كما اسرعت عدا أنامل حاسب بقبض وبسط يسبق العين والفما ٤

ان هاذان البيتان من اجمل ما قيل في وصف المجاذيف،شبه بهما الشاعر رؤوس الحيات الظمآنة الي الماء تمد راسها لتشرب . وشبه حركتها في الماء وذهابها وايابها بحركة اصابع حاسب يقبض انامله ويبسطها . فهو تشبيه بديع فيه دقة في التصوير ومهارة بالتعبير اجاد فيه الشاعر كل الأجادة .

وقال علي بن محمد الأيادي في وصف المجاذيف من قصيدة له في وصفاسطول القائم مايلي

محفوفة بمجاذف مصفوفة في الجانبين دوين صلب صلب

كقوادم النسر المرفرف عريت من كاسيات ريشه المتهدب

وتحثها ايدي الرجال اذا ونت بمصعد منه بعيد مصوب

عرجوا جوانبه مجاذف اتعبت شأو الرياح لها ولما تتعب ٥

فما لمجاذف اذن اداة اساسية في تسيير الأسطول يعتمد عليها في حالة الهجوم علي العدو او الهرب منه وهي وسيلة انجع من الشراع لأن الشراع يتوقف عمله علي هبوب الريح وبكونه لذلك فالمراكب الحربية المعدة للقتال تجهز علي الأكثر بالمجاذيف التي يتوقف عليها تسير المركب في سرعته وابطائه . وقد ذكر ابن خلدون اهمية المجاذيف في الأساطيل٦ ووصف القلقشندي ٧ والمقريزي ٨ عملهما العظيم في الهجوم عند لقاء العدو .

وقد تكون المراكب الحربية معدة بعدة صفوف من المجاذيف ٩ وقد يجذف علي المجذاف الواحد عدة اشخاص ١٠ واحيانا يجذفون وقوفا علي اقدامهم ١١ وعدد المجاذيف في الغراب

---

١ ـ تاج العروس مادة "جذف" / ٢ ـ صبح الأعشي ج٣ ص٥٣٣ / ٣ ـ تاريخ بيروت ص٣٢٣

٤ ـ حضارة العرب ص٦ / ٥ ـ زهر الآداب ج٤ ص١٣٨ / ٦ ـ المقدمة ص٣٤٣ / ٧ ـ صبح الأعشي ج٣ ص٥٢٣ / ٨ ـ الخطط ج١ ص٤٨٠ / ٩ ـ Naval P 19 / ١٠ ـ رحلة ماركو بولو ص٢٦١

١١ ـ رحلة ابن بطوطة ج٢ ص١٤١

بعراوح مابين ٤٠ و ٨٠ و ١٠٠ و ١٨٠ ١/ والمجاذيف تصنع من الخشب ونظرا لقلة هذه المادة في مصر فان قانصوه الغوري استورد سنة ٩١٦ من ملك الروم عثمان بعض المعدات فارسل له القين مقذافا من الخشب ٢ .

ويظهر ان مراكب البيزنطين قديما والصليبين فيما بعد كانت اصغر من المراكب العربية لذلك كانت تمتاز عنها بالخفة والسرعة وتلجأ الي الهرب عند ضعفها فلا تستطيع سفن المسلمين من اللحاق بها . ٣ يقول صالح بن يحي " ومشينا اليهم بالقلوع فهربوا منا ولم نقدر علي لحوقهم لسرعة مشيهم بالمقاذيف " ٤

مما تقدم يتبين لنا اهمية المجاذيف في الأسطول عند الحرب اذ انها اداة رئيسية في تسيير المراكب واجوائها . وعليها يتوقف الي حد كبير التفوق علي مراكب الأعداء . اذ ان سرعة الأسطول وحركته ودورانه يتوقف علي المجاذيف ومعرفة استخدامها .

الشراع او القلع

يقول الزبيدي " الشراع القلع وهو كالملاءة الواسعة فوق خشبة من ثوب او حصير مربوع وتر علي اربع قوي تصفقه الريح فيمضي بالسفينة . وانما سمي به لأنه يشرع اي يرفع فوق السفن جمعه اشرعة وشرع بضمتين " ٥ ويقول الطبري " ان القلوع وهي شرع السفن"٦ مما يدلنا علي ان الكلمتين لهما نفس المعني .

والأشرعة علي نوعين منها ماهو مصنوع من القماش كما ذكر في قصة الف ليلة وليلة ٧ ومنها ماهو منسوج من خوص شجر المقل ٨ منسوجة كالحصر لاتحط ابدا ويديرونها بحسب دوران الريح اذا ارسوا تركوها واقفة في مهب الريح . ويكثر استعمال اشرعة القماش في البحر المتوسط اما اشرعة شجر المقل فتكثر في بحر القلزم وجهات الصين ٩ .

وكانت الأشرعة في ال Galley مصنوعة من القطن المنقوش والمصور عليه اجمل الصور ويظهر من طول الصواري ان تلك الأشرعة كانت مثلثة الشكل ١٠ . والشراع عند رفعه يربط بالصاري وقد تعددت اسماء الصاري كما يقول المسعودي . فارباب المراكب في بحر الصين يدعونه الدقل والبحارة في البحر الحبشي يسمونه الدولي وبالعراق يدعي الرقل وفي البحر

---

١ ـ صالح بن يحي ص٢٢٠ / ٢ ـ بدائع الزهور ج٤ ص٢٠١ / ٣ ـ Tactica XIX 70 in the Orient P52

٤ ـ صالح بن يحي ص٢٢٣ / ٥ ـ تاج العروس مادة " شرع " / ٦ ـ الطبري الجملة الثالثة ج١١ ص١٤١٨ / ٧ ـ الف ليلة ص٢٧٩ الليلة ٥٤٣ / ٨ ـ رحلة ابن جبير ص٤١

٩ ـ مقدمة Naval P 11 ـ ١٠ Chau-Ju-Kua P30

الرومي يسمي الصاري. ١

وللشراع فائدة عظيمة في تسيير المراكب لاسيما المراكب التجارية ومراكب النقل الا ان استخدامه في الاسطول خطر خوفا من تأثير النار اليونانية في حرقه واتلافه المركب لذلك كانت المجاذيف في الاسطول اكثر اهمية من الشراع الا ان للأخير فائدة في المراكب التي تتبع الأسطول والتي تغذيه بالمواد والعدد والذخيرة . فالشراع والمجاذيف اذن هما الأداتان الوحيدتان في الأيام القديمة لتسيير مراكب الاسطول وجريها .

<u>المرساة او الأنجر</u>

يقول الزبيدي " المرساة بالكسر انجر السفينة التي ترسي به وفي التهذيب المرساة انجر ضخم يشد بالحبال ويرسل في الماء فيمسك السفينة ويرسيها حتي لا تسير " ٢ اما الأنجر فكلمة فارسية معربة من لنكر وهو خشبات يخالف بينها وبين رؤسها وتشد بها الحبال وترسل في الماء اذا رست السفينة فاقامت ٣ وقد ذكر ميور ان الأنجر كلمة يونانية ٤ ἄγκυρα بمعني المرساة وقد ورد ذكرها كثيرا في كتاب عجائب الهند وتجمع فيه علي اناجر ٥

والمراسي المستعملة في القديم علي انواع منها ما هو مصنوع من الحديد كالتي يذكرها المقريزي في كلامه عن حصار الأفرنج لدمياط يقول " فبعث الله ريحا قطعت مراسي مرمة الفرنج وكانت من عجائب الدنيا فمرت الي بر المسلمين فاخذوها فاذا هي مصفحة بالحديد لا تعمل فيها النار ومساحتها خمسمائة ذراع فكسروها فاذا فيها مسامير زنة الواحدة منها خمسة وعشرون رطلا " ٦ ومن المراسي ما هو مصنوع من غير الحديد كالتي يصنع في هرمز وهي مؤلفة من مادة ترابية ٧

وعدد المراسي في المراكب يختلف بحسب كبرها وصغرها كما ان المراسي نفسها ليست من حجوم متساوية ورد في كتاب عجائب الهند ما يلي = " ... قال ارفعوا الأناجر واتركوا المركب يسير لنفسه ففعلنا فقال اقطعوا الانجر الكبير فقطعناه وبقي في البحر ثم قال ارموا بالأنجر الفلاني فلم نزل كذلك حتي رمينا في البحر ست اناجر " ٨ وبني السلطان قانصوه الغوري سنة ٩١٨ غليونا عدد مراسيه ثمانية ٩ وقد كانت مدينة شلطيش بالاندلس مشهورة بصنع المراسي من الحديد الذي يعجز عن صنعه اهل البلاد لصلابته وقسوته ١٠ وفي سنة ١٥٦٠ استخدم الأوربيون في سفنهم الات

---

١ - مروج ج١ ص١٣٠ و ج٢ ص١٢٨ / ٢ - تاج العروس مادة " رسي " / ٣ - تاج العروس مادة " نجر "
٤ - الحضارة الأسلامية ج٢ ص٣٦٤ وترد ايضا في كتاب الألفاظ الفارسية ص ١٥٠ عن فرنكل ص٢٣٩
٥ - عجائب الهند ص٧ وص٦٥ وغيرها / ٦ - الخطط ج١ ص ٢١٦ / ٧ - رحلة ماركو بولو ص٤٨
٨ - عجائب الهند ص٦٥ / ٩ - بدائع الزهور ج٤ ص٢٧٦ / ١٠ - الروض ص١١٠ .

الآت لرفع المراسي ١ . وللمراسي اهمية كبيرة في الاسطول لأنها تساعد علي ارساته وايقافه عند الضرورة . وهي من المعدات المهمة في المراكب التي لها علاقة في تثبيت المركب عند ارساته وترفع عند سيره .

هذه هي اهم وسائل اجزاء الأسطول التي كان يستخدمها العرب في مراكبهم . وهي وسائل مهمة بالنسبه للزمن والعصور التي نحن بصددها . وفي احكام صنعها وضبط استعمالها يتوقف نجاح الاسطول وتفوقه في اعماله الحربية البحرية . - ولننتقل الآن للبحث عن دور الصناعة .

---

١ - Naval, P 15

الباب الثالث

دار الصـــناعـــة

مقـــدمـــة

يقول لامنس ان الكلمة الأفرنسية والأسبانية Arsenal والفلانية Darsanale والبرتغالية Arsenal والطليانية Arzenale, Arzena اتية من الكلمة العربية الصناعة او دار الصناعة ١ . وقد اخذ الأوربيون هذه الكلمة من العرب واعادوها لهم بواسطة الترك بلفظ اخر وهو الترسانة اوالترسخانة فظنها البعض انها كلمة اوربية في حين انها عربية من اصل عربي . قال زيدان " ويراد بدار الصناعة عندهم (العرب) ما نعبر عنه اليوم بالترسخانه وهما منقولتان عن تلك لأن الفرنج لما دخلوا بلاد العرب كان في جملة ما اقتبسوه عنهم صناعة المراكب كما اقتبسها العرب من اهلها قبلهم . وسمي الاسبان دار الصناعة Dareinah واخذها عنهم سائر لغات اوربا فتقلبت بالنحت حتي صارت ارسنال Arsenal واخذها العرب عن الأسبان Tarsanah بطريق التركية فظنوها تركية فعربوها ترسخانه وهي اولي ان تسمي دار الصناعة " ٢

ان في تطور هذه الكلمة وانتقالها من اللغة العربية الي اللغات الأجنبية وعودتها بشكل آخر عن طريق الأتراك وقبول العرب لها بشكلها الجديد دون أن يعرفوا اصلها العربي لدليل واضح علي ادوار الأنحطاط التي مرت بها اللغة العربية والعرب انفسهم في العهد التركي والعهود التي تبعته حتي انهم جهلوا ماضيهم الزاهر الذي خلفه اجدادهم لهم ونسوا ما ترك لهم اباؤهم من اصطلاحات فنية ومآثر علمية في فنون البحر وغيرها من العلوم . وظنوا ان كل ما وصل اليهم عن طريق الغرب او الأمم الأخري هو من مخلفات هذه الأمم مع ان اولئك اخذوا شيئا كثيرا عن تراث العرب القديم . ويعرف ابن مماتي الصناعة بقوله " صناعة العمائر فيها تنشؤ المراكب ولها مستخدمون يستدعون ما يحتاج اليه ويطلق لهم المال والأصناف ويسترفع منهم الحسابات. وفيها مايباع من حطام وغيره وترد حسابا ناتهم " ٣

اما المقريزي فانه يعرفها بوجهيها اللغوي والفني فيقول " لفظ الصناعة بكسر الصاد ماخوذ من قولك صنعه يصنعه صنعا فهو مصنوع . وصنيع عمله واصطنعه اتخذه . والصناعة ما يستصنع من امر . هذا اصل الكلمة من حيث اللغة . واما في العرف فالصناعة اسم لمكان قد اعد لأنشاء

---

١ ـ ملاحظات لامنس ص٣٢٧ / The Orient P 366 ٢ ـ التمدن ج١ ص ١٩٩ وحقائق الأخبار ج ١ ص١٥

٣ ـ قوانين الدواوين ص١٦

المراكب البحرية التي يقال لها السفن " ١

فالصناعة اذن مكان تصنع فيه المراكب وفيه عمال ومستخدمون يقومون بالاعمال الضرورية من بناء وانشاء للسفن والمعدات والضرورية لها ويتناولون مرتباتهم واجورهم من اموال الدولة

وقد قسمت الكلام عن دار الصناعة الي ثلاثة فصول

الفصل الأول - المواد المستعملة في بناء الأسطول.

الفصل الثاني . - كيفية صنع المراكب.

الفصل الثالث . - مراكز دور الصناعة .

الفصل الأول

المواد المستعملة في بناء الأسطول

ان المادة الرئيسية لبناء الأساطيل هي الخشب . اذ ان هذه الصناعة تعتبر من نوع " النجارة " كما يقول ابن خلدون ٢ فالخشب هو الأساس في تركيب المراكب وصنعها . الا ان وصل الألواح بعضها ببعض وتكوينها بشكل خاص يحتاج لربطها بمسامير من حديد او بالياف بعض الأشجار الخاصة . واخيرا تطلي هذه المراكب بمادة تحفظها من الفساد وهي اما القار او دهن القرش او مواد اخري غيرها سأتكلم عنها . وفي بحث مواد بناء الاسطول سأتكلم عن هذه الأسس الثلاثة الخشب والحديد والقار

الخشب

منذ ان فكر المسلمون بتأسيس اسطول بحري جابهتهم مشكلة الأخشاب ووجودها في البلاد . وفي خلال العصور الاسلامية كلها نلاحظ ان هذه المشكلة هي الرئيسية في صنع المراكب . لذلك نجد ان معظم مراكز دور الصناعة كانت تبني في الأماكن التي يتوفر فيها الخشب.

فقد اسس الأمويون مراكز صناعاتهم كما سنري في الساحل السوري نظرا لتوفر الأخشاب فيه فقد كانت الجبال الممتدة علي طول هذا الساحل مغطاة بالغابات وكانت اشجار هذه الغابات تحدر الي الثغور والي دور الصناعة . واهم انواع الأخشاب الصالحة لبناء السفن هو الصنوبر يذكر ابن حوقل عن حصن التينات بقرب مدينة الاسكندرونة ما يلي " وكذلك التينات حصن كان علي

---

١ - الخطط ج ٢ ص١٨٩ / ٢ - المقدمة ص٣٤٣ .

على شط البحر فيه مقطع لخشب الصنوبر الذى كان ينقل الى الشام ومصر والثغور منه مالا يحصى " ١ ويقول صالح بن يحي ان سلاطين المماليك كانوا يعمرون مراكب — الاسطول من احراج بيروت ٢ . اما في غرب المملكة الاسلامية في الاندلس فقد كانت الحالة نفسها . اذ ان دور الصناعة كانت مؤسسة في مناطق الاخشاب او في امكنة قريبة منها فقد كانت المراكب تنشأ في طرطوشه يقول ابن عبد المنعم " انشاء المراكب الكبار من خشب جبالها وبجبالها خشب الصنوبر الذى لايوجد له نظير في الطول والغلظ ومنه تتخذ الصواري والقرى وهو خشب احمر صافي البشرة بعيد التغيرلايفعل فيه السوس مايفعله في غيره من الخشب ... وهي كثيرة شجر البقس ... وخشبها الصنوبر له خاصية في الجودة تفوق جميع خشب الامصار " ٣ . كذلك كانت مدينة القصر بالاندلس مشهورة بشجر الصنوبر وبها الانشاء الكثير ٤ وبجانب مدينة شنتمريه بالاندلس يوجد جزائر في البحر ينبت فيها شجر الصنوبر ولذلك كانت دار صناعة للاساطيل ٥ . كما ان جزيرة يابسه ينبت فيها الصنوبر الجيد العود للانشاء وعدة المراكب ٦ وكذلك بجايه بها دار صناعة لانشاء الاساطيل والمراكب والسفن — والحراب لان الخشب في اوديتها وجبالها كثير موجود ويجلب اليها من اقاليمها الزفت البالغ الجودة والقطران وبها معادن الحديد الطيب موجودة ٧ .

اما في شرق المملكة الاسلامية في العراق فكانت الاخشاب قليلة لذلك كانوا يأتون بها من الاطراف المجاورة مثلا من مدينة بوشنج التي يقول عنها الاصطخرى " وبها من اشجار العرعر ماليس لجميع خراسان في بلد ويحمل هذا الخشب الى سائر النواحي " ٨ . ثم من الهند يأتون بخشب الساج الهندى وهو من احسن

---

١ — صورة الارض ج ١ ص١٨٢ والاصطخرى ص ٦٣ / ٢ — تاريخ بيروت ص ٣٤ / ٣ — الروض ص١٢٤ والادريسي ص ١٩٠ / ٤ — الروض ص١٦١ / ٥ — نفس المصدر ص١١٥ / ٦ — نفس المصدر ص ١٦٨ / ٧ — الادريسي ص ٩٠ / ٨ — الاصطخرى ص٢٦٨ .

انواع الخشب ١ كما ان اهل عمان يأتون من جزائر الهند بخشب النارجيل الذى يغرسه بعض نساك الهند للاجر ويقص لنا سليمان التاجر عن سبب زرع هذه الاشجار وجلبها بواسطة تجار عمان يقول " وبالهند عباد في شرابعهم يقصدون الجزاير التي تحدث في البحر فيغرسون بها النارجيل ويستنبطون بها المياه للاجر ... وبعمان من يقصد الى هذه الجزاير التي فيها النارجيل ومعهم الات النجار وغيرها فيقطعون من خشب النارجيل ماارادوا فاذا جف قطع الواحا ويفتلون من ليف النارجيل مايخرزون به ذلك الخشب ويستعملون منه مركبا وينحتون منه ادقالا وينسجون من خوصه شراعا ومن ليفه خرابات وهي القلوس عندنا فاذا فرغوا من جميعه شحنت المراكب بالنارجيل فقصد بها عمان فبيع وعظمت بركته ومنفعته اذ كان جميع مايتخذ منه غير محتاج الى غيره " ٢ وبالحق ان هذا النوع من الشجر وهو النارجيل كاف لوحده لعمل المراكب ولا يحتاج لصنع الجلاب لغيره فمنه يؤخذ الخشب والحبال والاثقال والاشرعة وكل — مايحتاج اليه لصنع تلك الجلاب .

اما في مصر فالحراج موجودة في الوجه القبلي ويعدد ابن مماتي مواطنها فيقول " بالبهنساء في سفط رشين ، ومنبال ، وشطال ، وبالاشمونين ، وبالسيوطيه وبالاخصميه ، وبالقوصيه " ٣ ويقول المقريزى عن هذه الحراج انها " اشجار من سنط لاتحصى كثرة " ٤ وفي مدينة انصنا من صعيد مصر على شاطئ النيل الشرقي يوجد اشجار البنج قال ابو حنيفه الدينورى " ولا ينبت البنج الا بانصنه وهو عود ينشر منه الواح للسفن وربما ارعفت ناشرها ويباع اللوح منها بخمسين دينار . وكان او نحوها واذا شد لوح منها بلوح وطرح في الماء ستة ايام صار لوحا واحدا " ٥ وكان في جزيرة الروضة بالنيل بعض الاشجار التي قطعها الملك الصالح نجم الدين ايوب يقول المقريزى " ... فانه لما عمر الملك الصالح مناظر قلعة الجزيرة قطعت النخيل ودخلت في العمائر . واما الجميز فانه كان بشاطئ بحر النيل صف جميز

١ـ الحضارة الاسلامية ج ٢ ص ٢٨٠ / ٢ـ سلسلة التواريخ ص ١٣٠ـ ١٣١ / ٣ـ
٣ـ قوانين ص ١٧ / ٤ـ الخطط ج ٢ ص ١٩٤ / ٥ـ نفس المصدر ج ١ ص ٢٠٤ وفي الحضارة الاسلامية يقول ان الدينورى في كتابه النبات الذى نقل عنه المقريزى يقول شجر البنج فحرفها المقريزى الى بنج هامش ص ٣٦٤ /

يزيد على اربعين شجرة . قطعت جميعها في الدولة الظاهرية وعمر بها شواني عوض الشواني التي كان قد سيرها الى جزيرة قبرص " ١ .

وفي زمن السلطان صلاح الدين كانت احراج الوجه القبلي من الديار المصرية محمية ومحفوظة يقول ابن مماتي " ولم تزل الاوامر السلطانية خارجة بحراستها — وحمايتها والمنع منها والدفع عنها وان توفر على عمائر الاساطيل المظفرة . ولا يقطع منها الا ماتدعو اليه الحاجة وتوجده الضرورة " ٢ الا انه لما انحطت الدولة اهمل امر هذه الاحراج فقطع منها الشيء الكثير يصف ابن مماتي الاقسام التي قطعت ويتعجب من كثرة مابقي منها يقول " الا ان الولاة والمقطعين وجهوا اليها ونحوا عنها فقطعوا اشجارها ومحوا اثارها حتى لم يبق بقوص منها الا مالا يؤبه به والا مالا يعتد به واما حراج البهنساء فانه كان ورد عليّ كتاب كريم من السلطان رضي الله عنه وسقى عهده وروض لحده بان اندب اليها من يكشف عما استئافه المقطعون من ارضها فوجدت المأخوذ منها ثلاثة عشر الف فدان . ولا يتعجب من تعديهم على مثل هذه الجملة بل يتعجب من حراج يتحيف من جملة ارضها ثلاثة عشر الف فدان ولا يؤثر ذلك فيها " ٣ وبالرغم من كثرة الاخشاب في زمن صلاح الدين فقد كان يسمح لموظفي الديوان ان يقابضوا التجار بدلا عن البضائع التي يأخذونها من مصر بالخشب والحديد يقول ابن مماتي " ويورد اصل ثمن هذا الشب من جماعة ارتفاع المتجر على عادة جرت وقاعدة استقرت والذى يشترى بالمتجر الخشب والحديد وحجارة الطواحين والبياض فاما غيره فلم تجر العادة به الا ان يؤمر المستخدمون به" ٤

ولما اشتدت وطأة الصليبيين على البلاد واضطر الايوبيون والمماليك لبناء — الاساطيل لرد غائلة هذا العدو المهاجم كثرت الحاجة للاخشاب واضطر بعض السلاطين لقطع بعض اشجار البساتين يقول ابن تغرى بردى في حوادث سنة ٨٦٣ " وقطع سنقرقرق شبق اشجار البساتين باليد العاسفة واخذها بغير ثمن حتى انه خرب عدة بساتين وفعل فعال من ليست في قلبه رأفة ولا رحمة " ٥ ثم يقول " ولم تبتهج الناس

---

١ — الخطط ج ٢ ص١٨٥ / ٢ — قوانين ص١٧ / ٣ — نفس المصدر ص١٧ / ٤ — نفس المصدر ص ٢٣ / ٥ — حوادث ج ٢ ص ٣٢٥ وايضا النجوم ~~جزء~~ جزء ٧ قسم٢ ص٥٤٦ و بدائع الزهور ج ٢ ص٦٢ .

لنزول السلطان ولا لنظر المراكب ذلك الابتهاج الزائد الذى هو عادة العوام في ادنى شيء ... وما ذاك الا لما طرق الناس في عمل المراكب المذكورة من الظلم والعسف واخذ اموال الناس واخراب البساتين وقطع اشجارها واخذ اخشابها بغير ثمن ولا مقابل وايضا ظلم الصناع في عمل المراكب من النجارين والنشارين والقلافطة وارباب البضائع التي تحتاج اليها المراكب وهي انواع كثيرة " ١ وفي سنة ٣٨٦ هـ احرق الروم الاسطول الراسي في ساحل المقس فاضطر عيسى بن نسطورس وزير الخليفه العزيز بالله الى بناء مراكب جديدة عوض التي احرقت ويقول المقريزي " وامر عيسى بن نسطورس ان يمد للوقت عشرون مركبا وطرح الخشب وطلب الصناع وبات في الصناعة وجد الصناع في العمل ... وجد عيسى بن نسطورس في عمل الاسطول وطلب الخشب فلم يدع عند احد خشب علم به الا اخذه منه " ٢ ويقول يحي بن سعيد الانطاكي ان الحاجة للخشب احوجت ابن نسطورس حتى لقلع سقف دار الضرب في مصر فهو يقول " حتى — قلعت صوار كبار كانت مسقفة على دار الضرب بمصر بجانب دار الشرطة وفي البيمارستان الذى في سوق الحمام ونشروا جميعها واعدوا اسطولا آخر " ٣

وقد اضطر السلاطين في مصر الى استيراد الخشب من سورية لبناء الاساطيل فاستورد يلبغا سنة ٧٦٧ هـ الاخشاب من البلاد الشامية والحلبية يقول ابن تغرى بردى " وبدأ يلبغا في عمارة المراكب وبعث مراسيم الى سائر البلاد الشامية والحلبية باخراج جميع النجارين وكل من يعرف يمسك منشارا بيده ، ولا يترك واحد منهم وكلهم يخرجون الى جبل شغلان وهو جبل عظيم فيه اشجار كثيرة من الصنوبر والقرو ونحو ذلك وهذا الجبل بالقرب من مدينة انطاكية وانهم يقطعون الالواح وينشرون الاخشاب للمراكب ويحملونها الى الديار المصرية فامتثل نائب حلب ذلك وفعل ماامر به ووقع الشروع في عمل المراكب " ٤ وفي سنة ٨٦١ زمن الملك الاشرف اينال العلائي " سافرت الامراء المعينيون الى الجون بير التركية لاجل قطع الاخشاب " ٥ ومنطقة الجون من اغني

١ــ حوادث ج ٢ ص ٣٤١ / ٢ــ الخطط ج ٢ ص ١٩٦ / ٣ــ الحضارة الاسلامية ج ٢ ص ٣٦٤ نقلا عن يحي بن سعيد الانطاكي ص ١١٣ آ / ٤ــ النجوم ج ٥ ص ١٩٥ ٥ــ نفس المصدر ج ٧ قسم ٢ ص ٤٨٧ وص ٤١٢ وفي حوادث ج ٢ ص ٣١٧ وبدائع الزهور ج ٢ ص ٥٩ .

البلاد بالاخشاب وبالرغم من ذلك فلم تكن هذه الاخشاب جميعها تسد حاجة المماليك في بناء المراكب لذلك اضطروا الى ان يستوردوا الاخشاب من الامم الخارجة عن سلطانهم حتى والمعادية لهم . ففي سنة ٩١٦ هـ ارسل السلطان قانصوه الغوري يونس العادلي الى ملك الروم عثمان ليشترى له خشبا وحديدا وبارودا لعمارة المراكب وتجهيزها فارسل له طلبه دون مقابل ١ وكان السلاطين يستوردون الاخشاب لبناء السفن من البندقية وظلت التجارة قائمة بين الطرفين من القرن العاشر حتى القرن التاسع عشر ويقال ان مصر كانت تستورد الخشب الذى تصنع منه اشرعة السفن الجارية في النيل من الغابة السوداء بالمانيا في وقتنا هذا ٢ وقد احتج امبراطور البيزنطي لدى الدوج على بيع البنادقة الاخشاب لاعدائه المسلمين فامر الدوج بايقاف بيع الخشب للعرب ولم يسمح الا بامدادهم بالخشب الذى لايصلح لانشاء السفن . ولهذا شرط ان يكون من البنج - والسنديان على ان لايتجاوز طول اللوح خمسة اقدام وعرضه نصف القدم ٣ .

وقد اثارت مشكلة تصدير الاخشاب والحديد من قبل البنادقة والجنويين وغيرهم من الامم الاوربية لمصر والمتاجرة مع اهلها واستيراد البضائع منها حفيظة البابأوات . اذ ان الامم الاوربية داخلة في حرب صليبية مع المسلمين وهؤلاء التجار يجلبون المواد الحربية لاعدائهم ويقوون بها شوكتهم وليس فقط يأتون بالمواد الحربية بل يأخذون ايضا حاصلات البلاد والبضائع التي تأتي من الهند ويوسعون بذلك ثروة المسلمين لذلك منع الباباوات المتاجرة مع مصر والاقوام والشعوب العربية الساكنة في الاندلس ومع البربر والاتراك والتتر الذين لهم علاقة مع المسلمين وذلك لسببين اولا ليمنعوا عنهم المواد الحربية ثانيا ليضعفوا الحركة التجارية في هذه البلاد وليقللوا الثروة العامة . وهذه الفكرة قادت البابا نقولا الرابع ان ينشر حرما كنسيا في سنة سقوطعكا لكل من يتعامل مع البلاد الخاضعة لحكم السلاطين . ومنع تصدير جميع انواع الاسلحة والخيل والحديد والخشب والعبيد (المماليك)

١- بدائع الزهور ج ٤ ص١٩٦ / ٢- هامش الحضارة الاسلامية ج ٢ ص٣٦٤ /
٣- نفس المصدر ج ٢ ص٣٦٤ .

وغير ذلك من المواد واعلن ان كل مخالف لهذا الأمر يتعرض لقطع المعملة معه الا اولا وحرمانه الابدى من الحقوق المدنية والدينية فلا يورث ولا تقبل وصيته وقد جدد البابا هذا المنع ثانية في منشور بابوى وجهه للجنويين منع فيه هؤلاء التجار من زيارة البلاد العربية مطلقا .. وقد وجد الجنويون هذا المنع شديدا عليهم لذلك حدد البابا المواد التي يمكنهم المتاجرة بها . وقد طبق هذا الحرمان باشد غلوائه من قبل البابا Boniface VIII (١٢٩٤ حتى ١٣٠٣) وفي زمن Benoit XI (١٣٠٣ — ١٣٠٦) فالاول شدد المنع على المواد الحربية والثاني حتم على البنادقة ان لايصدروا لمصر من المواد الا المختومة بختمه . ولكن التجار بدأوا يتلاعبون بالاختام لذلك عندما استلم البابا Clément مركز البابوية اعلن سنة ١٣٠٨ ان كل بضاعة دون استثناء معلن عنها بالمنع تقع بايدى الصليبيين تصادر ويؤخذ اصحابها عبيدا لمن ضبطهم وتؤخذ البضائع المصادرة للمحاربين الصليبيين ... " ١

تلك هي مشكلة الاخشاب المادة الحيوية في بناء الاساطيل التي ازداد — تأزمها في زمن الصليبي حتى اثارت نعرة البابوات الذين حاولوا جهدهم لعدم تصدير الخشب للمسلمين .

الـــحديد

الحديد هو المادة الرئيسية الثانية في تركيب المراكب وبنائها الا ان اهميته اقل ولا شك من اهمية الخشب لاسيما وان كثيرا من المراكب لاتحتاج في بنائهـا للحديد بل يستغنى عنه بامراس القنبارى والياف النارجيل وامثال هذه المواد التي كانت تخبط بها السفن كما سيمر معنا في الكلام عن صناعة السفن . واما الدليل على ان الحديد كان يستعمل في المراكب العربية فهو قول صالح بن يحي " ولما توفي يلبغا العمرى في ليلة الاحد العاشر ربيع الاخر سنة ٧٦٨ هـ ١٨٦٧ م بطلوا العمارة في المراكب المذكورة ولم ينزل منهم الى البحر سوى حمالتين كبار ...

١ــ Heyd, Vol II, P 23-27

ثم بقوا بعد ذلك في ساحة بيروت حتى تلفا . وكذلك تلف بقية الشواني التي لم تنزل الى البحر تحت المسطبة المذكورة . وكان قد صرف عليها مال عظيم فذهب ضياعا لم يستفد منهم سوى الحديد بعدما اخذت الناس منه شيئا كثيرا " ١

والكلام عن الحديد لايتعدى القول انه كان في البلاد الاسلامية بعض مناجم لهذا المعدن ولا يمكنني تعداد جميع مناجم الحديد الموجودة في البلاد الاسلامية لاني لم اتعمد جمع الاخبار عنها وانما لدي بعض الاشارات التي مررت بها عرضا في بحثي عن الاسطول ومن ذلك ان بني الاغلب كان لهم مناجم للحديد في مدينة بلرم من جزيرة صقليه يستخرجون منه مايسد حاجتهم لصنع المراكب ٢ كما انه كان في افريقيا مناجم كثيرة للحديد يذكر ابن حوقل بعضها عند ذكر مدينة مجانه " ... فلا مجانه مدينة ذات سور من طابيه ... وبها معادن حديد وفضه " ٣ كما انه يشير الى وجود مناجم للحديد في مدينة بونه يقول عنها عند كلامه عن المغرب مايلي " ومدينة بونه وهي على البحر وبها معادن حديد كثيرة ويحمل منه الى — الاقطار الغزير الكثير " ٤ وقد كانت جزيرة شلطيش من جزائر الاندلس شهيرة بصناعة مراسي الحديد التي ترسي بها السفن ٥ .

لاشك ان البلاد الخاضعة للحكم الاسلامي كان فيها معدن الحديد وان مناجمه مبثوثة في الجبال هنا وهناك وان العرب استخرجوا حاجتهم منها وبالرغم من ذلك فقد رأينا ان الخلفاء والسلاطين في عهد المماليك استوردوا الحديد من الخارج ولا حاجة لاعادة النصوص التي ذكرتها عند البحث عن الخشب التي تبين ان العرب استوردوا الحديد من مناطق مختلفة لصنع الاسلحة وبناء الاسطول .

القار :

القار مادة سوداء تطلى بها السفن ٦ وقد وصف الشعراء المراكب بسوادها الفاحم بسبب طلائها بالقار فقال ابن الرومي :

١— تاريخ بيروت ص ٣٥ / ٢— صورة الارض ج ١ ص ١٢٣ / ٣— نفس المصدر ج ١ ص ٨٤
٤— نفس المصدر ج ١ ص ٧٦ / ٥— الروض ص ١١٠ / ٦— المحيط مادة "قور" .

اليك ركبنا بطن جوفاء جونة تخايل في درع من القار فاحم ١

وقال ابو الطيب المتنبي يصف المراكب ويشبهها بالخيل الدهم للون القار الأسود المطلية به يقول

دهم فوارسها ركاب ابطنها مكدودة وبقوم لابها الألم ٢

ويروي المقريزي عن محمد بن داود في قصيدة يذم بها احمد بن طولون

له مراكب فوق النيل راكدة فما سوي القار للنظار والخشب٣

والقار موجود في عدة اماكن من البلاد الأسلامية اهمها مكان يعرف " بالقيارة " بمقربة من دجلة بالجانب الغربي منها . ومكان بين البصرة والكوفة ذكرهما ابن جبير ووصفهما لنا بقوله " وأن القار عجيب يجلب من عين بين البصرة والكوفة وقد انبط الله ماء هذه العين ليتولد منه القار فهو يصير في جوانبها كالصلصال فيجرف ويجلب وقد انعقد "٤ ويقول ايضا " مررنا بموضع يعرف بالقيارة بمقربة من دجلة وبالجانب الغربي منها وعن يمين الطريق الي الموصل فيه وهدة من الأرض سوداء كأنها سحابة قد انبط الله فيها عيونا كبارا وصغارا تنبع بالقار وربما يقذف بعضها بحباب منه كانها الغليان ويصنع له احواض يجتمع فيها فتراه عند الصلصال منبسط علي الأرض اسود املس صقيلا رطبا عطر الرائحة شديد العلك فيلصق بالأصابع باول مباشرة من اللمس وحول تلك العيون بركة كبيرة سوداء يعلوها عليه الطحلب الرقيق اسود تقذفه الي جوانبها فيرسب قارا فشاهدنا عجبا كنا نسمع به فنستغرب سماعه ... وهو يعم جميع البلاد الي الشام الي عكا الي جميع البلاد البحرية "٥ . نعم ان هذا القار يصدر لجميع البلاد لتطلي به المراكب الا ان هناك مواد اخري تقوم مقام القار لدهن المراكب وذلك اما لعدم توفر هذه المادة او بسبب غلاء ثمنها . من هذه المواد التي تستعمل بدل القار دهن بعض انواع الحيتان الذي يسمي دهن القرش يذكر سليمان التاجر الحوت الذي تستخلص منه هذه المادة وكيفية استخراجها منه فيقول " والصيادون اذا ظفروا بها (البال اي الحوت) طرحوها في الشمس وقطعوا لحمها وحفروا له حفرا يجتمع فيها الودك ويغرف من عينها اذا اذابتها الشمس الودك بالحرارة ويجتمع فيباع علي ارباب المراكب ويخلط باخلاط لهم يمسح بها مراكب البحر يسد به خرزها ويسد ايضا ما ينشق من خرزها "٦ . ويذكر ابن جبير هذه المادة وانواع اخري من المواد وهي السمن ودهن الخروع فيقول " فاذا فرغوا من انشاء الجلبة علي هذه الصفة سقوها بالسمن او بدهن الخروع او بدهن القرش وهو احسنها وهذا القرش حوت عظيم في البحر يبتلع الغرقي فيه "٧

---

١ ـ ديوان ابن الرومي ج٣ ص٤٠٥ / ٢ ـ العرف ص٤٤٩ / ٣ ـ الخطط ج٢ ص١٨٠ / ٤ ـ رحلة ابن جبير ص٢٠٧ / ٥ ـ نفس المصدر ص٢١٢ / ٦ ـ سلسلة التواريخ ص١٤٠ / ٧ ـ رحلة ابن جبير ص٤١ والخطط ج١ ص٢٠٣

ويذكر المسعودي نوعًا من المواد التي تدهن بها مراكب اهل البصرة وهو الشحم والنورة يقول " وقد كان اهل البصرة وردوا علي المعتضد في مراكب بحرية بيض مدهنة بالشحم والنورة علي مافي بحرهم "١ وهذه المادة ذكرها ماركو بولو عند وصف مراكب الهند فقال عن تركيبها " والمراكب مصفحة بنوع من الألواح وهذه الصفائح تدهن بشحم معوي ممزوج بنشارة القنب من داخل السفينة وخارجها . والصفائح متصلة بواسطة مسامير حديدية . ولا تدهن هذه السفن بالقار اذ ان القار في هذه البلاد مفقود ولكن يدهن اسفل المركب بالمستحضر الآتي يؤخذ كلس حي مع فتات قشر القنب ويمزجان مع زيت مستخرج من بعض الأشجار والمجموع يشكل نوع من الدهان الذي يحافظ علي لزوجته بصورة دائمة وهو احسن من القار " ٢ فهذه المواد علي اختلاف انواعها تستعمل لطلي المراكب . اما لحفظها من التلف او لسد خروزها او لتطرية اعوادها كما يقول ابن جبير " ومقصدهم في دهان الجلبة ليلين عودها ويرطب لكثرة الشعاب المعترضة في هذا البحر (القلزم) " ٣ ويظهر ان القار كان يستعمل في طلي مراكب البحر المتوسط وبقية المواد كانت تستعمل في دهن مراكب البحار الجنوبية الأخرى .

تلك هي المواد الرئيسية في صنع المراكب وحفظها من التلف ولا شك ان بناء الأسطول قائم عليها لأنها مادته التي يتألف منها . ولنر الآن كيفية صنع المراكب من هذه المواد .

---

١ - مروج ج ٤ ص ١٧٣ / ٢ - رحلة ماركو بولو ص ٣٦٢ / ٣ - رحلة ابن جبير ص ٤١ .

الفصـل الثانـي

كيفيـــة صنـع المـراكــب

لما بدأ العرب صنع الأساطيل وتاسيس دور الصناعة لم يكن لهم خبرة في هذه الصنعة لأنهم ليسوا امة بحرية ولم يعقفوا ركوب البحار سابقا لذلك استعانوا بالامم الأخرى في صنع مراكبهم" وتقوب كل ذي صنعة البهم بمبلغ صناعته " ١ كما يقول ابن خلدون . وهذه الصنعة تحتاج الي خبرة في الهندسة والي معرفة التناسب في المقادير لأخراج الشيئ علي وجه الأحكام لذلك لا يستغني فيها من الرجوع الي المهندس ٢ ولم يمض مدة طويلة من الزمن حتي تعلم العرب هذه الصناعة واتقنوها واسسوا دورا لها في مختلف اصقاع المملكة الأسلامية كما سنري.

والسفن التي صنعها العرب علي قسمين منها سفن مسمارية ادخل في بنائها المسمار وهي سفن البحر المتوسط ومنها ماكانت تخاط بحبال الليف كسفن بحر القلزم والمحيط الهندي بما فيه الخليج الفارسي وكانت هذه الطريقة الأخيرة هي الطريقة المعروفة في انشاء السفن في القديم عند جميع الأمم ٣ وسأتكلم عن صناعة المراكب في كلا الطريقتين.

ومما يؤسف له ان المصادر العربية قل ان تحدثنا عن صناعة السفن المسمارية وكل ما مرت به في تراجمي عن دور الصناعة ما هي الا اشارات للمراكز الصناعية دون التعمق في وصف صنع السفن والعملية التي تجري في تشكيل السفينة فقد ولقد مر الرحالة الكبير ابن بطوطة بمدينة الزيتون في الصين وشاهد انشاء السفن فيها ولعله من المستحسن ان اذكر ما شاهده ليكون لنا فكرة عن انشاء المراكب في القرن الثامن الهجري او القرن الرابع عشر ميلادي وهو العصر الذي عاش فيه ابن بطوطة لنتعرف عن صنع السفن عند الصينيين تلك الأمة التي كان لها علاقة تجارية مهمة مع العرب في ذلك الزمن . ولعل انشاء السفن عند هاتين الأمتين لا يختلف في اساسه كثيرا يقول " وكيفية انشائها انهم يصنعون حائطين من الخشب يصلون ما بينهما بخشب ضخام جدا موصولة بالعرض والطول بمسامير ضخام طول المسمار منها ثلاثة اذرع فاذا التأم الحائطان بهذه الخشب صنعوا علي اعلاهما فرش المركب الاسفل ودفعوها في البحر واتموا عمله " ٤

فحسب قول ابن بطوطة كان يبدأ بصنع المراكب بوضع اساس او قاعدة من الخشب ثم يبني فوقها

---

١ ـ المقدمة ص٤١١ / ٢ ـ المصدر نفسه ص٣٤٣ / ٣ ـ الحضارة الاسلامية ج٢ ص٣٦١ ويقول سليمان التاجر " ان الخشب المخروز لا يكون الا لمراكب سيراف خاصة ومراكب الشام والروم مسمورة غير مخروزة " سلسلة التواريخ ص٨٨ ويقول المسعودي " الواح المراكب الساج المثقبة المخيطة بليف النارجيل من مراكب قد عطبت فتقاذفت بها الأمواج من مياه الأبحار وهذا لا يكون الا في البحر الحبشي لان مراكب البحر الرومي والعرب كلها لها مسامير الحديد " مروج ج١ ص١٣٨ / ٤ ـ رحلة ابن بطوطة ج٢ ص١٤١

فرش المركب الأسفل ثم يدفع المجموع الي البحر وتكمل عملية صنع المركب في داخل البحر .

وقد وصف ابن بطوطة المراكب التي تبني علي هذه الصورة من انها كبيرة جدا يقول منها

" ويكون في المركب منها اثنا عشر قلعا فما دونها الي ثلاثة وقلعها من قضبان الخيزران منسوجة كالحصر لاتحط ابدا ويديرونها بحسب دوران الريح واذا ارسوا تركوها واقفة في مهب الريح ويخدم في المركب منها الف رجل منهم البحرية ستمائة ومنهم اربعمائة من المقاتلة وتكون فيهم الرماة واصحاب الدرق والجرخية وهم الذين يرمون بالنفط ويتبع كل مركب كبير منها ثلاثة النصفي والثلثي والربعي ولا تصنع هذه المراكب الا بمدينة الزيتون من الصين او بصين كلان وهي صين الصين ... وعلي جوانب تلك الخشب يكون مجاذيفهم وهي كبار كالصواري يجتمع علي احدها العشرة والخمسة عشر رجلا ويجذفون وقوفا علي اقدامهم ويجعلون للمراكب اربعة ظهور ويكون فيه البيوت والمصاري والغرف للتجار والمصرية منها يكون فيها البيوت والسنداس وعليها المفتاح يسدها صحبها ... والبحرية يسكنون فيها اولادهم ويزدرعون الخضر والبقول والزنجبيل في احواض خشب " ١

فهذه الصورة لمراكب الصين التي يصورها ابن بطوطة تذكرنا بالمراكب الحربية للأسطول العربي التي ذكرناها سابقا فلعل تلك المراكب العربية كانت تصنع علي غرار الجنوك والمراكب الصينية . ولا يمكنني تأكيد ذلك ولكن وصف ابن بطوطة السابق لصنع مراكب الصين نور يضئ لنا السبيل عن كيفية انشاء السفن في ذلك الزمن الذي كان فيه ابن بطوطة .

وقد ذكر صالح بن يحي ان بيدمر من رجال المماليك قد عمر مسطبة بظاهر بيروت لبناء المراكب عليها " وكانت المراكب تعمل بها علي بعد من البحر " ٢

فالمراكب العسكرية اذن يبدأ بانشائها اولا قرب البحر علي قاعدة او مسطبة . ويبدأ اولا ببناء فرش المركب او اساسه ثم يكمل الأنشاء الي ان يتم . وعندها يلقي المركب في البحر . ان هذا الوصف لبناء السفن العسكرية غير كافي ليعطينا صورة تامة عن كيفية بناء السفن في دور الصناعة ولعل وصف بناء السفن المخيطة يكمل لنا الصورة ويجليها امام اعيننا اكثر من قبل .

وصف الرحالة ابن جبير عند مروره بمدينة عيذاب علي بحر القلزم الجلاب المستعملة في ذلك البحر فقال عنها " والجلاب التي يصرفونها في هذا البحر الفرعوني (القلزم)

---

١ ـ رحلة ابن بطوطة ج ٢ ص١٤٠ ـ ١٤٢ / ٢ ـ تاريخ بيروت ص٣٤ .

ملفقة الأنعام لا يستعمل فيها مسار الحديد انما هي مخيطة بامراس من القنباري وهو قشر جوز النارجيل يدرسون الي ان يتخيط ويفتلون منه امراسا يخيطون بها المراكب ويخللونها بدسر من عيدان النخيل " ١ هذا وصف علم ذكره ابن جبير في وصف الجلبه لم يبين فيه كيف كانت تخيط الأخشاب بامراس القنباري وقد اوضح ذلك بعض الشئ الرحالة ماركو بولو عند وصفه لمراكب هرموز في رحلته التي قام بها الي الخان قبلاي في الصين قال " وتثقب الألواح بعناية فائقة من نهاياتها بواسطة مخرز من الحديد ثم يدخل في الثقوب مسامير من الخشب وتثبت الألواح بامراس مصنوعة من قشر جوز النارجيل ~~بحيث~~ ان تبقي طويلا تحت الماء . ولا يستعمل القار لطلي قعر المراكب في هذا القطر بل يستعاض عنه بزيت يستخرج من شحم السمك الممزوج بقطعات قشر القنب البالي . وهذه المراكب لها صاري ودفة وسطح . واحد فقط . وقبل ان تشحن بالبضائع تغطي اولا بالجلود وتوضع بعد ذلك الخيول فوقها وتشحن للهند... " ٢

ففي هذا النص يبين ماركو بولو كيفية تخيط الواح المراكب وذلك بثقب اطراف الألواح بعد ان تكون تركت في الماء طويلا حتي يلين عودها ثم تخيط هذه الألواح بامراس القنباري وذلك بان تدخل هذه الامراس في الثقوب ثم تدهن بشحم خاص يسد هذه الثقوب وتغطي بجلود الحيوانات وتشحن بالبضائع .

ويؤيد قول ماركو بولو السابق من ان الواح المركب تخرز من نهايتها بمخرز ثم يدخل في ثقوب الألواح امراس ليف النارجيل ومعهم الات النجار وغيرها فيقطعون من خشب النارجيل ما ارادوا فاذا جف قطع الواحا ويفتلون من ليف النارجيل ما يخرزون به ذلك الخشب ويستعملون منه مركبا " ٣

وفي المتحف البحري الوطني بمدينة غرينوتش بانكلترا مركبان صنعا في القرن التاسع بمدينة مسقط علي طريقة الخياطة وصفهما مورلاند Moreland بوصف قريب لما تقدم ٤ . والمهم من الوصف هو انه يبين ان في تركيب ذينك المركبين لا يوجد ~~أية~~ مسامير من الحديد ولا من الخشب وان ماقاله ماركو بولو عن ~~الـ~~ مسامير الخشب في تركيب مراكب هرموز ان هو الا تحليل من المترجم ناتج عن غموض النص الفرنسي القديم اذ ليس هناك مسامير من اي نوع كان في المراكب المخيطة ٥

---

١ - رحلة ابن جبير ص٤١ والمقريزي ج ١ ص٢٠٣ / ٢ - رحلة ماركو بولو ص٤٨ - ٤٩ وقد انتقد هذا النص العلامة مورلاند وقابله مع غيره من النصوص الكثيرة التي تصف هذا النوع من المراكب وبين ان المترجم قد تصرف بالترجمة دون تدقيق وقد بحث ذلك مورلاند في المجلة الاسيوية الملكيه ص٦٣-٧٤

٣ - سلسلة التواريخ ص١٣٠ / ٤ - J.R.A.S.P.65 / ٥ - نفس المصدر ص٧٠ - ٧١ =

وقد علل المؤرخون عدم وجود المسامير في هذه المراكب المخيطة عدة تعاليل . فقال المسعودي " ومراكب البحر الحبشي لا يستقيم فيها مسامير الحديد لان ماء البحر يذيب الحديد فترق المسامير في البحر فتضعف فاتخذ اهلها الخياطة بالليف بدلا منها وطليت بالشحم والنورة " ١ اما ابن جبير فيعلل ذلك بقوله " فاذا فرغوا من انشاء الجلبة سقوها بالسمن او بدهن الخروع او بدهن القرش وهو احسنها ومقصدهم في دهان الجلبة ليلين عودها ويرطب لكثرة الشعاب المعترضة في هذا البحر ولذلك لا يصرفون فيها المركب المسماري " ٢ ويذكر بن بطوطة نفس التعليل عند وصف مراكب الهند والصين فيقول " لأن ذلك البحر (الهندي) كثير الحجارة فان كان المركب مسمرا بمسمير حديد صدم الحجارة فتكسر وان كان مخيطا بالحبال اعطى الرطوبة فلم ينكسر " ٣ اما المقدسي فيعلل عدم وجود المسامير في هذه المراكب لسبب وجود جبال المغنطيس في البحر الغربي تجذب المسامير اليها ٤ اما ماركو بولو فيعلل ذلك بقوله " ان الخشب قاسي جدا ولا يتشقق لكي يدخل المسمار فيه فعند المحاولة بادخال المسمار فانه اما ان ينحني واما ان ينكسر " ٥

هذه التعاليل المختلفة لعدم وجود المسامير في المراكب المخيطة ترينا تعاليل المؤرخين في ذلك الزمن للحوادث تعليلا يتناسب مع عقليتهم . فبالرغم من ان بعض هذه التعاليل له وجهه من الصحة الا ان البعض الآخر خاطئ يخالف منطوق العلم الحديث .

وقد كانت السفن بنوعيها المخيطة والمسمارية تصلح ان عطبت او مضى زمن طويل على استعمالها وذلك بان تجلب لدور الصناعة ويعاد خياطة الأقسام المخربة فيها . ودهنها بالشحم والنورة . اما المراكب المسمارية فكانت تصلح بان توضع صفائح ثانية جديدة فوق الأولى ثم تطلى هذه الصفائح الجديدة بالقار او بمادة شمعية . يقول ماركو بولو " وعندما يكون المركب قد استخدم في الأسفار مدة سنة او اكثر يوقف لضرورة اصلاحه . ويصفح غالبا بالواح من خشب توضع فوق الصفائح الأولى وتدهن هذه الطبقة الأخيرة بالشحم والنورة . وكلما احتاجت السفينة الى الأصلاح تعاد العملية نفسها حتى يصير عدد الصفائح ستة . وبعد ذلك تصبح السفينة غير صالحة للأبحار والملاحة " ٦

هذه لمحة خاطفة عن كيفية صنع المراكب المسمارية والمخيطة تبين لنا فيها الأختلاف الكلي في بناء النوعين الذين يمثلان طرازين مختلفين تمام الأختلاف . فالمراكب المسمارية يبنى بعضها للحرب والقتال في عرض البحار . اما المراكب المخيطة فاكثر ما تستعمل لحمل التجار ونقل بضائعهم من مكان لآخر . ولنذكر الآن دور الصناعة التي كانت تبنى فيها السفن .

---

١ - مروج ج ١ ص١٣٨ / ٢ - رحلة ابن جبير ص٤١ / ٣ - رحلة ابن بطوطة ج ٢ ص ١٥٠ / ٤ - البدء والتاريخ ج ١ ص٨٩ طبعة هوارج / ٥ - رحلة ماركو بولو ص٤٨ / ٦ - نفس المصدر ص٢٦٣ .

الفصل الثالث

مراكز دور الصناعة

كانت مراكز دور الصناعة هي مراكز الحط والاقلاع للأسطول . فقد كانت المراكب تخرج منها لغزو الأعداء وتلتجئ اليها عند اعتداد الريح او العودة من الغزو ١ وقد قسمت الكلام عن مراكز الصناعة الي خمسة مباحث .

المبحث الأول عن مراكز الصناعة في بلاد الشام

المبحث الثاني عن مراكز الصناعة في ~~[illegible]~~ مصر

المبحث الثالث عن مراكز الصناعة في افريقية

المبحث الرابع عن مراكز الصناعة في الأندلس .

المبحث الخامس عن مراكز الصناعة في صقلية .

وسأبحث مراكز الصناعة في كل قطر من الأقطار السابقة علي حدة .

المبحث الأول

مراكز الصناعة في بلاد الشام

عكا و صور

لعل اول دار صناعة بنيت في الشام كانت في عكا لبعد هذا البلد عن تأثير الأسطول البيزنطي الذي كان لا يتواني عن غزو مدن ساحل سورية وايقاع الضرر بمراكب المسلمين فوضع معاوية ابن ابي سفيان سنة ٤٩ هـ اسس الصناعة في الأردن بعكا . قال البلاذري " وحدثني محمد بن سهم الأنطاكي عن مشايخ ادركهم قالوا لما كانت سنة ٤٩ خرجت الروم الي السواحل وكانت الصناعة بمصر فقط فأمر معاوية بن ابي سفيان بجمع الصناع والنجارين فجمعوا ورتبهم في السواحل وكانت الصناعة في الأردن بعكا " ٢ وما زالت عكا مركز الصناعة حتي زمن بني مروان فنقل هشام بن عبد الملك الصناعة الي صور . ولعل سبب نقله اياها هو انه اراد ان يوسع الصناعة فاضطر الي اخذ ما حولها من الأبنية فاعترضه صاحبها وابي عليه أن يبيعه املاكه فاضطر الي نقلها لصور يذكر ذلك البلاذري ويقول " قال فذكر ابو الخطاب الأزدي انه كانت لرجل من ولد ابي معيط بعكا ارحاء ومستغلات

---

١ ـ ابن مماتي قوانين ص١٩ و المسالك ص٢٥٥ وابن خلدون مقدمة ص٢١١ وصبح الأعشي ج ٣ ص٥٢٣ .

٢ ـ فتوح البلدان ص١٢٤ .

فاراده هشام بن عبد الملك علي ان يبيعه اياها فابي العسيطي ذلك عليه فنقل هشام الصناعة الي صور واتخذ بصور فندقا ومستغلا "[٢] وقال الواقدي " لم تزل المراكب بعكا حتي ولي بنو مروان فنقلوها الي صور فهي بصور الي اليوم "[٣] . ان هاتين الروايتين السابقتين تعطينا فكرة عن عدل الخلفاء زمن بني امية وتبين ان الملك الشخصي كان محترم ومقدس بنظرهم . فخليفة المسلم ينقل دار الصناعة من بلد لاخر لكي لا يعتدي علي حق العسيطي وملكه . ان هذه الحادثة عظيمة تصور لنا قيمة الفرد واهميته في ذاك الزمن .

ويذكر الأستاذ كرد علي ان مدينتي طرابلس وصيدا كانتا تشاركا عكا وصور في صنع المراكب الا انني لم اعثر فيما قرأت علي ان هاتين المدينتين كانتا مركزين للصناعة كما ان الأستاذ لم يذكر المصدر الذي اخذ عنه . ويقول ايضا ان الأبنية الخاصة بالملاحة البحرية تسمي بالجودي اشارة الي سفينة نوح التي استوت علي الجودي في الجزيرة "[٤] . ومن مراكز صناعة السفن في بلاد الشام

بيروت

كانت بيروت مركز صناعة المراكب من زمن معاوية وذلك لقربها من عاصمة الأمويين وتوفر الخشب والملاحين في قربها . يقول صالح بن يحي " قال ابن سعيد بيروت فرضة دمشق ويقال ان بيروت دار صناعة دمشق وبها عمر معاوية المراكب وجهز فيهم الجيش الي قبرص "[٥] . ونجد انها كانت دار صناعة في زمن المماليك ففي سنة ٧٦٣ هـ ارتأي رجال الدولة في مصر ان يعمروا المراكب في بيروت وان يستفيدو من اخشابها وغاباتها فارسل السلطان مصرمن يقوم بهذا العمل وانشؤا مراكب كثيرة يقول صالح بن يحي " ولما اخذت الأسكندرية وكان الأمير الكبير يلبغا العمري المتكلم عن السلطان لحداثة سنه فرسم للأمير بيدمر الخوارزمي بالتوجه الي بيروت ليعمرمن حرشها مراكب كثيرة حمالات وشواني للدخول الي قبرس فحضر الي بيروت واحضر صناع كثيرة من سائر الممالك فكانوا جما غفيرا وقيل انه لم يعهد قد عمارة مثلها عظما وسرعة وكثرة صناع وقوة عزم ... "[٥] .

وقد كانت عادة المماليك عند حاجتهم لبناء مراكب للاسطول ان يكلفوا ناظرا خاصا يعهدون اليه للاشراف علي العمل وهذا الناظر الذي يكون غالبا اميرا من اكبر اعوان السلطان يقوم بالخدمة وتكون

---

[١] فتوح البلدان ص١٢٤ / ٢ - نفس المصدر ص ١٢٤ والمسالك فيه " وبصور صناعة السفن " ص٢٥٥ واليعقوبي يقول " وبصور دار الصناعة " ص ٣٢٧ / ٣ - خطط الشام ج ٥ ص٣٩ و ٤١ / ٤ - تاريخ بيروت ص١٦ ٥ - نفس المصدر ص٣٤ وخطط الشام ج٥ ص٤١ .

جميع الأمور منوطة ومتعلقة به وهي المسؤول مباعرة امام السلطان ١
هذه هي مراكز دور الصناعة في ساحل الشام . فما هي مراكز الصناعة في مصر ؟

المبحث الثاني
مراكز الصناعة بمصر

الأسكندرية و دمياط

ورث العرب ثغر الأسكندرية عند فتح مصر من البيزنطين واتخذوها دار صناعة لأسطولهم يقول بيكر Becker ان هذه المدينة كانت دار الصناعة الرئيسية زمن الخليفة عثمان بن عفان ٢ ويقول حتي ان عبد الله بن سعد بن ابي سرح هو الذي وضع اسس هذه الصناعة في الأسكندرية واسس الأسطول في مصر كما اسس معاوية الأسطول في الشام ٣ وتظل اخبار هذه الصناعة غامضة حتي زمن الفاطميين عندما يظهر الخليفة الفاطمي المعز لدين الله (٣٤١ - ٣٦٥) هـ علي مسرح الحياة في مصر وينشئ في الأسكندرية مراكب للأسطول يقول المقريزي " وقويت العناية بالأسطول في مصر منذ قدم المعز لدين الله وانشأ المراكب الحربية واقتدي به بنوه وكان لهم اهتمام بامور الجهاد واعتناء بالأسطول وواصلوا انشاء المراكب بمدينة مصر سوالأسكندرية ودمياط من الشواني الحربية والشلنديات والمسطحات" ٤
اذن في زمن الفاطميين لم تكن الأسكندرية هي المركز الوحيد للصناعة في مصر بل كانت الصناعة ايضا في مصر ودمياط . واستمرت الصناعة في الاسكندرية ~~هي المركز الوحيد للصناعة في~~ ودمياط ومصر في زمن الأيوبين يخبرنا بذلك ابن مماتي فيقول " والصناعات الآن ثلاثة بمصر والأسكندرية ودمياط " ٥ وضعف امر هذه الصناعات بعد موت السلطان صلاح الدين الأيوبي وخمد ذكرها الي ان جاء السلطان بيبرس (٦٥٨ - ٦٧٦) هـ فاعتني بها من جديد وعمر فيها المراكب يقول المقريزي " ثم لما انقرضت دولة بني ايوب وتملك الأتراك المماليك مصر اهملوا امر الأسطول الي ان كانت ايام السلطان الملك الظاهر ركن الدين بيبرس البندقداري فنظر في امر الشواني الحربية ... وامر بعد الشواني وقطع الأخشاب لعمارتها واقامتها علي ما كانت عليه في ايام الملك الصالح نجم الدين ايوب واحتوي علي الخراج ومنع الناس من التصرف في اعواد العمل وتقدم بعمارة الشواني في ثغري الأسكندرية ودمياط ودمياط " ٦ في هذا النص لا يذكر المقريزي صناعة مصر فلعلها توقفت او اهملت وبطل الأنشاء فيها

---

١ - بدائع الزهور ج ٤ ص ١٤٢ / ٢ - Cambridge Vol III P 352 / ٣ - تاريخ العرب ص ١٦٧
٤ - الخطط ج ٢ ص ١٩٣ وخطط الشام ج ٥ ص ٤٠ / ٥ - قوانين ص ١٦ / ٦ - الخطط ج ٢ ص ١٩٤ و بيبرس ص ١٤٩
و السلوك ج ١ قسم ٢ ص ١٤٣ .

مما سبق نستنتج ان هذه الصناعات كانت تنشط في ادوار وتهمل في اخري . فعندما تكثر الحاجة الي الأسطول يضطر الخلفاء والسلاطين لبناء المراكب وعندها يلجؤون الي هذه الدور ويجددون ما يبلي منها وينشؤون فيها المراكب من جديد .

وتكون هذه المراكز لدور الصناعة عامرة زاخرة بالمراكب عند قوة الدولة واخليا وحيويتها التي تدفعها للفتوح والتوسع في البر والبحر . اما اذا كانت الدولة منحلة داخليا ضعيفة بسبب استمرار الثورات والمنازعات بين الأحزاب او العناصر المتعددة التي تتالف منها الدولة فان هذه المراكز الصناعية تهمل ويقل شأنها ويتخرب بعض بعضها او ينقرض تماما وهذا ما يعلل لنا ظهور دور صناعات جديدة وانعدام القديم منها .

صناعة الجزيرة

يحدد المقريزي موضع جزيرة الروضة وصناعتها بما يلي " اعلم ان الروضة تطلق في زماننا هذا علي الجزيرة التي بين مدينة مصر ومدينة الجيزة وعرفت في اول الأسلام بالجزيرة . وبجزيرة مصر . ثم قيل لها جزيرة الحصن . وعرفت الي اليوم بالروضة ... وبها كانت الصناعة يعني صناعة السفن الحربية اي كانت بها دار الصناعة " ١

لقد تغير اسم هذه الجزيرة الواقعة في وسط النيل بحسب الأدوار المختلفة التي مرت بها ويظهر ان الصناعة قديمة العهد بها اذ ان الكندي يخبرنا بما يلي " بنيت بالجزيرة الصناعة في سنة ٥٤ هـ" ٢ ويخبرنا المقريزي عن هذه الصناعة بقوله " وهي اول صناعة ضلت بفسطاط مصر بنيت في سنة ٥٤ من الهجرة . وكان قبل بنائها هناك خصاصة فاعل تكون مقيمة ابدا معدة لحريق يكون في البلاد او هدم " ٣ ويقول المقريزي في مكان آخر " واول ما انشئ الأسطول بمصر في خلافة امير المؤمنين المتوكل علي الله ابي الفضل جعفر بن المعتصم عندما نزل الروم دمياط في يوم عرفة سنة ٢٣٨ وامير مصر يومئذ عنبسة ابن اسحق فملكوها وفعلوا بها جمعا كثيرا من المسلمين وسبوا النساء والأطفال ونهبوا الي تنيس . فاقاموا بأعقوسها فوقع الأهتمام من ذلك الوقت بأمر الاسطول وصار من اهم ما يعمل بمصر وانشئت الشواني برسم الأسطول وجعلت الأرزاق لغزاة البحر كما هي لغزاة البر " ٤

ان في قول المقريزي هذا بعض التضارب وقوله السابق فهو يقول ان اول صناعة بنيت في مصر سنة ٥٤ هـ ثم يقول ان اول اسطول انشئ بمصر كان سنة ٢٣٨ هـ اذن فلأي شيئ بنيت الصناعة الأولي سنة ٥٤ هـ

---

١ ـ الخطط ج ٢ ص ١٧٨ / ٢ ـ صبح الأعشي ج ٣ ص ٣٣٩ / ٣ ـ الخطط ج ٢ ص ١٩٩ والعمدن ج ١ ص ١٩٩

٤ ـ الخطط ج ٢ ص ١٩٠ ـ ١٩١ والعمدن ج ١ ص ١٩٥ .

يجيب Van Berchem علي هذا السؤال بقوله يظهر ان الصناعة التي بنيت سنة ٥٤ هـ كانت لصناعة المراكب النيلية التي تستعمل في نقل البضائع والركوب في النيل فحسب اما المراكب التي عمرت سنة ٣٢٨ هـ فهي مراكب حربية وهذا ما حدي بالمقريزي ان يقول " اول ما انشئ الأسطول بمصر" وكلمة الأسطول لا تطلق الا علي المراكب الحربية فقط ؛ كما راينا سابقا في تعريف الاسطول .

لعل تعليل V-Berchem صحيح اذ ان المقريزي في المرة الأولي يتكلم عن اول صناعة بنيت في مصر . وفي المرة الثانية يشير الي اول اسطول انشئ بمصر والفرق واضح بين الصناعة والأسطول .

وفي ايام احمد بن طولون (٢٥٤ ـ ٢٧٠) هـ زادت العناية بالأسطول وحصن مؤسس الدولة الطولونية جزيرة الروضة سنة ٢٦٣ هـ وبني [illegible] فيها حصن الجزيرة الذي كلفه نحو ثمانين الف دينار ذهبا خوفا من الموفق اخو الخليفة العباسي من ان يهاجم مصر ويقضي علي ملكه ٢ وقويت هذه الصناعة في زمن ابن طولون يشهد بذلك قول المقريزي " ثم اعتني الأمير ابو العباس احمد بن طولون بانشاء المراكب الحربية في هذه الصناعة واطافها بالجزيرة ولم تزل هذه الصناعة الي ايام الملك الأمير ابي بكر محمد بن طغج الأخشيد فانشأ صناعة بساحل فسطاط مصر وجعل موضع هذه الصناعة البستان المختار "٣

اذن بنيت صناعة الجزيرة في القرن الأول للهجرة ووسعت في زمن الطولونيين هـ ثم قلت اهميتها ببناء صناعة غيرها بفسطاط مصر فيحدثنا المقريزي عن سبب نقلها في زمن الأخشيديين فيقول " الي ان قدم الأمير ابو بكر محمد بن طغج الأخشيدي اميرا علي مصر من قبل الخليفة الراضي عوضا عن احمد بن كيغلغ في سنة ٣٢٣ وقد كثرت الفتن فلم يدخل عيسي بن احمد السلمي ابو مالك كبير المغاربة في طاعته ومضي ومعه بحكم وعلي بن بدر ونظيف النوشري وعلي المغربي الي الفيوم فبعث اليهم الأخشيد صاعد بن الكلكم بمراكبه فقاتلوه وقتلوه واخذوا مراكبه وركب فيها علي بن بدر وبحكم وقدموا مدينة مصر اول يوم ذي القعدة فأرسوا بجزيرة الصناعة وركب الأخشيد في جيشه ووقف حيالهم والنيل بينهم وبينه فكره ذلك وقال صناعة يحول بيننا وبين صاحبها الماء ليست بشئ فأقام بحكم وعلي بن بدر الي آخر النهار ومضوا الي جهة الأسكندرية وعاد الأخشيد الي داره فاخذ في تحويل الصناعة من موضعها بالجزيرة الي دار خديجة بنت الفتح في شعبان سنة ٣٢٥ " ٤

اذن كان سبب نقل الصناعة من جزيرة الروضة الي فسطاط مصر لفصل ماء النيل بين حاضرة البلاد وبين دار الصناعة وبذلك لا يتمكن امير البلاد من الأتصال بها بجيشه البري والدفاع عنها امام هجمات العدو او احد الثائرين عليه .

---

١ ـ Corpus de Pt, Egypt Tome 2e P 167 / ٢ ـ الخطط ج ٢ ص ١٧٨ / ٣ ـ نفس المصدر ج ٢ ص ١٩٦

٤ ـ نفس المصدر ج ٢ ص ١٩٧ والنظم الأسلامية ص ٢٥١ .

ويظهر ان الثائرين الذين ثاروا علي محمد بن طغج الأخشيد قد احرقوا صناعة الجزيرة قبل مغادرتهم البلاد يقول المقريزي" وقدمت الجماعة في مراكب ابن كلكم فارسوا بجزيرة الصناعة وحرقوها ثم مضوا الي الأسكندرية وساروا الي برقة فقال محمد بن طغج الصناعة هنا خطأ وامر بعمل صناعة في بر مصر (١)"

وبالرغم من انتقال الصناعة الي بر مصر ظلت المراكب تعمل في صناعة الجزيرة . يقول المقريزي " وكانت مراكب الأسطول مع ذلك تنشأ في الجزيرة وفي صناعتها الي ايام الخليفة الأمر بأحكام الله تعالي فلما ولي المأمون بن البطايحي انكر ذلك وامر ان يكون انشاء الشواني والمراكب النيلية الديوانية بصناعة مصر هذه ... فأقر انشاء الحربيات والعلنديات بصناعة الجزيرة " ٢

اذن قلت اهمية صناعة الجزيرة في العهد الفاطمي واصبحت الأهمية الكبري لصناعة مصر وبقي يصنع في صناعة الجزيرة بعض انواع من المراكب فقط كالحربيات والعلنديات وبقية الأنواع تبني في صناعة مصر . وفي زمن السلطان بيبرس انشئت المراكب في صناعة الجزيرة بعد ان تكسر قسم من مراكب الأسطول في تجريدة قبرس ٣ . مما يدلنا ان صناعة الجزيرة ظلت عامرة من القرن الأول الهجري سنة ٥٤ هـ حتي عهد المماليك سنة ٩٢٢ هـ . ولنتكلم الآن عن صناعة مصر .

صناعة مصر

قلنا ان الأمير ابو بكر محمد بن طغج الأخشيد(٣٢٣ - ٣٣٤) هـ هو الذي امر بنقل الصناعة من جزيرة الروضة الي بر مصر في شعبان سنة ٣٢٥ هـ ويروي المقريزي عن ابن زولاق ما يلي " وحكي ابن زولاق امير مصر وجري ذكر الصناعة فقال تكون صناعة يكون بيننا وبينها بحر خطأ فاشارت الجماعة بنقلها فقال الي اي موضع فاردت ان اشير عليه بدار خديجة بنت الفتح بن خاقان ثم سكت وقلت (الأخشيد يتكلم) ادع هذا الإي لنفسي اذا ملكت مصر . فبلغت ذلك والحمد لله وحده " ٤

اذن كان الأخشيد قبل ولايته مصر يجد مكان الصناعة بالجزيرة خطأ ويستنسب نقلها لساحل مصر القديم لموضع يعرف بدار خديجة امرأة الأمير احمد بن طولون مؤسس الدولة الطولونية ٤ ويورد المقريزي كثيرا رواية اشبه ما تكون بخرافة وهي ماياي " ولما اخذ محمد بن طغج دار خديجة كان يتردد اليها حتي عملت فلما ابتدؤا بانشاء المراكب فيها صاحت به امرأة فقال خذوها فساروا بها الي داره فأحضرها مساء واستخبرها عن امرها فقالت ابعث معي من يحمل المال فأرسل معها جماعة الي دار خديجة هذه فدلتهم علي مكان استخرجوا منه عينا وورقا وحليا وثيابا وعدة وذخائر لم ير مثلها وساروا بها الي محمد طغج . فطلب المرأة ليكافئها علي ما كان منها فلم توجد فكان هذا

---

١ - الخطط ج ٢ ص ١٨١ / ٢ - نفس المصدر ج ص ١٩٧ / ٣ - ابن دقماق كتاب الأنتصار ص ١١٠
٤ - الخطط ج ٢ ص ١٨١ / ٥ - نفس المصدر ج ٢ ص ١٩٧ .

اول مال وصل الي محمد بن طغج بمصر " ١ . فمن تكون هذه المرأة ياتري لعلها ممن اتصلوا بخديجة زوج احمد بن طولون وقد عرفت هنا هذا المال وخبرت به الأمير الجديد . ان هذا غير ثابت لأنه لامصادر تدعمه وتؤيده ولكنه محتمل لأننا عرفنا ان تلك الدار التي اختارها الأخشيد كانت من ممتلكات زوج اول امير اسس الدولة الطولونية . فهذه الذخيرة او ان شئت الكنز لا يكون الا لمثل تلك الأميرات الا اللواتي عشن في كنف ملك حكم نحو ستة عشر عاما في ارض مصر .

ولما ولي المأمون بن البطايحي ارض مصر استمر في صنع المراكب في هذه الصناعة ووسعها بان اضاف اليها دار الزبيب وانشأ بها منظرة لجلوس الخليفة يوم تقدمة الأسطول ورميه يقول المقريزي " قال ابن المأمون وكانت جميع مراكب الأساطيل ما تنشأ الا بالصناعة التي بالجزيرة فانكر الوزير المأمون ذلك وامر بأن يكون انشاء الشواني وغيرها من المراكب الديوانية بالصناعة بمصر واضاف اليها دار الزبيب . وانشأ المنظرة بها واسمه باق الي الآن عليها . وقصد بذلك ان يكون جلوس الخليفة يوم تقدمة الأساطيل ورميها بالمنظرة المذكورة " ٢ . ويذكر القلقشندي هذه الصناعة عند وصف ركوب الخليفة اليها يوم وفاء النيل فيقول " ويدخل من الصناعة - وهي يومئذ في غاية العمارة وبها دهليز ممتد بمصاطب مفروشة بالحصر العبداني مؤزر بها - " ٣ ويزيد المقريزي علي ذلك بقوله "... وفيها ديوان الجهاد وكان يعرف في الدولة الفاطمية ان لا يدخل من باب الصناعة احد راكبا الا الخليفة والوزير . اذا ركبا في يوم فتح الخليفة الخليج عند وفاء النيل فان الخليفة كان يدخل من بابها ويخرقها راكبا والوزير معه حتي يركب النيل الي المقياس " ٤

وقد خربت هذه الصناعة حوالي سنة ٧٠٠ هـ وصار مكانها بستانا يعرف ببستان ابن كيسان . ثم تغير اسمه زمن المقريزي وصار يعرف ببستان الطواشي ويحدد المقريزي موضعه بقوله " وهو بأول مراغة مصر تجاه غيطة الجرف علي يسرة من يسلك من المراغة يريد الكبارة وباب مصر " ٥

ولا اعرف سبب خراب هذه الصناعة ولعله ناتج عن الأضطرابات في تلك البلاد واهمال السلاطين لها .

صناعة المقس

المقس محلة بظاهر القاهرة في بر الخليج الغربي . وكان عند وضع القاهرة هو ساحل النيل ٦ اما سبب تسميتها بالمقس فيعلله القاضي ابو عبد الله القضاعي بما يلي يقول

---

١ - الخطط ج ٢ ص ١٨١ و ص ١٩٧ / ٢ - نفس المصدر ج ٢ ص ٤٨٢ و ج ٢ ص ١٩٧ / ٣ - صبح الأعشي ج ٣ ص ٥١٧

٤ - الخطط ج ٢ ص ١٩٧ / ٥ - نفس المصدر ج ١ ص ٤٨٢ / ٦ - نفس المصدر ج ٢ ص ١٢١ .

" انما سميت المقس لأن العاشر كان يقعد بها وصاحب المكس فقيل المكس فقلب فقيل المقس..." ١ وقد انشأ الفاطميين في هذه المحلة دارا للصناعة يصنعون بها سفنهم النيلية والحربية . وقد اختلف في اول من انشأها اذ ان المقريزي يروي عدة روايات تارة يقول ان المعز لدين الله الفاطمي هو الذي بناها واخري يذكر ان ابنه العزيز بالله هو الذي انشأها فهو يذكر عن ابن ابي طي مايلي " قال ابن ابي طي في تاريخه عند ذكر وفاة المعز لدين الله انه انشأ دار الصناعة التي بالمقس وانشأ بها ستمائة مركب لم ير مثلها في البحر علي مينا " ٢ ويروي عن المسبحي المؤرخ المصري المتوفي سنة ٤٢٠ هـ مايلي " ان العزيز بالله بن المعز هو الذي بني دار الصناعة التي بالمقس وعمل المراكب التي لم ير مثلها فيما تقدم كبرا ووثاقة وحسنا " ٣ . ارجح ان المعز هو الذي بني صناعة المقس اذ انه هو الذي اعتني بامر الأسطول وبناء المراكب وان ابناءه خلفوه في العمل وجروا علي سنته ٤ والمقريزي يميل الي رواية ابن ابي طي فيقول عند ذكر ساحل المقس مثلا " وبه أنشأ الأمام المعز لدين الله ابو تميم معد الصناعة ..." ٥ فهنو في هذه العبارة يؤكد ان المعز هو الذي بني هذه الصناعة وليس ابنه .

وفي سنة ٣٨٦ هـ احرق النصاري من الروم الأسطول الذي كان بصناعة المقس زمن الخليفة العزيز بالله وجري بسبب ذلك حوث داميه يذكرها المقريزي نقلا عن المسبحي فيقول " وقال في حوادث سنة ست وثمانين وثلثمائة ووقعت نار في الأسطول وقت صلاة الجمعة لست بقين من شهر ربيع الآخر فاحرقت خمس عشاريات واتت علي علي جميع ما في الأسطول من العدة والسلاح واتهموا الروم النصاري وكانوا مقيمين بدار مانك بجوار الصناعة التي بالمقس وحملوا علي الروم هم وجموع من العامة فنهبوا امتعة الروم وقتلوا منهم مائة رجل وسبعة رجال وطرحوا جثثهم في الطرقات واخذ من بقي فحبس بصناعة المقس. ثم حضر عيسي بن نسطورس خليفة امير المؤمنين العزيز بالله ... ومعه يانس الصقلبي ... ومعهما مسعود الصقلبي متولي الشرطة واحضروا الروم من الصناعة فاعترفوا بأنهم الذين احرقوا الأسطول..." ٦ ثم ان اصحاب الشرط جمعوا ما نهبته العامة وامر ابن نسطورس ببناء مراكب غير التي حرقت " وطرح الخشب وطلب الصناع وبات في الصناعة وجد الصناع في العمل... فلم يدع عند احد خشبا علم به الا اخذه منه " ٧ ولم يمض مدة حتي صارت المراكب تطرح بين يديه وبني مراكب غير التي احرقت.

هكذا اساء اولئك الروم النصاري ونالوا جزاءهم من البحرية والعامة الذين غضبوا للأسطول الذي كانوا يعملون فيه ويفتخرون به . ثم هدئت الحالة بتدخل قوة الشرطة ورجال الدولة الذين عملوا بنشاط لتهدئة الحالة وقمع الأطراب يقول المقريزي في ذلك ٧ (الخطط ج ٢ ص١٩٦)

---

١ ـ الخطط ج ٢ ص١٣١ / ٢ ـ نفس المصدر ج ٢ ص١٩٥ و ج ١ ص٤٨٣ و ج ٢ ص١٣١ والتمدن ج ١ ص٢٠٠
٣ ـ الخطط ج ٢ ص١٩٥ والنظم الأسلامية ص٢٥١ / ٤ ـ الخطط ج ٢ ص١٩٣ / ٥ ـ الخطط ج ٢ ص١٣١ / ٦ ـ الخطط ج ٢ ص١٩٥

ولا نجد في المصادر عن هذه الصناعة بعد زمن الفاطميين شيئا فلعلها اهملت في العصور المتأخرة او انقرضت بانقراض الفاطميين او اتخذت اسما جديدا في التاريخ . واني ارجح الرأي الأخير . لأننا اذا رجعنا الي المقريزي نجد انه يصف عدة اماكن تشكلت في النيل بسبب الطمي التي تجرفه معها امواه النيل . وكأمثلة علي ذلك اعدد بعض هذه الأماكن علي سبيل التمثيل مثلا اذكر جزيرة الفيل التي يقول عنها المقريزي" وموضعها كله مما كان غامرا بالماء في الدولة الفاطمية فلما كان بعد ذلك انكسر مركب كبير كان يعرف بالفيل وترك في مكانه فربا عليه الرمل وانطرد عنه الماء فصارت جزيرة ... سماها الناس جزيرة الفيل" ١ واذكر ايضا جزيرة اخري وهي "الجزيرة التي عرفت بحليمة هذه الجزيرة خرجت في سنة سبع واربعين وسبعمائة مابين بولاق والجزيرة الوسطي سمتها العامة بحليمة " ٢ . فلت هناك يتشكل في النيل بسبب الطمي وعلي العكس فان اماكن كثيرة تكون موجودة بساحل النيل فتزول وتنعدم ومن ذلك ما حصل بساحل المقس فالمقريزي يقول "فلما كانت ايام الملك الناصر محمد بن قلاون وانحسر النيل عن جانب المقس الغربي وصار ما هنالك رمالا متصلة ... افتتح الناس باب العمارة بالقاهرة ومصر فعمروا في تلك الرمال المواضع التي تعرف اليوم ببولاق خارج المقس...." ٣ وصناعة المقس هذه التي ذكرتها ارجح انها اتخذت اسما جديدا وهو اسم المدينة الجديدة التي تاسست وهو اسم بولاق .

صناعة بولاق

ففي سنة ٩١٧ هـ يحدثنا ابن اياس ان السلطان قانصوه الغوري نزل "وتوجه الي نحو بولاق وكشف علي المراكب التي عمرها هناك" ٤ ويقول في مكان آخر "وعدي من هناك (قانصوه) الي نحو بولاق فكشف علي المراكب ثم عاد الي القلعة ٥ . فليس من المستبعد ان تكون صناعة المقس السابقة التي دعيت ~~[illegible]~~ باسم بلدة المقس اصبحت صناعة بولاق نسبة الي مدينة بولاق التي تاسست مكان المقس .

صناعة الجزيرة الوسطي

يسمي المقريزي هذه الجزيرة باسم جزيرة اروي . ويقص لنا تاريخ نشوئها وتكونها فيقول "جزيرة اروي هذه الجزيرة تعرف بالجزيرة الوسطي لأنها فيما بين الروضة وبولاق وفيما بين بر القاهرة وبر

---

١ ـ الخطط ج ٢ ص ١٨٥ / ٢ ـ نفس المصدر ج ٢ ص ١٨٦ / ٣ ـ نفس المصدر ج ٢ ص ١٨٥ / ٤ ـ بدائع الزهور ج ٤ ص ٢٤٣ / ٥ ـ نفس المصدر ج ٤ ص ٢٤٤

وبر الجيزة لم ينحسر عنها الماء الا بعد سنة سبعمائة ... وبني الناس فيها الدور الجليلة والأسواق والأسواق والجامع والطاحون والفرن وغرسوا فيها البساتين وحفروا الآبار وصارت من احسن متنزهات مصر يحف بها الماء ثم صار ينكشف ما بينها وبين بر القاهرة فاذا كانت ايام زيادة ماء النيل احاط الماء بها وفي بعض السنين يركبها الماء فتمر المراكب بين دورها وفي ازقتها ..." ١ لا يذكر المقريزي ان في هذه الجزيرة دار صناعة ولكن ابن اياس يقول ذلك في حوادث سنة ٧٦٨ هـ " ومن الحوادث في هذه السنة ان الأتابك يلبغا رسم بعمارة مراكب اغربة بسبب تجريدة تتوجه الي بلاد الفرنج فان جماعة من الفرنج صاروا يعبثون في البحر ويقطعون الطريق علي التجار فعين لهم السلطان تجريدة وانشأ مائة غراب. ورسم للأمير طنبغا العلائي بأن يكون شادا علي عمارة هذه الأغربة فانشأ عمارتها في الجزيرة الوسطانية . فلما كملت عمارتها نزل السلطان والأتابكي يلبغا الي الجزيرة الوسطي يتفرجان علي القائها في البحر فكان يوم نزول السلطان يوما مشهودا . فالقوا الأغربة قدامه ..." ٢ وفي حوادث سنة ٨٦٣ هـ يذكر ابن اياس ايضا مايلي " حضر الي الأبواب الشريفة جاكم بن ملك قبرص وطلب من السلطان (اشرف اينال) نجدة فعين السلطان معه تجريدة وكان باش العسكر الأمير يونس الدوادار ثم ان السلطان شرع في عمارة مراكب اغربة بالجزيرة الوسطي وكان الشاد علي عمارة هذه الأغربة الأمير سنقر شبق الزردكاش فحصل منه غاية الظلم لأرباب الغيطان بسبب الأخشاب فلما كملت عمارة تلك الأغربة نزل السلطان بنفسه وكشف علي عمارة الأغربة وكان له يوم مشهود ونزل من القلعة في موكب عظيم وتوجه الي الجزيرة الوسطي فرموا قدامه الأغربة في البحر والنفط والطبل عمال حتي انتهي ذلك ثم رجع الي القلعة ..." ٣

نلاحظ مرة ثانية ان السلاطين كانوا يكلفون احد الأمراء بان يتعهد امر انشاء المراكب وكان بعض هؤلاء الأمراء يظلمون الناس ويجورون علي الصناع في انجاز الخدمة التي انيطت بهم .

ونلاحظ من جهة ثانية اهتمام السلاطين بامر الأنشاء ونزولهم بانفسهم للصناعة لترمي المراكب امامهم . وسنفصل ذلك فيما بعد .

صناعة الرشيد

الرشيد مدينة علي النيل قريبة من مصب فوهته الي البحر ويعرف هذه الفوهة وهي المدخل من البحر بالأشتوم ... ولها نخيل كثير ...٤ وقد كان بها دار صناعة في زمن المماليك اذ ان ابن اياس يذكر في حوادث سنة ٩١٤ هـ مايلي " حضر مراكب اغربة عدتهم ستة وهم التي كان ناظر الخاص توجه الي رشيد بسبب عمارتهم فلما وصلوا ارسي بهم عند رأس الجزيرة الوسطي " ٥

---

١ ـ الخطط ج ٢ ص١٨٦ / ٢ ـ بدائع الزهور ج ١ ص٢١٧ / ٣ ـ نفس المصدر ج ٢ ص٦٣ / ٤ ـ صورة الأرض ج ١ ص١٣٩ / ٥ ـ بدائع الزهور ج ٤ ص ١٤٢ .

لقد مر معنا ان المماليك كانوا يرسلون نظارا لدور الصناعة للأشراف علي بناء المراكب فابن اياس يذكر لنا ان ناظرا خاصا كان في ميناء الرشيد يشرف علي عمارة المراكب مما يدلنا علي وجود دار صناعة في ذاك المكان .

صناعة السويس

كان في ميناء السويس علي بحر القلزم ايام السلطان قانصوه الغوري(٩٠٦-٩٢٢)هدار صناعة ارسل لها السلطان سنة ٩١٩هـ جماعة من مماليكه ليشرفوا علي عمارة المراكب التي كان يقيمها هناك يذكر ابن اياس ذلك بقوله " وعين باشهم الأمير اركماس امير مجلس ومعه الأمير قانصوة ابو سنة احد المقدمين وعين معهم جماعة من المماليك السلطانية ورسم لهم بان يتوجهوا الي السويس ويقيمون به بسبب عمارة المراكب التي عمرها السلطان هناك. " ١

هذه هي الصناعات في بلاد مصر من اقدم ازمان لاحكم العرب لها حتي اواخر عهد المماليك .

المبحث الثالث

مراكز الصناعة في افريقية

الصناعة في تونس

من اقدم دور الصناعة التي بنيت في الأسلام الصناعة التي بنيت في تونس زمن الخليفة الأموي عبد الملك بن مروان (٦٥ - ٨٦)هـ تروي المصادر انه اوعز لعامله حسان بن النعمان ان يتخذ دار الصناعة بتونس لأنشاء المراكب والألات البحرية ليحافظ علي بلاده من جهة وليتابع الجهاد في بلاد الأعداء من جهة اخري . يروي ابن خلدون والمقريزي العبارة التالية " واوعز الخليفة عبد الملك الي حسان بن النعمان عامل افريقية باتخاذ دار الصناعة بتونس لأنشاء الآلات البحرية حرصا علي مراسم الجهاد " ٢ نستدل من القول السابق ان دار الصناعة بتونس لم تكن لبناء السفن والمراكب فحسب بل كان يعمل بها ايضا المعدات البحرية الضرورية لقطع الأسطول .

الصناعة في سبتة وطنجه

يقول ياقوت " سبتة وهي بلدة مشهورة من قواعد بلاد المغرب ومرساها اجود مرسي علي البحر وهي علي بر البربر تقابل جزيرة الأندلس علي طرف الزقاق الذي هو اقرب مابين البر والجزيرة وهي مدينة حصينة تشبه المهدية التي بافريقية علي ماقيل لأنها ضاربة في البحر داخلة كدخول كف

---

١ - بدائع الزهور ج٤ ص٣٠٨ / ٢ - المقدمة ص٢١١ والخطط ج٢ ص١٩٠ وحقائق الأخبار ج١ ص ٩٥ والتمدن ج١ ص١٩٥ وحضارة العرب ص٣٧ .

علي زند "١ ويقول ايضا عن طنجة مايلي " اما طنجة فهي علي ساحل بحر المغرب بينها وبين سبته مسيرة يوم واحد " ٢ ويقول ابن خلدون ان بهما دار صناعة لأنشاء الآلات البحرية وهذه هي عبارته " كانتهاتان المدينتان سبته وطنجة من اول دول الموحدين من اعظم عمالاتهم واكبر ممالكهم بما كانت ثغر العدوة ومرفأ الأساطيل ودار الأنشاء الآلات البحرية وفرضة الجواز الي الجهاد . فكانت ولايتها مختصة بالقرابة من السادة بني عبد المؤمن " ٣

لاشك ان لهاتين المدينتين اهمية عظيمة لخطورة موقعهما مابين الأندلس وافريقية من جهة وما بين بحر الظلمات وبحر الروم من جهة ثانية الا ان هذه الأهمية زادت في ايام الموحدين (٥٢٤ - ٦٦٧)هـ لإشتداد العلاقة مابين افريقية والأندلس . اضف الي ذلك انهما كانتا المنفذان الرئيسيان للموحدين للاتصال مع الأندلس ومع غيرها من الأقطار العربية . وهما مركزا سفنهم ودار الأنشاء لأساطيلهم والآتهم البحرية . ومن مراكز دور الصناعة في زمن الموحدين ايضا وسلا .

صناعة وسلا

لقد كان في ميناء وسلا دار صناعة للموحدين يقول سرهنك " وهي فرضة حصينة علي المحيط الأطلانطيكي عند مصب نهر بو عزب علي ضفته الشمالية تجاه مدينة الرباط ... وكان بها في دولة الموحدين دار صناعة عظيمة بناها المعلم ابو عبد الله محمد بن علي من اهل اشبيلية وكان من العارفين بالحيل الهندسية ومن اهل المهارة في نقل الأجرام ورفع الأثقال بصيرا باتخاذ الآلات الحربية الجافية " ٤ .

نلاحظ في هذا النص ظاهرتين مهمتين وهما اولا ان الذي بني دار صناعة وسلا وتعهدها مهندس عربي له علم وخبرة في صناعة الحيل (المكانيك) مما يدلنا علي وجود خبراء ومهندسين في هذه الصنعة يتولون ادارة وتنظيم شؤونها ويشرفون علي عمل الصناع والعمال والنجارين والذين يقومون بصنع المراكب . ثانيا ان معظم دور الصناعات تبني علي مجري نهر يصب في البحار المالحة وعلي جانب السواحل . هذا مالاحظناه في دور الصناعة الموجودة في سورية وما سنلاحظه في دور الصناعات الموجودة بالأندلس .

صناعة بجاية

مدينة بجاية علي ساحل البحر بين افريقية والمغرب ٥ ويقول الأدريسي عنها " ومدينة بجاية

---

١ - معجم البلدان ج ٥ ص ٣٦ / ٢ - المصدر نفسه ج ٦ ص ٦١ / ٣ - العبر ج ٢ ص ١٨٥ / ٤ - حقائق الأخبار ج ١ ص ٢٧٣ / ٥ - معجم البلدان ج ٢ ص ٦٢ .

في وقتنا هذا مدينة المغرب الأوسط ...والسفن اليها مقلعة وبها القوافل منحطة والأمتعة اليها برا وبحرا مجلوبة ... وبها دار صناعة لأنشاء الأساطيل والمراكب والسفن والحرابي لأن الخشب في اوديتها وجبالها كثير موجود ويجلب اليها من اقاليمها الزفت البالغ الجودة والقطران وبها معادن الحديد الطيب موجود وبها من الصناعات كل غريب ولطيفة " ١ وان جميع المواد الأولية الضرورية لصناعة السفن متوفرة في هذه المدينة بجاية وما جاورها . وهذا يؤيد ما قلته سابقا من ان مراكز الصناعة للسفن لاتبني الا في الأماكن التي تتوفر فيها المواد الأولية لبناء المراكب . ولذلك فمدينة بجاية من اشهر مراكز دور الصناعة في افريقية .

المبحث الرابع

مراكز الصناعة في الأندلس

صناعة الجزيرة الخضراء

مدينة الجزيرة الخضراء تقع علي ربوة مشرفة علي البحر وسورها متصل به يقول ياقوت عنها " وسورها يضرب به ماء البحر ولا يحيط بها البحر كما تكون الجزائر لكنها متصلة ببر الأندلس لاحائل من الماء دونها ... وهي علي نهر برباط " ٢ وبشرقيها خندق . وقصبة المدينة موفية علي الخندق . وفي داخلها المدينة دار صناعة بناها امير المؤمنين عبد الرحمان بن محمد ه (٣٠٠ - ٣٥٠) لصنع الأساطيل واتقن بناءها وعلي اسوارها ثم اتخذها المعتزون بها في الفتنة قصرا . وبغرب المدينة مدخل الوادي في البحر ... ومهبطه من حيث تدخله السفن ... وبها حائط عريض مبني بالحجارة داخل البحر ومن هذا الحائط كانت تشحن المراكب وبني عليه محمد بن بلال برجا ... ٣

نلاحظ ان ثغور بلاد الأندلس بصورة عامة ودور صناعاتها بصورة خاصة شديدة التحصين . بني الأمراء والخلفاء حولها الأسوار المشرفة والخنادق السحيقة والأبراج المعينة ليحافظوا عليها من غارات الأعداء لاسيما المجوس الذين كانوا يطوفون بلاد الأندلس بين الفينة والفينة . ويعيثون بالأرض فسادا ويخربون البلاد ويحرقون المراكب . فكان لالزاما علي حكام البلاد ان يحصنوا ثغورهم وصناعاتهم امام هؤلاء الأعداء علي اختلاف انواعهم ومللهم .

صناعة مالقة

مالقة مدينة في جنوب الأندلس... وهي علي بحر الزقاق ... " سورها علي شاطئ البحر بين الجزيرة

---

١ - الأدريسي ص ٩٠ / ٢ - معجم البلدان ج ٣ ص ٩٩ / ٣ - الروض ص ٧٣ / ٤ - معجم البلدان ج ٥ ص ٣٦٧

الخضراء والمرية " ١ ولها عدة حصون في اعمالها ... وبها دار صناعة لأنشاء المراكب. وهي مختصة بعمل الجلد ...وبصاناع الحديد . ٢

صناعة المريه

وهي مدينة مسورة علي حافة بحر الزقاق واسوارها عالية وقلعتها منيعة شامخة وساحل المرية احسن السواحل وحولها حصون وجبال شامخة ... وبها دار صناعة لعمارة المراكب ٣

صناعة المنكب

بلد علي ساحل جزيرة الأندلس من اعمال البيرة ٤ علي القرب من شلوبين دون المرية وبها دار صناعة لأنشاء السفن ٥

صناعة لقنت

لقنت حصن من بلاد الأندلس ... ويتجهز منها بالحلفاء الي جميع بلاد البحر ... وهي علي صغرها تنشأ بها المراكب السفرية والحراريق ٦

صناعة دانية

دانية مدينة بشرق الأندلس علي البحر ... وعليها سور حصين وسورها من ناحية المشرق في داخل البحر قد بني بهندسة وحكمة ... والسفن واردة عليها صادرة عنها ومنها كان يخرج الأسطول الي الغزو وبها ينشأ اكثره لأنها دار انشاء . ٧

صناعة طرطوشة

مدينة طرطوشة شرقي بلنسية وقرطبة قريبة من البحر علي نهر ابره × ٨ وبها انشاء للمراكب الكبار من خشب جبالها ... وهي كثيرة شجر الصنوبر ... وخشبها الصنوبر له خاصية في الجودة تفوق جميع خشب الأقطار وعلي المدينة سور صخر من بناء بني امية بناه عبد الرحمان بن النظام... وهي باب من ابواب البحر ومرقي من مراقيه . تحلها التجار من كل ناحية ٩

---

١ ـ معجم البلدان ج٧ ص٣٦٧ / ٢ ـ صبح الأعشي ج٥ ص٢١٩ / ٣ ـ نفس المصدر ج ٥ ص٢١٧
٤ ـ معجم البلدان ج٨ ص١٨٤ / ٥ ـ صبح الأعشي ج ٥ ص٢١٨ / ٦ ـ الروض ص٨١٤ / ٧ ـ نفس المصدر ص٧٦ / ٨ ـ معجم البلدان ج٦ ص٤٢ / ٩ ـ الروض ص١٢٤ .

صناعة اربونه

كان في هذا الثغر قلعة عظيمة ودارا للصناعة ومستودعا للمؤنة والسلاح ١

صناعة القصر

تقع القصر علي ضفة نهر كبير وهو نهر تصعد فيه السفن السفرية وفيما استدار بها من الأرض كلها شجر الصنوبر وبها الأنشاء الكثير . ٢

صناعة قرمونة

مدينة بالأندلس... وهي في سفح جبل عليها سور حجارة من بنيان الأول كان تغلم في الهدنة ثم بني في الفتنة وجنباتها حصينة ممتنعة علي المحاربين الا من جهة المغرب وارتفاع سورها هناك اربعون ذراعا وبالذراع ثلاث واربعون ذراعا وفي هذا السور الغربي برج يعرف بالبرج الأجم عليه ينصب الرادات عند القتال وفي ركن هذا السور ايضا مما يلي الجوف بنيان مرتفع علي السور يسمي سوملة عليه برج للمحاربين ... ويتصل بهذا السور خندق عميق جدا اولي وترابه مستند الي السور ... وبها دار صناعة بنيت بعد سنة المجوس مخزنا للسلاح ٣

صناعة شلطيش

شلطيش بلدة بالأندلس صغيرة في غرب اشبيلية علي البحر ٤ وهي جزيرة ... وهي لا سور لها ولا حظيرة انما هي بنيان متصل بعضه ببعض وبها دار صناعة الحديد الذي يعجز اهل البلاد صنعه لبشاعته وهي صنعة المراسي التي ترسوا بها السفن ... وبها دار صناعة لأنشاء السفن وفيها اطيب الصنوبر ٥

صناعة شلب

شلب مدينة بغرب الأندلس ٦ =... وعليها سور حصين ... ولها مرسي في الوادي وبها الأنشاء والعود بجبالها كثير يحمل منها الي كل الجهات ٧ .

صناعة شنتمرية

شنتمرية حصن علي البحر الأعظم سورها يصعد ماء البحر فيه اذا كان فيه المد ... وبها المراكب وبطور واردة وصادرة ... وهي مدينة اولية وبها دار صناعة للأساطيل وبازائها جزائر في

---

١ - تاريخ العرب ص٤٩٩ / ٢ - الروض ص١٦١ / ٣ - نفس المصدر ص١٥٨ / ٤ - معجم البلدان ج٥ ص٢٨٨ / ٥ - الروض ص١١٠ / ٦ - معجم البلدان ج٥ ص٢٨٦ / ٧ - الروض ص١٠٦ .

البحر ينبت فيها شجر الصنوبر ١

هذه هي اهم دور الصناعة في الأندلس وفي تلك المراكز كان ينشأ الأسطول الأندلس. ولم تنشأ جميع هذه المراكز في وقت واحد بل كان الأمراء والخلفاء الأمويين يعمرونها حسب حاجتهم الي المراكب ليغذو بها اسطولهم . واني اسف بدان المصادر التي قرأتها لا تكتب شيئا عن تطور دور ٨ الصناعة في الأندلس ولا عمن انشأها واهتم بامرها .كما انني لا اعلم سبب خراب تلك المراكز وانعدامها ولكني ارجح ان الفوضي الداخلية وانقسام المملكة الي دويلات مستقلة كان له اسوأ الأثر علي مراكز الصناعة والأسطول حتي اهمل امرهما وادي الي زوالهما مع الحكم العربي من تلك البلاد .

وتكملة للفائدة سأذكر اهم دور الصناعة التي كانت بجزيرة صقلية .

المبحث الخامس

مراكز الصناعة في صقلية

هناك ثلاثة مراكز للصناعة شهيرة في جزيرة صقلية .

اولها مدينة الخالصة التي يقول عنها ابن حوقل " الخالصة ذات سور من حجارة ... وبها جيش للسلطان ودار صناعة للبحر والديوان ... ومرسي البحر بها " ٢

والمركز الثاني في سينة تلك المدينة التي زارها ابن جبير ورأي فيها من الأساطيل ما لا يحصي عددمراكبه . وجميعها ينشأ بدار صناعة سينة وفي بلرم حاضرة البلاد ٣

وبلرم هي المركز الثالث لصناعة السفن في هذه الجزيرة واهم مركز بها لان اسطول صقلية الذي عليه يتوقف حماية هذه الجزيرة كان مبعثه من تلك الحاضرة ٤

ولننتقل الآن للمبحث الأخير عن دار الصناعة وهو ا

اهتمام الخلفاء والسلاطين بأمر دور الصناعة

لما كان للاسطول شأن كبير في حفظ الدولة والجهاد في بلاد الأعداء كان للخلفاء والسلاطين اهتمام كبير في المراكز التي يبني فيها الأسطول واعني بها دور الصناعة . ولنلمس هذه الأهمية اورد ما ذكره البلوي عن لسان ابي كامل شجاع بن اسلم الحاجب قال " لما لطلقني احمد بن طولون الزمني دار الصناعة . فدعاني يوما فقال لي كل ما تعمل لي من العدة يكفي فيه بالقليل مع تقدم هيبتي في صدر الناس الا المراكب فان البحر لا يهابني ولا يخاف سورتي وليس يعمل في البحر الا

---

١ - الروض ص١٠٦ / ٢ - صورة الأرض ج١ ص١١٩ / ٣ - رحلة ابن جبير ص٣١٠ / ٤ - حضارة العرب ص١٠٥

الوثاقة والجودة في الصنعة وتقديم الأحسان فقدم الحزم في الأحتياط والأستزادة في الأتقان علي المراكب لتسلم بعون الله عز وجل وتوفيقه من معرة البحر " ١

ان هذه الوصية التي يدلي بها احمد بن طولون لنائبه علي دار الصناعة وتعديده عليه بالأهتمام ببناء المراكب وجودة صنعها تدلنا علي الشعور الذي كان يعمره ذاك الحاكم الطولوني باهمية الاسطول واهتمامه بشؤون دار الصناعة والملاحة ٠ كما ان الخلفاء الفاطميين كانوا اذا ارسلوا واليا الي احد المقاطعات يوصوه بما جل من الأمور وهذه فقرة من نصيحة احد الخلفاء لوالي الفسطاط

" وانظر في الصناعة المحروسة وفي عمائر الأساطيل المظفرة المنصورة وتوفر علي تدبير امورها و الأهتمام بشؤونها وحفظ ما فيها من الأخشاب والحديد والعدد والآلات والاسباب وابعث المستخدمين علي المناصحة فيها وبذل الجهد في قصد مصالحها " ٢

ومن مظاهر اهتمام المماليك بامر الصناعة :

نزولهم اليها وترقيبهم لشؤونها بانفسهم عند اقتضاء الحاجة كما فعل الملك الظاهر ركن الدين بيبرس البندقداري يقول المقريزي " وصار ينزل بنفسه الي الصناعة بمصر ويرتب ما يجب ترتيبه من عمل الشواني ومصالحها " ٣ ويحدثنا ابن تغري بردي ايضا من ان السلطان برسباي (٨٢٥ - ٨٤٢) هـ عندما امر ببناء مراكب لغزو بلاد الفرنج كان ينزل بنفسه لدار الصناعة ليكشف علي العمل يقول " واستمر العمل فيهم كل يوم الي ان نزل السلطان في يوم الثلاثاء حادي عشر صفر من سنة ٨٢٨ هـ وكشف عمل المراكب المذكورة " ٤

واذا راجعنا ما ذكره ابن اياس عن قانصوه الغوري (٩٠٦ - ٩٢٢) هـ من اهتمامه بامر الصناعة والمراكب نجد ان ذاك السلطان ذهب الي السويس ليتفقد المراكب التي بناها هناك يقول " وقد قصد التوجه الي نحو السويس ليتفقد المراكب التي انشأها هناك " ٥ ٠ هي عزيمة طيبة وهمة قعساء واهتمام كبير بامر الصناعة والاسطول اذ ان سلطان البلاد يترك عاصمة ملكه ويهجر قصره ويتكبد مشاق السفر في تلك الأيام التي كانت فيها المواصلات لاتزال ابتدائية اولية ويقطع الصحراء ليصل الي السويس ويتفقد المراكب ٠ كل ذلك يدلنا علي مبلغ اهتمام بعض السلاطين بأنشاء المراكب بدور الصناعة

وفي اليوم الذي كانت تلقي المراكب بالماء يحصل احتفال رسمي يحضره الخليفة او السلطان بنفسه وتطرح المراكب بالماء امامه يقول المقريزي " في نصف شعبان سنة ٣٩٨ ركب الحاكم بامر الله الي صناعة المقس لتطرح المراكب بين يديه " ٦ ويحضر مع السلطان احيانا يوم الأحتفال بانزال

---

١ - سيرة احمد بن طولون للبلوي حققها محمد كرد علي المطبعة العربية دمشق سنة ١٣٥٨ هـ / ٢ - صبح الأعشي ج ١٠ ص ٣٦٦ / ٣ - الخطط ج ٢ ص ١٩٤ والظاهر ص ١٤٤ / ٤ - النجوم ج ٦ قسم ٢ ص ٥٨٢ / ٥ - بدائع الزهور ج ٤ ص ٣٦٢ / ٦ - الخطط ج ٢ ص ١٩٦ ٠

المراكب في الماء اتابكه وكبار رجاله ويأتي عامة الناس للفرجة ولمشاركة الدولة بسرورها . ويكون يوم مشهود لما تقوم به البحرية من الألعاب والمناورات . يصف ذلك ابن اياس بقوله "فلما كملت عمارتها نزل السلطان والاتابكي يلبغا الي الجزيرة الوسطي يتفرجان علي القائها في البحر فكان يوما مشهودا فالقوا الأغربة قدامه في البحر والطبل عمال والنفط وزينت الأغربة بالصناجق والسلاح ولعبوا بها في البحر ذهابا وايابا والسلطان ينظر الي ذلك" ١

وكان السلطان احيانا في هذا الاحتفال يخلع علي متولي عمارة المراكب ويكافئ المخلصين من رجال الدولة يذكر ذلك ابن تغري بردي فيقول" نزل السلطان الملك الأشرف اينال في موكب هائل من قلعة الجبل بامرائه وخاصكيته واعيان دولته الي جزيرة اروي المعروفة بالوسطي بساحل النيل لينظروا ما عمر من المراكب فسار الي هناك في موكب عظيم ونظر المراكب وخلع علي سنقرقرق شبق الزردكاش المقدم ذكره وعلي جماعة اخر ممن باشر عمل المراكب ٢

ولم يشارك عامة الناس السلطان بهذا الاحتفال لما اظهره الأمير سنقرقرق من الشدة في معاملة العمال والصناع ولما قام به من عسف التجار وارباب الصنائع يقول ابن تغري بردي" فلم يبتهجوا الناس لنزوله لعظم ما قاسوه من الظلم في عمل هؤلاء المراكب من قلة الأنصاف والجور في حق العمال من ارباب الصنائع وغيرهم ولولا ان الأمر منسوب الي نوع من انواع الجهاد لذكرنا من فعل سنقر هذا ما هو اقبح من ان نذكره " ٣

ولما كمل بناء القاليون الذي امر بصنعه السلطان قانصوه الغوري نزل ليشاهده فزينوه له بالأعلام والمكاحل وعرضوه عليه يقول ابن اياس" وكان سبب نزول السلطان فيما قيل انه عرض المركب القاليون الذي عمره في بولاق عند الرصيف . فلما كمل زينوه بالصناجق والطوارق والمكاحل وتوجهوا به الي طرا وعرضوه علي السلطان في البحر... فمد هناك اسمطة حافلة وابتهج في ذلك اليوم وكان يوما مشهودا " ٤

ان هذه الأحتفالات التي تحصل عند القاء المراكب في الماء بعد صنعها تذكرنا بالاحتفالات التي تقوم في الأيام الحاضرة عند انشاء احدي البوارج او المدرعات او احدي حاملات الطائرات وانزالها في البحر وما يقوم به الملك او رئيس الجمهورية او احدي رجالات الدولة من كسر زجاجات النبيذ او العطور بين هتاف الجماهير وعزف الموسيقي وقصف المدافع .

---

١ - بدائع الزهور ج ١ ص٢١٧ / ٢- النجوم ج ٧ قسم ٢ ص٥٤٧ / ٣ - نفس المصدر ج ٧ قسم ٢ ص٥٤٧

٤ - بدائع الزهور ج ٤ ص٢١٥ .

الباب الرابع

قيادة الأسطول

مقدمة

ان قيادة الأسطول لا تنفصل في مختلف الأقطار العربية عن قيادة الجند فكلاهما مكمل للآخر وكمساعد له في اعماله . وادارتهما تتبع علي الأكثر نظام واحد وجماعة واحدة ينظمون اعمالهما ويوجهوانهما في خدمة الدولة حسب ما تقتضيه الضرورة وتوجهه المصلحة . يقول ابن خرداذبه " والمدبر لجميع امور المراكب الشامية والمصرية صاحب الثغور الشامية "١ فكلمة الثغور تتضمن كما هو معروف المرافئ البحرية والمدن والقلاع والحصون البرية التي علي حدود الدولة . فصاحب الثغور الشامية هو المكلف بحماية حدود الدولة البريه وسواحلها البحرية وادارة شؤون المراكب والجيش علي السواء في مصر والشام . ويقول ابن خلدون " قيادة الأساطيل وهي من مراتب الدولة وخططها في ملك المغرب وافريقية ومرؤوسة لصاحب السيف وتحت حكمه في كثير من الأحوال" ٢ فصاحب السيف وهو رئيس الجند البري والممثل للخليفة او السلطان في تنظيم الجيوش هو الذي يدبر امر الأسطول البحري في كثير من شؤونه واحواله في مملكة المغرب وافريقية

وكان جند الأسطول وقواده علي العموم من جماعة الجيش البري ينتخبهم الخليفة او السلطان من اقدر رجاله واطوعهم اليه ويرسلهم للغزو في البحر يقول زيدان "فجعل معاوية اليمنية فرقة قائمة بنفسها وعدتهم الفا فارس وفرض لهم عطاء مضاعفا وجعلهم جندا مستقلا لا يختلطون بسواهم ... فاستفحل امر اليمنية حتي عرضوا بذكر فضلهم علي دولة بني امية وانهم لو شاؤوا لأخرجوا المضرية من الشام (وفيهم بنو امية) فندم معاوية علي اختصاصهم بذلك الامتياز وقرب منه القيسية واعطاهم مثل عطائهم . وصار يغزي البحر باليمنية والبر بالقيسية فشق ذلك علي اليمنية لأن القيسية من مضر فعاتبوه فجمع بين القبيلتين واغزاهم معا " ٣

اذن غزا معاوية اولا بقبائل اليمنية في البحر واختص القيسية بغزو البر ثم اشرك القبيلتين في الغزو البحري معا عندما وجد ضرورة ذلك . وهكذا نجد ان الخلفاء والسلاطين يوجهون جندهم للغزو في البحر او في البر حسب العوامل الضرورية والأحوال السياسية واحيانا القبلية . ونجد استمرار هذه الظاهرة من ارسال فئة من الجند البري للغزو في الأساطيل باقية في زمن المماليك

---

١ - المسالك ص٢٥٥ وخطط الشام ج٥ ص٣٩ & ٢ - المقدمة ص٢١٠ / ٣ - التمدن ج١ ص١٥٧

يقول المقريزي " فلما كان المحرم سنة اثنتين وستمائة في سلطنة الناصر محمد بن قلاون جهزت الشواني بالعدد والسلاح والنفطيه والأزودة وعين لها جماعة من اجناد الحلقة والزم كل امير مائة بارسال رجلين من عدته والزم امراء الطبلخاناة والعشروات باخراج كل امير من عدته رجلا وندب الأمير سيف الدين كهرداش المنصوري الزراق الي الثغر بهم ومعه جماعة من مماليك السلطان الزراقين " ١

اذن كان جند السلطان وجماعته علي اختلاف رتبهم يسافرون صحبة عساكرهم للغزو في البحر ويعين عليهم امير كبير من اخلص امراء الدولة للسلطان ليكون قائدا عاما عليهم ، ويقول صالح ابن يحي " وعندما تسهلت التعميرة بمصر والحمالتين المذكورتين جهز السلطان (برسباي) مرسوم بتعيين العسكر الذي يتوجه الي قبرس فعين بلبان المحمودي مقدم الف ومعه امراء من الشام واربعين مملوك من مماليك سودون عبد الرحمن نائب دمشق ... وتعين من صفد الأمير الكبير بها ومماليك نائبها ورأس نوبته وتعين من طرابلس الأمير الكبير بها لحمالة طرابلس وابن شهري حاجب حجاب حلب في غراب طرابلس العتيق ومعهما امراء طرابلسية وحلبية " ٢ . هكذا كان يعين السلطان برسباي جماعة الجند والمقدمين والأمراء من مختلف الأقطار الخاضعة لحكمه ويوجههم للغزو وفتح قبرس .

وتكون رتب اولئك الأمراء مختلفة يذكر صالح بن يحي بعض امراء تعميرة مصر ورتبهم فيقول " وكان في تعميرة مصر اربع امراء منهم غرماش قاشوق مقدم الف وقراسراد خجا مقدم الف وقانصوة امير طبلخاناة ويشبك شاد الشرابخانات امير طبلخاناة كل من الأربعة في حمالة من الحمالات الأربعة . ومعهم امراء جماعة عشرنيات وعشراوات كل منهم مقدم علي غراب او مركب " ٣ ويقول ايضا " وكان قبل ذلك قد جهز السلطان (برسباي) وعين من كل مملكة عدة امراء منهم مقدمين الوف وطبلخانات وعشراوات وعين علي باقي الأمراء عدة مماليك كل منهم بحسبه . وعين ايضا علي النواب عدة مماليك مع رؤوس نوب يحكم عليهم ورسم ان يكون نزول الجميع في البحر ليتوجهوا مع عسكر مصر الي قبرس في المراكب التي عمرت في السنة الخالية . وعين السلطان من امراء مصر عدة امراء منهم اربع مقدمين الوف والباقي طبلخانات وعشراوات . وعين من المماليك السلطانية جماعة كثيرة ولما وصل الي مصر العسكر من الممالك الشامية والحلبية والطرابلسية والحموية والصفدية وهم الذين عينهم انضموا الي العسكر المصري ونزلوا جميعا في فم رشيد " ٤

مما تقدم نستدل علي ان جند الأسطول الذين كانوا يرسلون للفتح والغزو في زمن المماليك لم يكونوا من جيش السلطان في مصر فقط بل كانوا من جنود اقطار الدولة بكاملها . وكان يولي علي كل جند قطر

---

١ - الخطط ج ٢ ص ١٩٥ و ١٩٤ / ٢ - تاريخ بيروت ص ٢٢٠ / ٣ - نفس المصدر ص ٢٢١

٤ - نفس المصدر ص ٢٢٧ .

من الأقطار امير من القطر نفسه . يقول صالح بن يحي في الكلام عن العمارة التي ارسلها برسباي سنة ٨٢٧هـ لفتح قبرص ما يلي " ومعهم ثلاث امراء مصرية ومن طرابلس امير ومن الشام امير وتوجهوا الي قبرص " ١

ولا شك ان امارة الأسطول العامة كانت لأمير واحد ينتخب من اعلي طبقات المملكة ترجع اليه امارة البحر ويتبع الجميع اوامره وارشاداته وهو ما يدعوه المؤرخون باميرالبحر .

اما كيفية انتخاب جند الأسطول ومحاربيه فكانت تختلف بحسب قوة الدولة وضعفها . فمن الامثلة علي انتخاب رجال الأسطول ايام الخليفة العباسي المتوكل علي الله حين قوة الدولة اذكر ما قاله المقريزي " فوقع الأهتمام من ذلك الوقت بامر الأسطول وصار من اهم ما يعمل بمصر وانشئت الشواني برسم الأسطول وجعلت الأرزاق لغزاة البحر كما هي لغزاة البر وانتدب الأمراء له ارماة فاجتهد الناس بمصر في تعليم اولادهم الرماية وجميع انواع المحاربة وانتخب له القواد العارفون بمحاربة العدو وكان لا ينزل في رجال الاسطول غشيم ولا جاهل بامور الحرب هذا وللناس اذ ذاك رغبة في جهاد اعداء الله واقامة دينه ولاجرم انه كان لخدام الأسطول حرمة ومكانة ولكل احد من الناس رغبة في انه يعد من جملتهم فيسعي بالوسائل حتي يستقر فيه " ٢ اذن كان لجند الأسطول زمن قوة الدولة حرمة في قلوب الناس وكان العامة يتوسلون لينالوا ذاك الشرف من الأنتساب لخدمة الأساطيل .

اما ايام ضعف الدولة وانحلالها فكان جند الأسطول ورجاله يجمعون من الطرقات من الرعاع والغرباء ويقيدون ويسجنون حتي لا يهربون من الخدمة يقول المقريزي في وصفهم ما يلي " فاذا دعت الضرورةالي تجهيزه (الأسطول) طلب له الرجال وقبض عليهم من الطرقات وقيدوا في السلاسل نهارا وسجنوا في الليل حتي لايهربوا ولا يصرف لهم الا الشئ القليل من الخبز ونحوه وربما اقاموا الأيام بغير شيئ كما يفعل بالأسري من العدو فصارت خدمة الاسطول عارا يسب بها الرجال" ٣

فجند كهؤلاء لا يقوم علي سواعدهم مجد الأسطول وظفره ولا شك ان نصيب اعمالهم الفشل .

وفي الكلام عن قيادة الأسطول سأقسم البحث الي ثلاثة فصول

الفصل الأول رتب البحرية اتناول الكلام فيه عن الألقاب التي كانت تطلق علي رجال الأسطول .

الفصل الثاني مشاهير رجال الأسطول العربي وهم المجلون في خدمة الأسطول الذين تفوقوا علي غيرهم في ميدان العمل والجهاد .

الفصل الثالث صفات القائد والرئيس التي يستحسن ان يتصف بها كل من يرغب ان يخدم في هذه الوظيفة .

---

١ - تاريخ بيروت ص٢٣٠ / ٢ - الخطط ج٢ ص ١٩١ وخطط الشام ج٥ ص٤٠ / ٣ - الخطط ج٢ ص١٩٤

الفصل الأول

رتب البحرية

امير البحر Amirale الأفرنسية و Admiral الأنكزية

ان اهمية الأسطول العربي في الزمن القديم تعجلي لنا بانتقال بعض التعابير العربية البحرية الي اللغات الأجنبية وقد ذكرت سابقا بعض هذه التعابير واضيف الآن كلمة امير البحر اليها وقد اختلف العلماء في الكلمة العربية التي صدرت عنها الكلمات الأجنبية التي تفيد هذا المعني . فزيدان يقول ان لفظ اميرال Amiral الأفرنجية آتية من امير البحر العربية ١ وسرهنك يقول ان لفظ اميرال ماخوذ من امير البحر او امير الماء بالعربية واول من استعمل هذا اللقب في اوربا اهل جنوة وغيرهم من الطاليان ٢ اما Von Kromer فيقول ان كلمة Admiral ماخوذة من كلمة " امير " العربية وليس من كلمة امير البحر ٣ .

ولا منس يوافق M. de Eguilaz من ان كلمة Amiral اتية عن امير الرحل ويأتي بالتعاليل الآتية " من المعروف قديما ان القسم الأول من كلمة Amiral وهي Amir اتية من الكلمة العربية امير ولكن الأختلاف ناتج من وجود " Al " في نهاية الكلمة الذي غير معناها . وقد وافق بعض العلماء Engelman من ان al في كلمة Amiral تحتاج الي تكملة وهي اضافة كلمة بحر وتصبح الكلمة اتية عن امير البحر . وهذا التعليل لا يتفق مع الأمثلة العديدة التي ترد في النصوص حيث نجد ان Amiraat, Amirantz, Amiratz, تفيد فقط معني قائد او رئيس فرقة وليس لها معني بحري بشكل خاص . وهذه الملاحظة التي نقلناها عن M. Devic يقول فيها ان النهايات Al, ant, Aut, atz, etc تبقي دائما دون تفسير . ويتابع لامنس كلامه قائلا . واظن بان M. de Eguilaz وفق الي التعليل الصحيح . فهو يقول ان المراكب التي كانت تؤمن المواصلات بين افريقية والأندلس كانت تسمي " الرحل الأندلسي" او " رحل الأندلس" وقد تختصر ويطلق عليها كلمة " الرحل" وعندما يكون هناك رحل مهم يتولي رآسته امير يتخذ أسم " امير الرحل" وهذا التعليل يتفق بصورة جيدة مع الكلمة البرتغالية Amiralh اذ لا يوجد فارق كبير بين الكلمتين . واما الكلمة الأفرنسية Amiral فقد جرت العادة ان يطرح الأفرنسيون الحرف (H) وقد اختفي الحرف (ح) من الكلمة الطليانية Ammiraglio ولما الألفاظ الأسبانية التي تفيد هذا المعني فهي Almirag, Almiraga ٤ % Almiraj et almiraje " ،

---

١ ـ التمدن ج ١ ص ١٩٩ / ٢ ـ هامش حقائق الأخبار ج ١ ص ٥ والنظم الأسلامية ص ٢٥٠ / ٣ ـ هامش Almirag نقلا عن Amari, Vol III PP. 351 the Orient P. 342 ملاحظات لامنس ص ٢٢ ـ ٢٣
353 /.

جميع العلماء اذن متفقون علي ان كلمة اميرال علي اختلاف كتابتها ولفظها في اللغات الأوربية مأخوذة عن اصل عربي . وان للعرب الفضل في الأسبقية في ايجاد هذا الأصطلاح وغيره من التعابير في ملاحتهم البحرية . وهو يعني امير كبير من اعيان الأمراء واقوام جاها يكون علي رأس الأسطول ١ يقول ابن خلدون " فاذا اجتمعت الأساطيل لغزو محتفل او غرض سلطاني مهم عسكرت بمرفئها المعلوم وشحنها السلطان برجاله وانجاد عساكره ومواليه وجعلهم لنظر امير واحد من اعلي طبقات اهل مملكته يرجعون كلهم اليه ثم يسرحم لوجههم . وينتظر ايابهم بالفتح والغنيمة " ٢
ويقول المقريزي " ولا بد ان يقدم علي الأسطول امير كبير من اعيان امراء الدولة واقوام نفسا " ٣
وهذا هو الذي دعوناه امير البحر .

الرئيس والقائد او المقدم

الرئيس ويقال له الرأس ٤ او يخفف فيقال الريس ويدعي ايضا الربان او المعلم يقول ابن جبير " ربان المركب وهو الرايس " ٥ ويقول ابن بطوطة عند الكلام علي بحر القلزم " وهم يسمون رئيس المركب الربان ولا يزال ابدا في مقدم المركب ينبه صاحب السكان علي الأحجار " ٦
اما ابن ماجد فيسمي الريس بالمعلم ٧ .
وقد انتقلت هذه الكلمة الي اللغات الأجنبية يقول لامنس " الريس او الرئيس Capitaine de navir انتقلت الي اللغة الأسبانية فقيل Arraez والي البرتغالية وهي Arraes, Arrais, Arraiz, Arrayo والي القطلانية Arraix " ٨
والرئيس رتبة في الأسطول وفي السفن التجارية يكون لصاحبها ميزة تسيير المراكب واجرائها بالريح او المجاذيف . اما القائد فانه يدبر أمر الجند والقتال في البحر يقول ابن خلدون " يرجع نظره (الأسطول) الي قائد من النواتية يدبر امر حربه وسلاحه ومقاتلته . ورئيس يدبر امر جريه بالريح او بالمجاذيف وامر ارسائه في مرفئه " ٩
والرئيس في المراكب التجارية بيده تسيير المركب نلاحظ ذلك في قصة الف ليلة وليلة " وقد نشر الرئيس قلاع المركب وسافر بالذين طلع بهم في المركب ولم يلتفت لمن غرق منهم " ١٠
ويرد ايضا " فاوقف الرئيس المركب عليها (الجزيرة) فنزل جميع التجار والركاب " ١١

---

١ - صبح الأعشي ج ٣ ص ٥٢٣ و الخطط ج ١ ص ٤٨٣ / ٢ - المقدمة ص ٢١١ / ٣ - الخطط ج ٢ ص ١٩٣
٤ - المقدسي ص ٣١ / ٥ - رحلة ابن جبير ص ٤٤ و رحلة ابن بطوطة ج ١ ص ١٩٥ / ٦ - رحلة ابن بطوطة ج ١ ص ١٨٤
٧ - الفوائد ص ٧٩ ب / ٨ - ملاحظات لامنس ص ١٩٧ / ٩ - المقدمة ص ٢١١ والعدن ج ١ ص ١٩٥ والمراق الجديد
١٠ - الف ليلة ص ٢٩٢ ليلة ٥٤٩ / ١١ - نفس المصدر ص ٢٩٢ ليلة ٥٤٩ .

اذن الرئيس بيده تسير ~~الملا~~ المراكب علي اختلاف انواعها حربية كانت ام تجارية ويحلف يمينا الا يتهاون بسفينته عند استلامه اياها وان لا يلقيها الي الهلاك ما دامت سليمة لم يحل بها القضاء المحتوم ١ ٠ هذه الرتب الثلاث اللاتي ذكرتها وهي امارة البحر والرئاسة والقيادة هي اعلي مراتب البحرية في الأسطول العربي واصحابها هم البارزون في قيادة الأساطيل ويأتي بعدهم جماعة النوتية الذين يقومون بالشؤون البحرية ثم الجند علي اختلاف طبقاتهم ودرجاتهم وهم اصحاب القتال والحرب ٠ ولننتقل الآن للكلام عن الغواص

<u>الغواص</u>

ومن جماعة النوتية البارزين الذين يجدر ذكرهم فئة خاصة تدعي الغواصون يقول بزرك الناخداه " وكان بين ملاحي السفينة ملاح غواص" ٢ ولهم وظائف عدة في الأسطول منها خرق سفن الأعداء واغراقها ٠ يذكر ابن بطوطة بعض هؤلاء بقوله " وكان غازي جلبي شجاعا مقدما وهبه الله خاصية في الصبر تحت الماء وفي قوة السباحة وكان يسافر في الأجفان الحربية لحرب الروم فاذا كانت الملاقاة واشتغل الناس بالقتال غاص تحت الماء وبيده آلة حديد يخرق بها اجفان العدو فلا يشعرون بما حل بهم حتي يدهمهم الغرق ٠ وطرقت مرسي بلده مرة اجفان للعدو ~~فخرقها~~ فخرقها واسر من كان فيها وكانت فيه كفاية لا كفاء لها " ٣ ومن اعمال الغواصين ايضا اختطاف جند الأعداء يحدثنا المقريزي عن عمل غواصين العرب في حصار الفرنج لدمياط سنة ٦٤٧ مايلي " وابلي عوام ~~الـ~~ المسلمين في قتال الفرنج بلاء كبيرا وانكوهم نكاية عظيمة وساروا يقتلون منهم في كل وقت ويأسرون ويلقون انفسهم في الماء ويعبرون فيه الي الجانب الذي فيه الأفرنج ويعملون في اختطاف الفرنج بكل حيلة ٠ ولا يهابون الموت حتي ان انسانا قور بطيخة وحملها علي راسه وغطس في الماء حتي حاذي الفرنج ٠ فظنه بعضهم بطيخة ونزل حتي يأخذها فخطفه واتي به الي المسلمين " ٤ ويقوم الغواصون ايضا بنقل البريد والمال عند حصار المدن ٠ يذكر ابن شداد ما قام به بعض هؤلاء عند حصار الصليبيين لعكا سنة ٥٨٦ هـ يقول " ومن نوادر هذه الوقعة ومحاسنها ان عواما مسلما يقال له عيسي وصل الي البلد بالكتب والنفقات علي وسطه ليلا علي غرة من العدو وكان يغوص ويخرج من الجانب الآخر من مراكب العدو وكان ذات ليلة شد علي وسطه ثلاثة اكياس فيها الف دينار وكتب للعسكر وعام في البحر فجري عليه امر اهلكه ... ولما كان بعد ايام بينما الناس علي طرف البحر في البلد اذ هو قذف ميتا غريقا فتفقدوه فوجدوه عيسي العوام ووجدوا علي

---

١ ـ عجائب الهند ص ٣٢ والحضارة الاسلامية ج ٢ ص ٣٧٣ / ٢ ـ عجائب الهند ص ٧ / ٣ ـ رحلة ابن بطوطة ج ١ ص ٣٤٢ / ٤ ـ الخطط ج ١ ص ٢٢١ ٠

وسله الذهب و لا شمع الكعب وكان الذهب نفقة للمجاهدين ٠فما رؤي من ادي الأمانة في حياته وقد ردها في مماته الا هذا الرجل" ١ ٠وكان لهؤلاء الغواصين شأن كبير في الملاحة البحرية يرسلهم الريس ليغوصوا في اعماق البحر وليتطلعوا احوال المركب ويخبرونه اذا ما حدث حادث غير طبيعي ومن ذلك ماذكره بزرك الناخداه "ــ فقال للغليص تنزل مع حبل الأنجر وتعرف خبره وان الغايص لما اراد النزول نظر واذا الأنجر بين ظفري سرطان " ٢ وكان الغواصون في مراكب الصين يتخذون من العبيد يقومون بتصليح المركب اذا كسر او خرق بسبب من الأسباب يذكر هرث و روكهيل ما يلي "واذا كسر المركب فجأة فلا يمكن تصليحه من الداخل بل يأمر التجار عبيدهم الأجانب ان تأخذوا سكاكين وقشر قنب ويصلحوه من الخارج لأن هؤلاء العبيد مهرة في السباحة وتبقي عيونهم مفتوحة داخل الماء " ٣ ويذكر ميز ان هؤلاء الغواصين يطلون اجسامهم بزيت السمسم ويسدون انوفهم بالشمع ٠قال لا وحكي رجل من العرب في القرن الثامن الهجري (الثامن عشر الميلادي) انه كان في مراكب البحر الهندي عادة اربعة من الغواصين فاذا نفذ الماء في المركب وعلا فيه عمدوا الي اجسامهم فطلوها بزيت السمسم والي انوفهم فسدوها بالشمع وهم يستطيعون ان يسدوا عشرين الي ثلاثين ثقبا في اليوم " ٤

مما تقدم يتبين ان للغواصين اهمية كبيرة في الأسطول وفي السفن التجارية وكانوا يقومون بخدمات حربية واصلاحية في الأسطول وفي المراكب التجارية جعلتهم يمتازون بها عن غيرهم من بقية الملاحين والنوتية ٠

وتكملة للفائدة اذكر بعض المصطلحات التي تطلق علي رجال البحرية الذين كانوا يعملون بالسفن التجارية ٠

اذكر اولا الناخداه وهو صاحب المركب ٥ ثانيا وكيل المركب او الناخدا وهو وكيل الناخداه الذي يسافر مع السفينة ٦ ثالثا الكراني وهو الكاتب في المركب ٧ رابعا الربان وهو الذي يسير المركب ويجريه ٨ خامسا المنادي وهو الرجل المبلغ اوامر الربان الي الملاحين بصوته العالي ٩ سادسا ديدبان وهو حارس المركب الذي يصعد الي رأس الدقل ويكشف لهم الأخبار ١٠

Chau-Ju-Kua P32

١ ــ سيرة صلاح الدين ص٩٨ / ٢ ــ عجائب الهند ص٦ / ٣ ــ مقدمة
٤ ــ الحضارة الأسلامية ج٢ ص ٣٦٥ / ٥ ــ مروج ج١ ص٨١ و ص٨٩ ورحلة ابن بطوطة ج٢ ص١٦٣ و ١٥٥ و١٤٠
٦ ــ رحلة ابن بطوطة ج ٢ ص١٤١ والحضارة الأسلامية ج ص٣٧٢ / ٧ ــ رحلة ابن بطوطة ج١ ص ١٩٥ /
٨ ــ عجائب الهند ص٦٩ ورحلة ابن جبير ص٤٤ / ٩ ــ عجائب الهند ص٣٣ والحضارة الأسلامية ج٢ ص٣٧٢
١٠ ــ عجائب الهند ص ٦٨ ٠

بانانى المركب وهو خادمه ١ اخيرا العاملين في المركب لنقل الاحمال والامتعة ٢ .

ان معظم هذه الاصطلاحات غير عربية وهي بالاكثر فارسية كانت مستعملة في المراكب التجارية التي تسافر بين جزيرة العرب والصين والهند استخدمها الرحالون الذين جالوا في تلك الاصقاع التي كانت بتماس كبير مع العرب وحفظوها لنا بكتبهم لنستدل بها على العلاقة الوثيقة التي كانت بين العرب وبين الاقوام الشرقية الاخرى . وقد ورد في كتب الرحلات اسماء بعض النواخذة الذين اشتهروا بجولاتهم البحرية الطويلة والذين مهروا في ملاحة البحار وعرفوا الطرقات والانواء فزادت ثروتهم وزاع صيتهم في الافاق . يذكر بزرك الناخداه بعض مشاهيرهم امثال : ابي عبد الله محمد بن بابشاد ابن حرام بن حمويه السرافي . وكان اوجه النواخذه الذين سافروا الى بلاد الذهب واعرف خلق الله بامر البحر ومن جلة البحريين ومستوريهم . ٣ وقد قيل ان بعض ملوك الهند صوره لحالته في النواخذه وعض اسمه في البحر ومن رسمهم ان يصوروا كل من له نباهة وقدر ٤ .

ومردويه بن زرايخت وكان احد ربانية الصين وبلاد الذهب ٥ . واسماعيل بن ابراهيم ابن مرداس الناخوداه وكان من بقية نواخذة بلاد الذهب وهو المعروف عندهم باسماعيلويه وهو من مشاهيرهم ٦ . واحمد بن علي بن منير الناخداه السيرافي وكان من النواخذه الذين سافروا في البحار ومضى لهم الاسم والصيت في البحر ٧ عبهرة الربان : واصله من كرمان وكان يبعث هراها برعي الغنم ثم صار صيادا ثم صار احد بانانية مركب يختلف الى الهند ثم تحول الى مركب صيني ثم صار بعد ذلك ربانا وله في البحر طرائق وسافر الى الصين سبع مرات ولم يكن سلك قبله الى الصين الا من غرر . ولم يسمع ان احدا سلكه وسلم وعاد قط . فان سلم في المضي فهو عجب فلا يكاد يسلم في العودة وما سمعت ان احدا سلم في الذهاب والمجيء سواء . وله قصة في البحر عجيبة تدل على مهارته في الملاحة ومعرفته بالانواء ورياح البحار وامواجها ٨ .

مرد انشاه احد نواخذة بلاد الفلفل وغيرها . وابنه المرزبان الذى ربي مع ابيه في التجول في البحار ولم يكن في ربانية البحر اظلم من المرزبان هذا وانه كان يعامل التجار في مراكبه مايعامل به اصحاب الشروط ٩ ويزيد العماني ناخوذة الزنج ١٠ .

١ـ عجائب الهند ص٦٤ و ٥٠ و ٥٦ و ١٠٤ / ٢ـ الف ليلة ص٢٩٣ (ليلة ٥٤٩) / ٣ـ عجائب الهند ص٥ / ٤ـ نفس المصدر ص٧٣ / ٥ـ نفس المصدر ص٦ / ٦ـ نفس المصدر ص٦ / ٧ـ نفس المصدر ص١٠ ٨ـ نفس المصدر ص ٦٣ ـ ٦٦ / ٩ـ نفس المصدر ص ٧٠ / ١٠ـ نفس المصدر ص ١١٢ .

وكثير من امثال هؤلاء البحريين الذين يذكرون بزرك الناخوداء في كتاب عجائب الهند ويذكر قصصه واخباره ومغامراته وما شاهدوه من العجائب والاخطار . ومما نلاحظه ان هؤلاء النواخذه كان يتخصص كل منهم الى جهة من الجهات او الى بحر من البحار . وتكون معرفته بتلك الجهة معرفة جيدة لكثرة اسفاره اليها واطلاعه على احوالها وطرقها وجزائرها . ومعظم هؤلاء النواخذه والربانية من مدينة سيراف ١ على خليج الفارسي وهي اعظم فرضة لفارس وهي مدينة حط واقلاع للمراكب ٢ واكثر السفن الصينية تحمل من سيراف . وان المتاع يحمل من البصره وعمان وغيرها الى سيراف فيعبى في السفن الصينية بسيراف ٣ يقول المقدسي " وكان (سيراف) حينئذ دهليز الصين دون عمان وخزانة فارس وخراسان وعلى الجملة مارأيت في الاسلام اعجب من دورها ولا احسن . وقد بنيت من خشب الساج والاجر شاهقة تشترى الدار الواحدة بفوق المائة الف درهم " ٤ ويقول الاصطخرى " وبناؤهم بالساج وخشب يحمل من بلاد الزنج وابنيتهم طبقات . وهي على شفير البحر مشتبكة البناء كثيرة الاهل يبالغون في نفقات الابنية حتى ان الرجل من التجار لينفق على داره زيادة عن ثلاثين الف دينار " ٥ وقد نتج هذا الغنى من شدة تطوافهم في البحار وتجارتهم في مختلف الامصار . فقد ذكر الاصطخرى ان بعض تجار سيراف قضى اربعين سنة على ظهر السفينة ٦ . فلا عجب ان يغنى هؤلاء ويثروا ويهدهم تجارة اغنى ممالك الشرق الاقصى من الهند والصين والعراق وجزيرة العرب . ولا عجب ان يتركوا لنا قصصا اشبه ماتكون بالخرافة ولكن فيها شيئا يمثل حقيقة حالهم مع شيء من المبالغة والتجسيم ليهولوا الامر على السامع ويزيدوا باهمية مخاطراتهم . كقصة السندباد البحرى التي ورد ذكرها في كتاب الف ليلة . ومخاطرات كثير من البحارين والتجار التي ذكرت في كتاب عجائب الهند . واخبار كثيرة اخرى ذكرها الرحالون الذين جالوا في تلك الاقطار النائية .

ولننتقل الان لذكر مشاهير قواد الاسطول العربي .

١ـ مروج ج ١ ص ٨٩ / ٢ـ صبح الاعشى ج ٤ ص ٣٤٥ / ٣ـ سلسلة التواريخ ص ١٥
٤ـ احسن التقاسيم ص ٤٢٦ / ٥ـ الاصطخرى ص ١٢٦ / ٦ـ تاريخ العرب ص ٣٤٥

الفصل الثاني

مشاهير رجال الاسطول العربي

كان الخلفاء والسلاطين عندما يغزوون على الغزو في البحر يرسلون الاسطول بقيادة احد كبار الامراء والقادة . وساذكر هنا اشهر هؤلاء القواد الذين برزوا في كل دور من الادوار العربية في مختلف الممالك التي اشتهرت بالاهتمام بالامور البحرية والاساطيل . وليست غايتي استقصاء اسماء هؤلاء القادة المشهورين لان الكلام عن اعمالهم واخبارهم بتفصيل سيأتي عند ذكر عمليات الاسطول الحربية وانما اكتفي هنا بالاشارة الى الذين لمعوا في كل عصر من العصور :

من اقدم قواد العرب الذين ركبوا البحر وغزوا فيه زمن الخلفاء الراشدين :

عبد الله بن قيس الجاسي الذي فتح قبرص سنة ٢٨ هـ * زمن الخليفة عثمان بن عفان يقول ابن الاسير " وبقي عبد الله بن قيس الجاسي على البحر فغزى خمسين غزاة من بين شاتيه وصائفه في البحر والبر لم يغرق احد ولم ينكب فكان يدعو الله ان يعافيه في جنده فاجابه . فلما اراد الله ان يصيبه في جنده خرج في قارب طليعة فانتهى الى المرفأ من ارض الروم وعليه مساكين يسألون . فتصدق عليهم فرجعت امرأة منهم الى قريتها فقالت للرجال هذا عبد الله بن قيس في المرفأ فثاروا اليه فهجموا عليه فقتلوه بعد ان قاتلهم فاصيب وحده ونجا الملاح حتى اتى اصحابه فاعلمهم فجاؤا حتى ارسوا بالمرفأ والخليفة عليهم سفيان بن عوف الاسدي فخرج اليهم فقاتلهم فضجر فجعل يشتم اصحابه فقالت جارية عبد الله ماهذا كان يقول حين يقاتل . فقال سفيان فكيف كان يقول ؟ فقالت : الغمرات ثم ينجلينا . فلزمها بقولها واصيب في المسلمين يومئذ وقيل لتلك المرأة بعد . باي شيء عرفتيه ؟ قالت كان كالتاجر فلما سألته اعطاني كالملك فعرفته بهذا " ١

اما في مصر فكان من مشاهير قادة البحر زمن الخليفة عثمان عبد الله بن سعد ابن ابي سرح الذي ساهم في فتح قبرص وغزا الروم في معركة ذات الصواري وقهرهم سنة ٣٤ هـ .

١ـ الكامل ج ٢ ص ٣٩ ـ ٤٠ والخطط ج ٢ ص ١٩٠ .

اما في العصر الاموى فمن هؤلاء القواد بسر بن ابي ارطاة الذى غزى في البحر سنة ٤٤ هـ ١ ومن رجال البحر الذين طالما تبرم بهم الروم لبرن الطرابلسي ، ومعيوف بن يحي الحجورى من اهل دمشق ، والمغيره بن عبيد الاسدى الخراساني ولي غازية البحر في ايام يزيد بن عبد الملك ٢ .

اما في العصر العباسي فمن اشهر قواد البحر " مازنار مازنار مولى للفتح ابن خاقان في نهاية البلاغة في الجهاد في البر والبحر وكان معه رجال من البحريين لم ير مثلهم ولا اشد منهم وكان له في العدو نكايه عظيمة وكان العدو يهابه وتفزع منه النصرانية في حصونها ولم ير في الثغور الشامية والحرورية بعد عمرو بن عبيد الله الاقطع صاحب ملطيه ، وعلي بن يحي الارمني ٣ صاحب الثغور الشامية اشد اقداما على الروم من مازنار الخادم ... وكانت وفاة مازنار الخادم في ارض النصرانية غازيا في جيش الاسلام تحت الحصن المعروف بكوكب فحمل الى طرسوس فدفن بباب الجهاد وذلك للنصف من رجب سنة ثمان وسبعين ومائتين " ٤ . ويقول المسعودى " واخبرني بعض الروم – ممن كان قد اسلم وحسن اسلامه – ان الروم صورت عشرة انفس في بعض كنائسها من اهل البأس والنجدة والمكايد في النصرانية والحيلة من المسلمين منهم الرجل الذى بعث به معاويه حين احتال على البطريق فاسره من القسطنطينيه فاقاد منه بالضرب ورده الى القسطنطينيه وعبد الله البطال ، وعمرو بن عبيد الله ، وعلي بن يحي الارمني ، والعريل بن بكار ، واحمد بن ابي قطيعه ، وقرماس السلقاني صاحب مدينة ادريق ... وكان بطريق البيالقه وكانت وفاته في سنة تسعا واربعين ومائتين ، وحريس حارس اخت قرماس ومازنار الخادم في موكبه ؛ والرجال حوله وابو القاسم بن عبد الباقي " ٥ . هؤلاء هم اشهر قادة المسلمين في العصر العباسي الذى كان لهم البلاء الحسن في بلاد الروم واعترف بشجاعتهم المسلمون والنصارى على السواء وخلدوا ذكرهم بحفظ صورهم في كنائسهم ومعابدهم .

ومن هؤلاء القادة المشهورين في زمن العباسيين " لاوى المكنى بابي حرب غلام زرافه صاحب طرابلس الشام " ٦ وعبد الله بن وزير صاحب مدينة جبله من ساحل

---

١ – الطبرى الجملة الثانية ج ٦ القسم الثاني ص ٦٧ / ٢ – خطط الشام ج ٥ ص ٣٧ / ٣ – كانت وفاة عمرو بن عبيد الله الاقطع وعلي بن يحي الارمني في سنة واحدة وذلك في سنة ٢٤٩ في خلافة المستعين مروج ج ٤ ص ١٥١ / ٤ – مروج ج ٤ ص ١٥١ / ٥ – نفس المصدر ج ٤ ص ١٥٢
٦ – نفس المصدر ج ١ ص ١٠٧ .

حمص يقول المسعودى عنه " ولم يبق في هذا الوقت - وهو سنة اثنتين وثلاثمائة - انظر منه في البحر الرومي ولا انس منه وليس في بركته من اصحاب المراكب من الحربية والعمالة الا وهو منقاد الى قوله ويقو له بالنصر والحذق مع ماهو عليه من الديانة والجهاد القديم فيه " ١ .

ومما نلاحظه في هؤلاء القادة الذين عددتهم انهم لم يكونوا مختصين بقيادة البحر فحسب بل كانوا تارة يغزون في البحر واخرى في البر حسب اقتضاء الامر والظروف وذلك لان الاسطول البحرى والجيش البرى كانا يعملان معا في غزو بلاد الروم . وكانت ادارة الجند البرية والبحرية عائدة في اساسها لمرجع واحد وهو الخليفة الذى يوجههم حسب رغباته ومصالح بلاده . هذا لايمنع من وجود رؤساء بحريين ثقفوا فن الملاحه وعرفوا احوال البحار واختصوا باجراء السفن وارسائها امثال عبد الله بن وزير الذى ذكره المسعودى .

ومن اشهر قواد الاسطول في الاندلس ابن رماحس ٢ الذى كان في زمن عبد الرحمن الناصر ٣٠٠ - ٣٥٠ هـ .

اما في زمن الفاطميين فكان ابن التبان رئيس المراكب يقول المقريزى عنه " وكان له قدر وابهة في الايام الامرية وغيرها " ٣

وفي زمن الايوبيين كان حسام الدين لؤلؤ الحاجب " متولي الاسطول بديار مصر وكان مظفرا فيه شجاعا كريما " ٤ ثم يعقوب الحلبي الذى اغرق بطسته كي لايستولي عليها الصليبيون ٥

ومن قواد المماليك اذكر ابن حسون الذى كان زمن السلطان بيبرس والذى سار بالشواني لفتح قبرص ٦ والقائد حسين الذى كان في زمن قانصوى الغورى واشتهر في محاربة البرتغاليين شهرة عظيمة ٧ .

وفي زمن المرابطين كان محمد بن ميمون من اشهر قواد الاسطول في زمن تاشفين (٥٣٧ - ٥٤١) هـ ٨ .

---

١ - مروج ج ١ ص ١٠٧ / ٢ - المقدمة ص ٢١١ وحضارة العرب ص ١٥١ / ٣ - الخطط ج ٢ ص ١١٤ / ٤ - الكامل ج ١١ ص ١١٩ / ٥ - سيرة صلاح الدين ص ١٩١ / ٦ - الخطط ج ٢ ص ١٩٤ / ٧ - بدائع الزهور ج ٤ ص ١٠٩ / ٨ - العبر ج ٦ ص ٢٣١ .

اما في زمن الموحدين فقد نبغ القائد احمد الصقلي الذي يقول ابن خلدون عنه ان " اصله من جزيرة جربا اسره النصارى من سواحلها وربي عندهم واستخلصه صاحب صقلية واستكفاه ثم هلك وولي ابنه فاسخطه ببعض النزعات وخشي على نفسه ولحق بتونس ونزل على السيد بها من بني عبد المؤمن واجازه الى مراكش فتلقاه الخليفه يوسف بن عبد المؤمن بالمبرة والكرامة واجزل الصلة وقلده امر اساطيله فجلى في جهاد امم النصرانية وكانت له آثار واخبار ومقامات مذكورة في دولة الموحدين . وانتهت اساطيل المسلمين على عهده في الكثرة والاستجادة الى مالم تبلغه من قبل ولا بعد في ماعهدناه " ١

وكان جحفون الرنداحي على قيادة الاساطيل بالمغرب في دولة الموحدين " ثم ورثها عنه بنوه الى ان زاحمه العرفي بمناكب رياسته فقووا عن سبته فمنهم من نزل بمالقه على ابن الاحمر ومنهم من نزل ببجاية على ابي حفص ولهم في الدولتين آثار تشهد برياستهم ." ٢

وكان القادة كثيرين في الدول التي عددتها وانما اكتفيت بمشاهيرهم فقط واذا اردت ان تتحقق كثرة هؤلاء القادة يكفي ان اذكرلك فقرة من كلام ابن خلدون يعدد فيها بعض الاشخاص الذين توالوا على قيادة اسطول الموحدين زمن المنصور وابنه الناصر يقول " وبعث المنصور (٥٨٠ ـ ٥٩٥) هـ اسطوله مرارا مع ابي العلا ابن جامع ثم مع يحي بن الشيخ ابراهيم الهزرجي فامتنعوا عليهم وقتلوا منهم خلقا وقوى امره وذلك سنة ثلاث وثمانين ثم لما هلك المنصور بعث الناصر (٥٩٥ ـ ٦١١)هـ اسطوله مع عمه السيد ابي العلا والشيخ ابي سعيد بن ابي حفص فنازلوه وانخزل عنه اخوه تاشفين بالناس ... ثم ولي الناصر عليها عمه السيد ابا زيد وجعل ابن طاع الله على قيادة البحر " ٣

في هذا النص يتبين لك ان الكثيرين تناوبوا على قيادة البحر في مدة قصيرة . هؤلاء القادة الذين عددتهم هم اشهر من توالوا على الاسطول العربي وهناك غيرهم سيأتي الكلام عنهم عند ذكر عمليات الاسطول الحربية .

---

١ ـ المقدمة ص ٢١٣ وحقائق الاخبار ج ١ ص ١٧ والتمدن ج ١ ص ١٩٨ / ٢ ـ العبر ج ٧ ص ٦.
٣ ـ العبر ج ٧ ص ١٨٧ .

الفصل الثالث

صفات الربان او الرئيس — والقائد

لاشك ان كثيرين ممن اشتغلوا برآسة الاسطول العربي كانوا ملاحين تعلموا فن الملاحة من تجاربهم الكثيرة التي عانوها في اعمالهم البحرية ،وقد فرقنا سابقا في كلامنا عن قيادة الاسطول بين القائد والرئيس وقلنا ان الرئيس هو المدبر لتسيير الاسطول وحركاته ، ولا شك ان قسما كبيرا في الغلبة والتفوق في المعارك البحرية تتوقف على مهارة الرئيس في حركات الاسطول وحسن توجيهه اثناء المعركة . وتتوقف ايضا على متانة السفن وتمام معداتها . فاذا كان تدبير الجند وشحذ هممهم خلال القتال يتوقف على عمل القائد ومهارته فان ادارة النوتية وحركات الشواني وتمام الات الاسطول تتوقف على معرفة الرئيس واتقانه لفن البحر والملاحة . ونجد هذه الفكرة عند David Hannay الذي يقول " ان طريقة ادارة الحرب في البحر والظفر في المعركة لها علاقة شديدة بقوة المراكب وتفوق سلاحها . وهذان العاملان وهما قوة المراكب وتفوق سلاحها يتوقفان على عامل آخر يمكن ان يظهر سخيفا ، ولكنه بعد درس علم الحركات الحربية وجد ان العامل الثالث لايقل اهميه عن اى من هذين العاملين السابقين الا وهو : الحركات المتعددة التي يتخذها الرئيس اثناء القتال في المكان المناسب له . اومايسمى بعلم الحركات الحربية اثناء المعركة اى Tactics "[١]

وسادكر بعض الصفات التي يجب ان يتحلى بها الرئيس او المعلم — كما يسميه ابن ماجد " مقتبسا اياها من ملاح عانى فن الملاحة واتقنها وهو رئيس علم البحر اسد البحر احمد بن ماجد . فانه يقسم المعلمين الى ثلاثة اصناف فيقول " اعلم ان المعالمة على ثلاثة اصناف فمنهم معلم يروح ويجيء مرة سالما ومرة غير سالم يحسن جوابا ويخطيء جوابا فذلك هو الادون من المعالمة . والصنف الثاني هو المعلم المشهور بين الناس بالمعرفة السنية ،حاذقا ماهرا في مكان يسافر اليه قد جربه ولم يكن مشهور بعد موته . والصنف الثالث المعلم الذي لافوقه صنف من اصناف المعالمة الخابرين ، وهو مشهور باحد الدلالة السنيه والحوصلة الكبيرة ولم يخفا عليه شيء من مشكلات البحر ويصنف تصانيف ينتفع بها في حياته ،وينتفع بها الناس بعد مماته يشكره الصديق والعارف ويذمه الحسود والمخالف ... "[٢]

١— الموسوعة البريطانية مقالة Navy ص ٣٠٠ / ٢— الفوائد ص ٧٦ ب .

بعد ان عرفنا اقسام المعلمين بحسب راى ابن ماجد لنطلع الى رأيه في علم اصول البحر يقول " فانه علم نفيس ولا يتم الا بتمام العمر ومن لا يدرك كله لا يترك كله. وينبغي ان لا يتكبر فيه الانسان كما قال المصنف في حاويته شعرا :

وينبغي البعد من الخيلاء　　　　عند كمال العلم والنهـاء

وينبغي لعارف هذا العلم ان يسهر الليل ويجتهد فيه غاية الاجتهاد ويسأل عن اهله ومن حزبه حتى يحصل مراده لانه علم عقلي وكثرة السؤال فيه ترقية لباقيه فيعلم مالا يعلمه فتتم به رياسته لان من ادعى الرياسة بغير كمال اسبابها وادواتها فقد اخطا كما قيل

رياسات الرجال بغير علم　　　　ولا تقوى الاله هي الخساسة

وكل رياسة من غير علم　　　　اذل من القعود على الكناسة

واشرف منزلا واعز عـــزا　　　　وخير رياسة ترك الرياســـة

فان الخطأ فيه فعل داع لتلف الارواح والاموال وهو اصعب شيء بعد خدمة الملوك . وساير العلوم خطوها لفظي يمهلك المراجعة وهذا لم يمهلك والعلم فحل لم يعطيك بعضه حتى تعطيه كلك . وقال صلى الله عليه وسلم يا ابن آدم ان العلم والادب ثمن نفسك فما تزداد فيه تزداد في ثمنك . وقال علي رضي الله عنه قيمة كل امرىء مايحسنه" ١ .

ثم يصف لنا ابن ماجد الصفات التي يجب ان يتحلى بها المعلم عند ضلال الطريق فيقول " واعلم ايها الطالب ان عند النتخه يكثر الكلام فما عليك منهم واعتمد على قياسك وارجع الى مافي كتابي هذا فان حكم لك المجرى والقياس والوصف والسياسة والفراسة فقل بما عندك ولا تعجل بالنطق . وان نقص من السياسة والفراسة والمجرا والقياس احدا منهم فاحبس عنان اللسان حتى تستوى نهاية المعرفة . والبر لم يعترف الا من البر فاقربه وما اختلفت الظنون على شيء الا وكشفته . فان جميع من ركب البحر مالهم صبر على المماراة وكثرة الكلام عند النتخات وربما في سكوتك يتفقون على معرفة البر فيزول خطوك وان احكموا لك القياس والمجرا والفراسة والسياسة وكنت معاود فقل لهم بجميع الاماكن والنتخات فان سكوتك عند النتخات لم يكون الا اذا كنت سرورة

١ـ الفوائد ص٢ ب .

او اختلف عندك الوصف او المجرا او القياس او شككت في بعض الاشارات فذلك الحين السكوت اولا من الكلام لان كلام غيرك لم تلتفت الناس اليه وانت لو تكلمت بكلمة — واحدة لزمت بها دون جميع الناس لانك اعلاهم مرتبة كقول الشاعر :

العيب في الجاهل المغمور مغمورا   وعيب ذي الشرف المشهور مشهور

وقال الطغرائي :

وياخبيرا على الاسرار مطلعـــا   اصمت ففي الصمت منجاة من الذلل

فكن عند النتخات رزين العقل فان اكثر الخطا في كثرة المنطق خصوصا في هذه الصنعة وخطاها في المنطق اكثر من خطاها في الفعل " ١ ويقول ايضا " وكن حازما قويا في قولك لين الطبيعة ولا تصحب من لايطيعك فيما يعينك فلم تجد لك في الشدايد شريكا الا الاسرار وكن شجاعا ذو باس قليل الغفلة كثير الهمة كثير الصبر والاحتمال تقيا نقيا ولا تظلم احدا لاحد وتامل جميع الالات خصوصا في السكان في كل حين وساعة وتامل بحسن النبأ المستقبل لايعمل التعب الذي انت فيه عانه منى ولا تنام الا بقدر مايدفع عنك السنة والسهر وعندما ترقد لاتخلي المسكن وحده وحارب النوم الحرب الكلي فان الخير ابقى وان طال الزمان به ـــ ـــ والشر اخبثمااودعت من زاد كما قيل في ذلك شعرا :

خفوا في ظلام الليل كي تتقدموا   ومن سهر الليل الطويل تقدما

ولا ترى خللا في السفينة وتهملها الى وقت آخر الا عند الضرورة اشد مما انت فيهـا وجود الموسم واختصر الشحة واحسب حساب الحازمين العارفين الخير والشر كما قال الشاعر في ذلك شعرا :

فما كل من يعزى بشيء يناله   ولا كل من يستمهل الشكر يشكرا

وقال حازم من العرب شعرا حسنا :

صلوا الحزم فالخطب الذي تحسبونه   يسيرا فقد تلقونه متعسرا

والحذر الحذر اذا استشارك عدوك في السفينة فانه لم يستشيرك الا عند فساد الامر مقصوده يشركك في الشر . والمعلم الكلمة عليه سابقة فهذب الرأى واصمت اواجب

١ـ الفوائد ص٦٢ ب .

اواجب جوابا لايضرك في العواقب ولا يلزموك به . وينبغي انك اذا ركبت البحر - تلزم الطهارة فانك في السفينة ضيف من اضياف الباري عز وجل فلا تغفل عن ذكره فانه شديد العقاب . وانه لغفور رحيم لانه يمهل ولا يهمل فلا يغرنك بالله الغرور واترك مالا يعنيك وانه جميع الركاب عن كثرة المزاح في البحر ينتج ، وما ينتج منه الا الشر والبغض والعداوات . " ١

ثم يذكر ابن ماجد الامور الاساسية التي يجب على المعلم معرفتها فيقول " اعلم ايها الطالب ان لركوب البحر اسباب كثيرة فافهمها فاولها معرفة المنازل — والاخنان والديرة والمسافات والباشيات والقياس والاشارات وحلول الشمس والقمر والارياح ومواسمها ومواسم البحر والات السفينة وما يحتاج اليه وما يضرها وما يرفعها وما يضطر اليه في ركوبها وينبغي تعرف المطالع والاستوايات وجلسة القياس وترتيبه ومطالع النجوم ومغاربها وطولها وعرضها وبعدها ومرمها . ان كان معلما ماهرا . وينبغي ان تعرف جميع البرور وندخاتها واشاراتها كالطين والحشيش والحيات والحيتان والموارز والارياح . وتغير الاهواء ومد البحر وجزره في كل طريقة ويكمل جميع الالة ويتفقد في احصان — السفينة والاتها ورجالها ولا يشحنها غير العادة ولا يطلع في مركب لايطاع فيه ولا مركبا بغير اعتداد ولا في موسم ضيق ويحترز عن الاخطار في مثل عدة ورجال وغيره . وينبغي للمعلم ان يعرف الصبر من التواني زيفرق بين العجلة والحركة عارفا عالما — بالاشياء عزاما فتاكا لين في قوله عادلا لايظلم احدا لاحد مقيم على الطاعة تربه متق لله تعالى لايغضب التجار على حقوق الا على شيء وقع عليه القول او جرت عليه العادة . كثير الاحتمال عالي الهمة صبارا مقبولا بين الناس لايسعى فيما لايصلح له اديبا لبيبا والا فليس هو معلم بالقاعدة " ٢ .

ثم يذكر ابن ماجد واجبات المعلم قبل سفره وماذا يجب ان يقوم به من الاعمال من تفقد احوال السفينة وادواتها فيقول " فاعلم وفقك الله اذا عرفت جميع ذلك واردت العمل به تأمل في السفينة وهي فوق الارض واكتب جميع خللها . وقليل في زماننا من يفعل ذلك في الناس وانما القول على اهل الكمال ليس القول على مفلس يبيع نفسه وغرضه بايسر شيء من الطمع . واذا ركبت فيها انصب عودا وفيه خرقة درا

---

١ — الفوائد ص ٥٨ آ — ٥٩ آ / ٢ — نفس المصدر ص ٧ آ /

او حويرا وقطن لتعرف الوبع به من اى خن . وجلس الحقة في مكانها وتفقد كل التفقد اول في نصب الحقه لان من المراكب مايكون في نجارته خلل فيعدي بك عن مجراك فاستدران الامر باوله . وتأمل الجاه بالليل وحقه في مكان يوافق المكان الذى حكمت عليه بالحقه بالنهار حتى لايكون بالنهار مجرى وبالليل مجرى ويطول الطريق فحكم — جميع ذلك اول سفرك فما تنفع الندامة آخر السفر " ١

بعد ان يذكر ابن ماجد الصفات العديدة للمعلم يلقي عليه نصيحة اخيرة فيها مسحة من اعتقاده بالقدر مستمدة من العقيدة التي يؤمن بها فيقول :

" فان قصرت في شيء من ذلك فلا تلومن الا نفسك فان دركك اعظم من درك جميع من ركب البحر فان فعلت جميع مامرتك به واخطات فانا الملوم حيا وميتا . واما القضاء والقدر فهو غالب لانه من الله تعالى وقد قيدوا ذلك بقيدان جميع مايخشى يذم عليه الانسان الا القضاء والقدر فلا حيلة له فيه بل يتلقاه الدعاء فيعتلجان الى يوم القيامة. فاكثروا من الدعاء لانه مهلك معه احد . وقال سبحانه وتعالى (ادعوني استجب لكم) وثلاثة من الهمها لم يحرم ثلاثة : من الهم الدعاء لايحرم الاجابة ومن الهم الاستغفار لم يحرم المغفرة ، ومن الهم الشكر لم يحرم الزيادة . ولا تتركوا حرب البحر وعدة الحصن الحصين " ٢ ثم يذكر ادعية وبعض آيات من القرآن الكريم تنفع في دفع البلاء وافراج الشدة والكرب تدلنا على معتقد الرجل وفكرته الدينية من ترك الامور لمشيئة الله بعد القيام بالواجب .

ان هذه الصفات التي يذكرها ابن ماجد تنطبق على المعلم في المراكب التجارية وهي تنير الطريق لنا عن الاصول التي كان يتبعها البحريون ورجال الاسطول في — اسفارهم والعده التي يتخذونها في ترحالهم وغزواتهم . ومهما اختلف نوع السفر في البحر ومهما تعددت غاياته سواء كانت تجارية ام حربية فالاصول والقواعد المعروفة تبقى متبعة عند الجميع ويستخدمها المعلم في مركبه والرئيس في اسطوله .٣

اما صفات القائد او المقدم وواجباته فتتجلى لنا من عبارة القلقشندى التي كان الخلفاء الفاطميون يرغبون ان يتحلى بها ويقوم بتنفيذها من يقدمونه على اساطيلهم

١ــ الفوائد ص٥٧ ب / ٢ــ نفس المصدر ص٥٨ ب / ٣ــ صبح الاعشى ج ١٠ ص٤٤٥

اما صفات القائد او المقدم وواجباته فتتجلي لنا من عبارة القلقشندي التي كان الخلفاء الفاطميون يرغبون ان يتحلي بها ويقوم بها من يقدمونه علي اساطيلهم يقول "وقدم علي الأساطيل والمراكب الحربية واعمالها ورجال البحر من تختاره لذلك من اماثل الأمراء المشهورين بالعدة والنجدة والبصارة والمهارة والخبرة بصنعة البحر والقتال فيه ومره بالتحميل وملازمة السيف والارساء من الخطوط بحيث يتأمل ضاربك ليكون ما حمل عليها من ميرة وعدة قريبا منك فان نازلت ثغرا من ثغور الساحل فاملأه بالخيل من بره وبالشواني من بحره واستخدم لحفظ ما فيها من الأزواد والأسلحة والعدد والنفط ودهن البلسان والحبال والقرادات وغيرها من الآلات من تثق بامانته ومعرفته وتقدم اليهم بالحوطة علي ما يخرجونه من العواري واسترجاعه بعد الغني عنه واستظهر بذلك استظهارا يحمد موقعه لك ويعرف به رصين رايك وسديد مذهبك " ١

هذه لمحة موجزة عن صفات الريس والقائد التي كان يستحسن ان يتصف بها كل من نال هذه الرتبة وحاز هذا المنصب الرفيع في خدمة الأسطول.

ولننتقل الآن للكلام عن ~~نظام~~ ادارة الأسطول .

---

١ - صبح الأعشي ج١٠ ص٤١٣ .

الباب الخامس
ادارة الأسطول

مقدمة

لم تكن ادارة الأسطول في العصور العربية الأولي تنفصل عن شخص الخليفة . اذ ان جميع اعمال الدولة كانت تدور حول شخصية الخليفة . فهو قطب الرحي والعمال والولاة حوله هم المنفذين لأحكامه واوامره . ففي العصر الأموي كانت ادارة الأسطول في الشام ومصر تابعة لصاحب الثغور الشامية كما يقول ابن خرداذبة "والمدبر لجميع امور المراكب الشامية والمصرية صاحب الثغور الشامية" ١ . ولما كانت اعمال الأسطول متممة ومساعدة لأعمال الجيش البري لذلك كانت ادارته علي الأغلب تابعة لصاحب السيف . فرئيس الجند هو المشرف علي الأسطول وهو المدبر لشؤونه في مملكتي الأندلس وافريقية كما يقول ابن خلدون ٢

اما نفقات الأسطول واجور بحريته فكانت تابعة لبيت المال فكان وكيل بيت المال زمن الفاطميين هو المفوض في بناء المراكب واجراء مايجب عمله بالنيابة عن الخليفة يقول القلقشندي " ويفوض اليه (صاحب وكالة بيت المال) عن الخليفة بيع ما يري بيعه من كل صنف يملك ... وانشاء ما يري انشاءه من البناء والمراكب وغير ذلك مما يحتاج اليه في التصرف عن الخليفة " ٣

ولم تستقل ادارة الأسطول ويصبح لها ديوانا خاصا له ادارته وماليته واعماله المختصة به الا في زمن الأيوبيين كما سنري.

وقد قسمت الكلام في ادارة الأسطول الي ستة فصول اتكلم في

الفصل الأول عن ديوان الأسطول زمن الأيوبيين .

الفصل الثاني عن تجمع مراكب الأسطول قبل الغزو .

الفصل الثالث عن عدد مراكب الأسطول في مختلف الدول العربية .

الفصل الرابع عن اجور البحرية .

الفصل الخامس عن تحصين السواحل في مختلف الأدوار العربية .

الفصل السادس عن وداع الأسطول عند ذهابه للغزو وعند عودته منه .

من خلال هذه المباحث المتنوعة تحصل لنا فكرة عامة عن ادارة الأسطول اذ اننا سنري

---

١ - المسالك ص ٢٥٥ / ٢ - المقدمة ص ٢١٠ / ٣ - صبح الأعشي ج ٣ ص ٤٨٧ .

في هذه الفصول واردات الأسطول في زمن من الأزمان وترى ايضا ما يعرف على بناء الأسطول والبحرية وتعمير المرافئ وتحصينها وما يقدمه الخلفاء والسلاطين من الأموال والخلع لرجال الأسطول ....كل ذلك يعطينا فكرة عامة عن الأدارة في الزمن القديم .

ولنبتدئ الآن بالكلام عن ديوان الأسطول.

الفصل الأول

ديوان الأسطول زمن الأيوبيين

قبل البحث عن امر الديوان يجب ان نتعرف الى مكانه ومن الطبيعي ان يكون قريبا من مراكز دور الصناعة لعدة الرابطة بين ادارة الأسطول وانشاء المراكب التي يتوقف على وفرتها ومتانتها قوة الأسطول . فالمقريزي يحدثنا ان مكان ديوان الأسطول كان في داخل دار الصناعة بمصر يقول " وقال ابن الطوير الخدمة في ديوان الجهاد ويقال له ديوان العمائر وكان محله بصناعة الأنشاء بمصر " ١ ويقول ايضا عند كلامه عن صناعة مصر ومنظرتها مايلي " وكان بهذه الصناعة ديوان العمائر " ٢

اما رئيس هذا الديوان فقد كان الملك العادل اخو السلطان صلاح الدين الأيوبي ولاه اياه لثقته به واعتماده عليه لعلمه بأهمية الأسطول ومكانته في حفظ الدولة الاسلامية لاسيما في زمن كان الصليبيون يغيرون به واصل على البلاد الأسلامية بمراكبهم واساطيلهم فكان من اللازم على السلطان صلاح الدين ان يوكل امر لرجل حازم يثق بامانته واخلاصه ليقف في وجه اولئك الصليبيين في البحر كما كان هو بنفسه آخذ امر محاربتهم في البر فقام الملك العادل بخدمة هذا الديوان حق القيام وولى عليه صفي الدين عبد الله بن علي بن شكر ليقوم بالأعمال وينفذ اوامره واوامر اخيه السلطان وقد رفع الملك العادل اجور البحريه وعمال الأسطول عما كانت عليه ليقوموا بالخدمه حق القيام يقول المقريزي في ذلك" وسلم هذا الديوان لأخيه الملك العادل ابي بكر محمد بن ايوب فاقام في مباشرته وعمالته صفي الدين عبد الله بن علي بن شكر وتقرر ديوان الأسطول الذي ينفق في رجاله نصف وربع دينار بعد ماكان نصف وثمن دينار / ٣

---

١ ـ الخطط ج١ ص ٤٨٢ ٢ ـ نفس المصدر ج٢ ص ٤٨٢ ٣ـ نفس المصدر ج٢ ص ١٩٤

ولم تكن اعمال هذا الديوان محصورة في ادارة المراكب الحربيه فقط بل كانت تتناول امر ادارة المراكب الديوانيه وما يتعلق بها من الأعمال . يقول القلقشندي " الخدمه في ديوان الجهاد يقال له ديوان العمائر وكان محله بالصناعه بمصر وفيه انشاء المراكب للاسطول وحمل الغلال السلطانيه والأحطاب وغيرها ومنه ينفق على رؤساء المراكب ورجالها ." ٤

ويقول المقريزي " ديوان العمائر ... للأسطول والمراكب الحامله للغلات السلطانيه والأحطاب وغيرها . " ١

اما اعمال المراكب الديوانية فهي كثيرة

فبعضها برسم الخليفة للنزول فيها يوم فتح الخليج ٢ وقد تكلمنا عن ذلك عند ذكر العشاريات وبعضها لنزهة الخلفاء واهله ٣ .

وبعضها برسم ولاة الأعمال المميزة يقول المقريزي " فهي تجر لهم وينفق في رؤسائها ورجالها اينما كانوا من مال هذا الديوان وتقيم مع احدهم مدة مقامه فاذا صرف عاد فيه وخرج المتولي الجديد في العشاري المرسي بالصناعة ولا يخرج الا بتوقيع باطلاقه والأنفاق فيه . وللمتصرفين بالأعمال عشاريات دون هذه ...." ٤

وبعضها برسم الغلال والحاصلات السلطانية يقول المقريزي " وكان في الساحل بطريق مصر من القاهرة في البساتين المنسوبة الي ملك صارم الدين حاللها شونتان مملوءتان تبنا معبيتان كتعبية في المراكب كالجبلين الشاهقين ولهما مستخدمون حام ومشارف وعامل بجامكية جيدة تصل بذلك المراكب العبانه المؤهلة له من موظف الأتبان بالبلاد الساحلية وغيرها مما يدخل اليه في ايام النيل ولها رؤساء وامرها جار في ديوان العمائر والصناعة . والانفاق منها بالتوقيعات السلطانية للاصطبلات المذكورة وغيرها من الأواسي الديوانية " ٥

<u>واردات الديوان</u>

وكان لهذا الديوان واردات خاصة منها لرجال الأسطول ونواتي المراكب الجهو

---

٤ - صبح الأعشى ج ٣ ص ٤٩٦ ١ - الخطط ج١ ص ٤٨٢

٢ - الخطط ج١ ص٤٨٢ / ٣ - نفس المصدر ج١ص٤٧٦ / ٤ - نفس المصدر ج١ ص٤٨٣

٥ - نفس المصدر ج١ ص٤٤٥ .

الديوانية وموظفي الديوان ولمختلف انواع النفقات من الأنشاء والمعدات وغيرها . وهذه الواردات هي

اولا بعض المقاطعات التي خصصت وارداتها لهذا الديوان يعددها المقريزي بقوله " وعين لهذا الديوان الفيوم باعمالها والحبس الجيوشي في البرين الشرقي والغربي وهو من البر الشرقي بهتيت . والأميرية . والمنية ومن البر الغربي ناحية سفط ووسيم والبساتين خارج القاهرة ... وناحية اشناي وطهندي "١

ثانيا الحراج . وهي في الوجه القبلي من الديار المصرية يقول المقريزي "وعين له ايضا الحراج وهو اشجار من سنط لاتحصي كثرة في البهنساوية وسفط ريشين والأشمونين والأسيوطية والأخميمية والقوصية لم تزل بهذه النواحي ولا يقطع منها الا ما تدعوا الحاجة اليه وكان فيها ما تبلغ قيمة العود الواحد منه مائة دينار " ٢ ويقول ابن مماتي ان لهذه الحراج رسم علي من يجاورها من النواحي يقال له " مقرة السنط " وهو مقابل ما ياخذونه من الأخشاب برسم عمائرهم . وتقلم هذه الحراج ويدفع اجرة كل مائة حمل دينار واحد والمشروط علي المستخدمين في تقليم الأشجار ان لا يقطعوا شيئا من خشب العمل الصالح لعمائر الأسطول وانما يقطعون الأطراف والهشيم وما ينتفع به في الوقود ويسمي حطب النار . وعادة الديوان ان يبايع التجار علي هذا الحطب بما مبلغه عن كل مائة حمل اربعة دنانير من الأشمونين واسيوط واخميم وقوص ويكتب للمستخدمين بذلك فاذا وصلت مراكبهم اعتبر ما فيها فما كان فيها من خشب العمل استهلك للديوان وما كان من حطب النار قوبل ما في الرسالة المسيرة صحبتهم فان كان فيها زيادة عما تضمنته اخذت ولا يكتب لصاحبه وربما استخرج منه ثمن الزائد معه بنسبة ما كان اشتري من مستخدمي الديوان ٣

ثالثا وارد ارباع الكباش يقول ابن مماتي عنها " هذه مراكب تعمر من هذه الحراج المقدم ذكرها . فاذا وصلت الي ساحل مصر قومت او نودي عليها فمهما بلغت اليه من الثمن طولب صاحبها بحق الربع من القيمة ضريبة استمرت وحالة استقرت" ٤ ثم بطلت هذه الضريبة فيما بعد تفاديا لسوء معاملة المستخدمين علي ارباب المراكب .

رابعا المراكب الملوحة يقول ابن مماتي عنها " هذه مراكب جارية في ملك الديوان يضمنه البحريون لمدة معلومة باجرة مفهومة فاذا احتاجت الي عمارة اعتد لهم عن مدة العطلة باجرة

---

١ - الخطط ج ٢ ص١٩٤ / ٢ - نفس المصدر ج ٢ ص١٩٤ / ٣ - قوانين ص١٧ - ١٨

٤ - نفس المصدر ص ١٨ .

نظيرها من مدة العمل وسنتها ثلاثة عشر شهر ..." ١

خامسا ما يستادي من اهل الذمة . فقد كان هناك ضرائب ومكوس خاصة علي تجار اهل الذمة خصصت لديوان الأسطول وكانت ومن ابن مماتي كما يلي " الذي يستادي من اهل الذمة الآن نصف ما كان يستأدي منهم من قبل علي حكم المطالعة لاحكم الضريبة . والمواضع التي يستادي فيها مصر والأسكندرية واخميم . واما بقية الأعمال فلا شيئ فيها للديوان " ٢ واما الضريبة التي تؤخذ من تجار الروم فهي الخمس ويحدده ابن مماتي بقوله " الخمس عبارة عنما من المستأذن من تجار الروم والواردين علي الثغر بمقتضي ماصولحوا عليه وربما يستخرج عن ما قيمته مائة دينار ماينيف عن خمسة وثلاثين دينارا وربما انحط عن العشرين دينارا ويسمي كلاهما خمسا . ومن اجناس الروم من يستأدي منهم العشر الا انه لما كان الخمس اكثر كانت النسبة اليه اشهر ولذلك ضرائب مستقرة وعوائد مستمرة واوضاع مألوفة وطرائق فيما بين المستخدمين فيه معروفة ...." ٣

سادسا الزكاة يقول المقريزي عنها " ثم افرد لديوان الأسطول مع ما ذكر الزكاة التي كانت تجبي بمصر وبلغت في سنة زيادة علي خمسين الف دينار " ٤

سابعا خصصت اثمان بعض مواد مصر الطبيعية لديوان الأسطول كالنطرون والشب. يقول المقريزي عن النطرون " وعين له ايضا النطرون وكان قد بلغ ضمانه بثمانية الف دينار " ٥ ويقول ابن مماتي عنه " النطرون يوجد في معدنين بالديار المصرية احدهما في البر الغربي ظاهر ناحية يقال لها الطرانة بينه وبينها وبينها نهار وهو صنفان احمر وخضر والآخر بالفاقوسية وليس يلحق في الجودة بالأول وهو محظور محدود لاسهيل الي ان يتصرف فيه غير مستخدمي الديوان والنفقة علي كل قنطار سنه درهمان . ويبلغ ثمن القنطار لموضع الحاجة اليه سبعين درهما واكثر من ذلك والعادة المستقرة فيه الآن انه متي انفق الديوان علي المستخدمين من اجرة حمولة عشرة الآف قنطار التزموا حمل خمسة عشر الف قنطار والزيادة فيه نصف قنطار وتوخذ خطوط المستخدمين بالتزام ذلك والذي تدعو الحاجة اليه في كل سنة من صنفه ثلاثون الف قنطار ويلتزم الضمنا تسلمه من ناحية الطرانه ليسلم الديوان من نقص وزنه وخطر غرقه . وهذا المعني وان كان فيه حوطة للديوان فهو يؤدي الي تأخير الأقساط عند الضمنا لأن من عادتهم انهم متي لم يقبضوا نطرونا لم يلزمهم عنه ثمن فهم ابدا يؤخرون قبض جميع مالهم

---

١ ـ نفس قوانين ص١٨ والخطط يقول المقريزي" وافرد لها المراكب الديوانية " ص١٩٤ / ٢ ـ قوانين ص١٩ / ٣ ـ نفس المصدر ص٣٢ / ٤ ـ الخطط ج٢ ص١٩٤ / ٥ ـ نفس المصدر ج٢ ص ١٩٤

فيه او اكثره ليجدوا ما يحتجون به ولا يخوضون من صنعه ما نبتاعونه قلعا من العربان لعجز النواب عن ضبط الوادي وحفظه منهم فيحصلون علي فائدة الضمنا وكسر مال الديوان .
وليس للضمنا من المتعيشين في الغزل ما يبتاع شيئ منه وانما المبيضون واصحاب العنانير يحتاجون اليه ولا يجدونه الا عندهم فتلجئهم الضرورة الي ابتياعه منهم بالسعر المقدم ذكره علي ما ينفق من غير زيادة فيه . وهذا الباب مصروف ماله او اكثره في نفقات الغزاة وقواد الأسطول" ١

اما الشب فهو كما يقول ابن مماتي عنه " حجر يحتاج اليه في اشياء كثيرة اهمها الصبغ وللروم فيه من الرغبة ما يجدونه من الفائدة وهو عندهم مما لا بد منه ولا مندوحة عنه . ومعادنه بصحراء صعيد مصر وعادة الديوان ان ينفق في تحصيل كل قنطار منه بالليثي ثلاثين درهما وربما كان دون ذلك . وتهبط به العرب من معدنه الى ساحل قوص والى ساحل اخميم وسيوط والى البهنسة ان كان ابتياعه من واحات ويحمل من اي ساحل كان عليه الى الأسكندريه ايام جري الماء في خليجها ولا يعتد للمستخدمين فيه الا بما يصلح بالاعتبار في ~~محبوبه~~ متجرها . هذا الذي توجبه الحوطه للديوان لئلا يؤخذ في غيرها - فينقص او يهيج به البحر فيغرق ومن خرج عن اعتماد ذلك من اصحاب الديوان فقد تعرض للدرك وتصدى للخطر . وهو يشترى بالليثي ويباع بالجوري . وآخر ما تقرر ~~بيعه~~ بيعه منه على تجار الروم اثنى عشر الف قنطار ومهما زاد عن ذلك كان باجتهاد المستخدمين فيه مع حفظ قلوب التجار . فاما سعره فقد كان تردد من اربعة دنانير عن القنطار الى خمسة دنانير الى ستة دنانير وما بين ذلك ومهما استظهر فيه بزيادة يبذلها التجار عن رغبة كان ذلك من اجتهاد المستخدمين . فاما ما يباع بمصر على اللبادين والحصريين والصباغين فمقدره ثمانون قنطارا بالجوري السنة وسعره سبعة دنانير ونصف وليس لأحد ان يشتريه من العربان ويرد به ليتجر به غير الديوان . ومتى وجد شي منه مع احد استهلك حسما للماده . وتغليظا في العقوبة ولم تجر العادة بحمل شيء منه الى دمياط وتنيس . واما حمله الى الأسكندرية ومنه نوع يسمى الكوادي يجلو من الواحات ويعتد به المستخدمون في حوالتها كل قنطار بدينار وقراطين ويمضي ذلك محمولا الى المتجر على ماسلف الحديث فيه " ٢

هذه هي اهم واردات ديوان الأسطول في العصر الأيوبي . اقول اهم وليس جميع

---

١ - قوانين ص٣٤ / ٢ - نفس المصدر ص٣٣ .

وارداته لان ابن مماتي بعد ان يعدد هذه الواردات يقول " ولذلك ضرائب لاحاجة بنا الي ذكرها الآن لأن استقصاءها لا يمكن والأشهاد بها لا يفيد " ١ والحقيقة ان هذه الواردات عظيمة القدر والمقدار تدل علي عظم النفقة التي تبذل علي الأسطول وما يتبعه من الأمور ومع ذلك فكثيرا ما يقع ديوان الأسطول بعجز يسدده بالاستعانة بمال يستمده من بيت مال الدولة يقول القلقشندي " واذا لم يف ارتفاعه بما يحتاج اليه استدعي له من بيت المال بما يكفيه " ٢ وكذلك المقريزي يقول "واذا لم يف ارتفاعه بما يحتاج اليه استدعي له من بيت المال ما يسد خلله " ٣ ولذلك فقد صدق ابن مماتي في تعريف الأسطول بقوله " الأسطول وهو جهة انفاق وربما حصل منه ما يستخرج وينفق " ٤ ولذلك فقد عرفه بلغة حاسب يقدر النفقة والوارد حق التقدير قدره . فهو من جهة النفقة يستنزف مال الدولة الا انه مقابل ذلك يحميها ويصد عن سواحلها غارة الأعداء .

ويتجلي لنا مصروف الأسطول وما تنفق عليه الدولة من الأموال اذا بينا عدد المراكب المنشأة في كل دور من الأدوار العربية والأجور التي يتناولها البحارة ورؤساء الأسطول .

الفصل الثاني

تجمع مراكب الأسطول قبل الغزو

كانت مراكب الأسطول العربي قبل الغزو تتجمع من مختلف انحاء المملكة في مكان معين ثم تسير من ذلك المكان الي الجهة التي تريدها يقول ابن خرداذبة " ومقدار مايغزوا في الغزاة من مراكب الثغور الشامية ما يجتمع اليها من مراكب الشام ومصر من الثمانين الي المائة والغزاة اذا عزموا عليها في البحر كوتب اصحاب مصر والشام في العمل علي ذلك والصاحب له يجتمع بجزيرة قبرص " ٥

فمراكب الشام ومصر اذن عند الغزو تتجمع في جزيرة قبرص ثم تسير من هناك الي الجهة المعينة . وكذلك الحالة في الأندلس فقد كانت المراكب زمن الخليفة الناصر عبد الرحمن الثالث تتجمع من مختلف انحاء المملكة قبل الغزو ثم يوجهها الخليفة الي البلاد للفتح والتوسع يقول ابن خلدون " وكانت اساطيلها (الأندلس) مجتمعة من سائر الممالك من كل بلد تتخذ فيه السفن اسطول " ٦ وكثيرا ماكانت تجتمع المراكب في دانية او في المرية يقول ابن عبد المنعم

---

١ ـ قوانين ص ٨٧ ١٩/ ٢ ـ صبح الأعشي ج ٣ ص ٤٩٦ / ٣ ـ الخطط ج ١ ص ٤٨٣ / ٤ ـ قوانين ص ١٥

٥ ـ المسالك ص ٢٥٥ وخطط الشام ج ٥ ص ٣٩ والتمدن ج ١ ص ١٩٣ / ٦ ـ المقدمة ص ٢١١ .

" دانية مدينة بشرقي الأندلس على البحر عامرة حسنة ... ومنها كان يخرج الأسطول الى الغزو وبها ينشأ أكثره ..." ١ . ويقول ياقوت عن المريه " وفيها يكون ترتيب الأسطول الذي للمسلمين ومنها يخرج الى غزو الأفرنج " ٢ .

اما في زمن الفاطميين فكانت المراكب تتجمع في دمياط ثم تخرج منها للمكان المقصود يقول المقريزي " وينحدر الأسطول الى دمياط ومن هناك يخرج الى بحر الملح فيكون له ببلاد العدو صيت عظيم ومهابة قوية " ٣

وفي زمن المماليك لما عزم السلطان بيبرس علي فتح قبرص استدعي المراكب من جميع الثغور واجتمعت في مصر يقول المقريزي " واستدعي بشواني الثغور الي مصر فبلغت زيادة علي اربعين قطعة سوي الحراريق والطرائد فانها كانت عدة كثيرة وذلك في شوال سنة تسع وستين وستمائة . ثم سارت تريد قبرص " ٤ . اما في زمن الناصر محمد بن قلاون لما سارت المراكب لفتح قبرص تجمعت اولا في طرابلس لأنها اقرب الجزيرة المقصودة . وكان مركز حركات الأسطول هو ميناء طرابلس فيغزون منه ثم يعودون اليه يقول المقريزي " وساروا الي ميناء طرابلس ثم ساروا ومعهم عدة من طرابلس فاشرفوا من الغد علي جزيرة أرواد من اعمال قبرص ... وقاتلوا اهلها وقتلوا اكثرهم وملكوها ... واستولوا علي ما فيها وهدموا اسوارها وعادوا الي طرابلس " ٥ ويقول صالح بن يحي في ذلك " واجتمعوا المراكب كلها في طرابلس وهم ست حمالات وعشر اغربة كبا ر... فكانوا اربعين قاعا " ٦

هذه هي اهم المدن التي يجتمع فيها الأسطول العربي ويتوجه منها جهة معينة للغزو فيتكتل فيها ككتلة واحدة قوية ثم يسير لأنفاذ ما امر بعمله .

ولننتقل الآن لذكر عدد مراكب الأسطول .

الفصل الثالث

عدد مراكب الأسطول في مختلف الدول العربية

ان في عرض عدد مراكب الأسطول في الأعصر العربية لمختلف الدول التي ساهمت في الأعمال البحرية لصورة لما كان ينفقه الخلفاء والسلاطين علي الأساطيل . فكثرة المراكب تدل علي شدة عناية الدولة واهتمامها بشأن الأسطول كما ان وفرة عددها دليل علي كثرة النفقة عليها وازدياد مصروفها ولنري الآن عدد مراكب الأسطول في كل دولة من الدول العربية

---

١ ـ الروض ص٧٩ / ٢ ـ معجم البلدان ج٧ ص٣٦٧ / ٣ ـ الخطط ج٢ ص١٩٣ / ٤ ـ نفس المصدر ج٢ ص ١٩٤ / ٥ ـ نفس المصدر ج٢ ص١٩٥ / ٦ ـ تاريخ بيروت ص٢٢٢ .

لذلك ان عدد مراكب الأسطول لم يكن ثابتا في دولة من الدول خلال السنين المتعددة التي حكمت فيها وانما كان عدد هذه المراكب يزيد وينقص حسب قوة الدولة وضعفها . فعند قوة الدولة وحيويتها ينشط الأسطول ويقوي ويزيد عدد مراكبه وجنده وفي ايام انحلال الدولة وضعفها يهمل امر الأسطول وتتفتت المراكب ويفقد معظمها . وفي الأخبار العالية التي اوردها عن لسان المؤرخين لعدد مراكب الأسطول في مختلف الدول العربية التي حكمت في العصور الوسطي مقياس لقوة الأسطول وعظمته من جهة . وضعفه وانحلاله من جهة اخري* بعد وسأتبع في تعداد الأخبار والروايات عن عدد مراكب الأسطول التسلسل التاريخي الزمني لهذه الدول التي لها علاقة بتلك الحوادث.

ففي زمن معاوية المؤسس الكبير للأسطول العربي كان عدد مراكبه التي غزا فيها سنة ٣٣هـ لجزيرة قبرس خمسمائة مركب يقول البلاذري " فغزاهم معاوية سنة ٢٣ في خمس مائة مركب ففتح قبرس عنوة " ١ . ولعل آخر ما وصل اليه اسطول الأمويين زمن الخليفة معاوية هو ١٧٠٠ سفينة كان يغزو فيها الروم الصائفة والشاتية ٢ وهذا عدد كبيرقل ان نجد مثله في بقية الأعصر العربية التالية يدلنا علي مبلغ اهتمام معاوية بالأسطول وعظمة القوة البحرية في زمنه .

وليس لدي نص عن عدد مراكب الأسطول في زمن العباسيين واكن كان عدد السفن التي تنقل الناس والتجارة في نهر دجلة في بغداد في اوائل القرن الرابع ثلاثين الفا ٣ وهو عدد عظيم يدل علي عظم الحركة التجارية في تلك المدينة في القرن الرابع هجري .

اما في الأندلس وافريقية فيقول ابن خلدون مايلي " وانتهي اسطول الأندلس ايام عبد الرحمن الناصر (٣٠٠ - ٣٥٠)هـ الي مائتي مركب او نحوها . واسطول افريقيا كذلك مثله او قريبا منه " ٤ اما في الأيام الأخيرة فقد نقص عدد مراكب الأسطول في الأندلس وافريقية يقول ابن خلدون عن " انحطاط الأساطيل في مصر والشام وبقي في الأندلس وافريقية وبقيت دولة المغرب مختصة بها وظل ذلك شأنهم الي آخر دولتهم وكان عدد اساطيلهم في العدوتين (اوربا وافريقية) علي مارواه ابن خلدون مئة اسطول بحري " ٥

اما في مصر فكان عدد المراكب زمن احمد بن طولون (٢٥٤ - ٢٧٠)هـ مائة مركب حربية سوي ما يضاف اليها من العلابيات والحمائم والعشاريات والسنابك وقوارب الخدمة ٦ .

اما في زمن الفاطميين فلم يكن عدد المراكب ثابتا واعظم ما وصل اليه الأسطول في زمنهم ايام الخليفة المعز لدين الله (٣٤١ - ٣٦٥)هـ ستمائة قطعة . يقول المقريزي " وذكر ابن ابي طي

---

١ - فتوح البلدان ص١٦٠ / ٢ - النظم الأسلامية ص٢٤٨ ومعاوية ص٦٨ / ٣ - الحضارة الأسلامية ج ص٣٢٥ / ٤ - المقدمة ص٢١١ / ٥ - التمدن ج١ ص١٩٨ / ٦ - الخطط ج٢ ص ١٨٠ .

ان المعز لدين الله أنشأ ستمائة مركب لم ير مثلها في البحر علي مدينة " ١ ولما ضعفت الدولة نقص عدد مراكب الأسطول واصبح قريبا من مئة مركب يحددهم القلقشندي بقوله "وكان اسطولهم يومئذ يزيد علي خمسة وسبعين شينيا وعشر مسطحات وعشر حمالات وعمارة المراكب متواصلة بالصناعة لا تنقطع وكان لهم ايضا اسطول بعيذاب يعلقي به الكارم فيما بين عيذاب وسواكن وما حولها خوفا علي مراكب الكارم من قوم كانوا بجزائر القلزم هناك يعترضون المركب فيحميهم الأسطول منهم وكان عدة هذا الأسطول خمسة مراكب ثم صارت الي ثلاث وكان والي قوص هو المتولي لأمر هذا الأسطول وربما تولاه امير من الباب ويحمل اليه من خزائن السلاح ما يكفيه " ٢ . وعند انقراض الدولة الفاطمية كان عدد مراكب اسطولهم لا يزيد عن عشرة شواني فيها عشرة الآف مقاتل يقول المقريزي " ورايت بخط الأسعد بن مماتي ان عدة الجيوش بمصر في ايام رزيك بن الصالح طلائع بن رزيك كانت اربعين الف فارس وستة وثلاثين الف راجل وزاد غيره وعشرة شواني بحرية فيها عشرة الآف مقاتل . وهذا عند انقراض الدولة الفاطمية " ٣

اما زمن المماليك فكان عدد المراكب زمن السلطان بيبرس (٦٥٨ - ٦٧٦) هـ اربعين قطعة يقول المقريزي " وقد تسني له بذلك ان يعد اسطولا مكونا من اربعين قطعة حربية سيره الي جزيرة قبرص سنة ٦٦٩ هـ " ٤ ثم زاد عدد المراكب في سلطنة الأشرف خليل بن قلاوون (٦٨٩ - ٦٩٣) هـ الي ستين مركبا يقول سرور " فاهتم الأشرف خليل بن قلاوون علي اثر اعتلائه سلطنة مصر ... بانشاء اسطول قوي ولما كملت عدته الستين مركبا امر بتجهيزها بالآلات الحربية والرجال " ٥

وفي زمن المماليك البرجية ازداد عدد مراكب الأسطول فكان عددها ايام سلطنة السلطان برسباي (٨٢٥ - ٨٤٢ هـ) كثيرا يقول ابن تغري بردي " ان عدد مراكب الغزاة المصريين والشاميين زادت علي مائة قطعة وقيل مائتان وقيل اكثر وقيل اقل مابين اغربة وقراقير وزوارق وغير ذلك " ٦

اما عدد اسطول الموحدين في زمن الملك الناصر محمد بن يعقوب (٥٩٥ - ٦١١) هـ فقد كان ثلاثمائة جفن يقول ابن عبد المنعم عن اقسامها مايلي " وكان الأسطول ثلاثمائة جفن منها سبعون غرابا وثلاثون طريدة وخمسون مركبا كبارا وسائرها قوارب منوعة " ٧

هذا هو عدد المراكب في الأدوار المختلفة للدول العربية التي اهتمت بالملاحة ويجب ان يلاحظ ان كثرة المراكب وحدها غير كافية لتدل علي اهمية الأسطول . اذ ان انواع هذه المراكب

---

١ - الخطط ج ١ ص ٤٨٣ و ج ٢ ص ١٩٣ و ج ٢ ص ١٩٥ والعمدن ج ١ ص ١٩٦ / ٢ - صبح الأعشي ج ٣ ص ٥٢٣ والمقريزي ج ١ ص ٤٨٣ / ٣ - الخطط ج ١ ص ٩٤ / ٤ - نفس المصدر ج ١ ص ٢١٧ / ٥ - نفس المصدر ج ١ ص ٤٨٣ / ٦ - نفس المصدر ج ٢ ص ٢٨٢ ١٩٤ / ٧ - بيبرس ص ١٤٤ .

التي يتألف منها الأسطول امر اساسي في قوة الأسطول فالزوارق والقوارب والسنابك والعشاريات وما اشبه ذلك من انواع المراكب النهرية هي اقل اهمية من المراكب الحربية الأخرى كالشون والأغربة والطرائد وامثالها من مراكب الحرب والقتال لذلك فان كثيرا من النصوص السابقة تعدد عدد المراكب وتذكر انواعها ٠لان لنوع المركب اهمية كبيرة في الدلالة علي قوة الأسطول واهميته ووفرة مصروفه ٠

ولننتقل الآن للكلام عن مقدار ما تاخذه البحرية من الأجور ٠

الفصل الرابع

اجــور البحــرية

ان الأجور التي يتناولها غزاة الأسطول لم تقتصر في كثير من الأحوال علي الراتب الشهري الذي ينفقه الخلفاء للجنود كما هي العادة المألوفة في العطاء وانما هناك اقطاعات واكرامات وخلع وغنائم كان رجال الأسطول يأخذونها عند ذهابهم للغزو او رجوعهم منه وفيما يلي ساذكر نفقات جند الأسطول ورجاله عند بعض الممالك ٠

لقد كانت نفقة الأسطول في العصر الأموي عند الغزو تبلغ مائة الف دينار يقول ابن خرداذبة " ومقدار النفقة علي المراكب اذا غزت من مصر والشام نحو مائة الف دينار " ١ هذا قول عام لا نستطيع من خلاله تقدير اجرة الغزاة البحريين وانما هي فكرة عامة عن مقدار نفقة الأسطول عند غزوه في زمن الأمويين ٠

اما في زمن الخلافة العباسية فكان الأهتمام موجه للزوارق النهرية فكانت دار الخلافة تنفق لأرزاق الملاحين في الطيارات والسميريات والحراقات وما اليها خمسمائة دينار في كل شهر ٢ اما مقدار النفقة علي الأساطيل فليس هناك نصوصا تدل علي ذلك٠

اما في زمن الخلافة الفاطمية فكانت اجور البحرية تختلف بالنسبة الي رتبة رجال الأسطول يقول القلقشندي " وكانت جريدة قوادهم تزيد علي خمسة الآف مقاتل مدونة ٠ وجوامكهم في كل شهر من عشرين دينارا الي خمسة عشر دينارا الي عشرة الي ثمانية الي دينارين "٣ اذن كان اعلي اجور البحرية شهريا عشرين دينارا واقلها دينارين ويقول المقريزي "ولهم اقطاعات تعرف بابواب الغزاة بما فيها من النطرون "٤ وكان الخليفة يتولي نفقة الغزاة بنفسه بحضور الوزير ٠فاذا اراد النفقة فيما تعين من عدة المراكب السائرة ٠٠٠ فيتقدم الي

---

١ ـ المسالك ص٢٥٥ / ٢ ـ الحضارة الأسلامية ج٢ ص ٣٣٦ نقلا عن كتاب الوزراء ص١٩ /

٣ ـ صبح الأعشي ج ٣ ص ٥٢٣ / ٤ ـ الخطط ج ٢ ص ١٩٣ ٠

النقباء باحضار الرجال وفيهم من كان يتعيش بمصر والقاهرة وفيهم من هو خارج عنهما فيجتمعون
وكانت لهم المظاهرة والجرايات في مدة ايام سفرهم وهم معروفون عند عشرين عريفا يقال لهم النقباء
باحضار الرجال وفيهم من كان يتعيش بمصر والقاهرة وفيهم من هو خارج عنهما فيجتمعون وكانت لهم
المظاهرة والجرايات في مدة ايام سفرهم وهم معروفون عند عشرين عريفا يقال لهم النقباء وأحدهم
نقيب ولا يكره احد علي السفر فاذا اجتمعوا اعلم النقباء المقدم فاعلم بذلك الوزير فطالع الوزير
الخليفة بالحال فقرر يوما للنفقة فحضر الوزير بالاستدعاء من ديوان الأنشاء علي العادة
فيجلس الخليفة علي هيئته في مجلسه ويجلس الوزير في مكانه ويحضر صاحبا ديوان الجيش وهما
المستوفي والكاتب. والمستوفي هو اميرهما فيجلس من داخل عتبة المجلس وهذه رتبة له يعمى بها
ويجلس بجانبه من وراء العتبة كاتب الجيش في قاعة الدار علي حصر مفروشة
وشرط هذا المستوفي ان يكون عدلا ومن اعيان الكتاب. ويسمي اليوم في زمننا ناظر الجيش . واما
كاتب الجيش فانه كان في غالب الأمر يهوديا . وللمجلس الذي فيه الخليفة والوزير انطاع تصب
عليها الدراهم ويحضر الوزانون ببيت المال لذلك. فاذا تهيأ الأنفاق ادخل الغزاة مائة مائة
فيقفون في اخريات من هو واقف في الخدمة من جانب واحد نقابة نقابة . وتكون اسماؤهم قد
رتبت في اوراق لاستدعائهم بين يدي الخليفة . فيستدعي مستوفي الجيش من تلك الأوراق المنفق عليهم
واحدا واحدا . فاذا خرج اسمه عبر من الجانب الذي هو فيه الي الجانب الآخر فاذا
تكملت عشرة وزن الوزانون لهم النفقة وكانت مقررة لكل واحد خمسة دنانير بعوض صرف ستة وثلاثين
درهما بدينار فيسلمها لهم النقيب ويكتب باسمه وبيده وتمضي النفقة هكذا الي آخرها " ١
وكانت العادة زمن الفاطميين انه اذا غنم الأسطول شيئا تكون الغنيمة لرجاله عدي ما يصطفيه
الخليفة لنفسه من السبي من رجال ونساء واطفال وسلاح وما عدي ذلك يكون للغزاة . يقول المقريزي
" والعادة انه اذا غنم الأسطول ما عسي ان يغنم لا يتعرض السلطان منه الي شيئ البتة الا ما
كان من الأسري والسلاح فانه للسلطان وما عداهما من المال والثياب ونحوهما فانه لغزاة الأسطول
لا يشاركهم فيه احد ... وقدم الأسطول مرة بالف وخمسمائة اسير وكانت العادة ان الأسري ينزل بهم
في المناخ وتضاف الرجال الي من فيه من الأسري ويمضي بالنساء والأطفال الي القصر بعد ما
يعطي منهم الوزير طائفة ويفرق ما بقي من النساء علي الجهات والأقارب فيستخدمونهن ويربونهن
حتي يتقن الصنائع ويدفع الصغار من الأسري الي الأستاذين فيربونهم ويعلمون الكتابة والرماية
ويقال لهم الترابي وفيهم من صار اميرا من صبيان خاص الخليفة ومن الأسري من كان يسترابيه

---

١ ـ الخطط ج٢ ص١٩٣ و ج١ ص٤٨٠ و ج١ ص٤٨٣ .

فيقتل ومن كان منهم شيخا لاينتفع به ضربت عنقه والقي في بئر كانت في خرائب مصر تعرف ببئر المناحة . ولم يعرف قط عن الدولة الفاطمية انها فادت اسيرا من الفرنج بمال ولا بأسير مثله وكان المنفق في الأسطول كل سنة خارجا عن العدد والآلات" ١ . اه

اما في زمن المماليك فكان الغزاة يعطون الخمس من الغنائم للسلطان ويأخذون البقية يقول المقريزي " واخرجوا من الغنائم الخمس للسلطان واقتسموا ما بقي منها وكان معهم ماعتان وثمانون اسيرا فسر السلطان بذلك سرورا كثيرا " ٢

اما في زمن الأيوبيين فقد زادت اجور البحرية عما كانت عليه قبل . زادها الملك العادل اخي السلطان صلاح الدين يقول المقريزي " وتقرر ديوان الأسطول الذي ينفق في رجاله نصف وربع دينار بعد ما كان نصف وثمن دينار "٣ ولاشك ان هذه الزيادة التي زادها الملك العادل لم تبلغ الي ما كانت عليه زمن قوة الدولة الفاطمية لأننا رأينا سابقا ان اقل راتب في اجور البحرية كان ديناريين واكثرها عشرين دينارا . ولكن يظهر ان هذه الرواتب كانت ترتفع وتنخفض بحسب قوة الدولة ووفرة ماليتها فاذا كانت الدولة غنية زادت رواتب موظفيها ولكن عند فقرها وانحلالها تخفض اجور الموظفين ومن جملتهم رجال الأسطول فيحدثنا المقريزي ان رجال الاسطول في آخر الدولة الأيوبية كانت حالتهم كما يلي " ولا يعرف لهم الا ... شيئ قليل من الخبز ونحوه وربما اقاموا الأيام بغير شيئ كما يفعل بالأسري من العدو " ٤

هذا هو مصروف الدول العربية علي جند الأسطول وهذا ما كانت تكلفه البحرية علي الخلفاء والسلاطين وهو مصروف كبير ولاسيما اذا اضفنا اليه ما كان يبذل من مال لصنع المراكب وتسليحها ولننتقل الآن للكلام عن تحصين سواحل البلاد العربية .

الفصل الخامس

تحصين السواحل في مختلف الأدوار العربية

نريد من الكلام عن تحصين السواحل ما قام به الخلفاء والسلاطين في الممالك المتعددة التي نشأت حول حوض البحر المتوسط من الأصلاحات والتحصينات في الثغور والمدن الساحلية من بناء الأسوار والقلاع والأبراج وحشد المقاتلين للدفاع امام هجمات الأعداء المختلفين من روم ومجوس وصليبيين وكانت هذه الأعمال الأصلاحية تكلف الدولة اموالا كثيرة وتستنزف قسط كبير من ثروتها ولكنها كانت

---

١ - الخطط ج ٢ ص١٩٣ - ١٩٤ / ٢ - نفس المصدر ج ٢ ص ١٩٥ / ٣ - نفس المصدر ج ٢ ص١٩٤

٤ - نفس المصدر ج ٢ ص١٩٤ .

ضرورية لحماية السواحل وحفظ المملكة . وسأعدد اعمال كل دولة علي حدة متبعا التسلسل التاريخي في ذكر هذه الدول وابدأ اولا بسرد ما قام به الخلفاء الراشدين والأمويين من الأعمال .

تحصين السواحل زمن الراشدين والأمويين

ان تحصين المدن والبلاد المفتوحة هو من اهم الظواهر عند العرب المسلمين منذ خروجهم من موطنهم في المدينة لفتح البلاد واخضاع الممالك . وقد جروا في تحصين المدن الساحلية والمواني البحرية علي هذه القاعدة منذ اوائل عصر الخلفاء الراشدين فكانوا علاوة عن تحصين المدن المهمة يشحنونها بالمقاتلين ويرتبون فيها من ابطال المسلمين ما يساعدهم علي اخضاعها من جديد اذا ما نقض اهلها العهد او تغيروا لأمر من الأمور يقول البلاذري " وحدثني ابو حفص الشامي عن سعيد عن الوضين قال وكان المسلمون كلما فتحوا مدينة ظاهرة او عند ساحل رتبوا فيها قدر من يحتاج لها اليه من المسلمين فان حدث في شيئ منها حدث من قبل العدو سربوا اليها الأمداد " ١

واكبر شخصية تظهر عند المؤرخين في عصر الخلفاء الراشدين واوائل العصر الأموي تقوم بتحصين السواحل الشامية وبناء الحصون والمدن فيها وشحنها بالمقاتلة والأزودة هي شخصية معاوية بن ابي سفيان الذي خدم عاملا علي بلاد الشام زمن الخليفتين عمر وعثمان واسس الخلافة الأموية التي امتدت ما بين سنة (٤١ - ١٣٢)هـ فكان من الطبيعي ان يحمي ملكه من جهة الساحل من غارات البيزنطيين الذين ما كانوا يتأخرون عن غزو بلاده من جهتي الشمال والبحر لذلك سأذكر سلسلة اعماله المجيدة في تحصين المواني البحرية لنتبين عظمة اعماله وحيوية ملكه في الناحية البحرية ايام كان عاملا وخليفة يقول البلاذري " وحدثني ابو حفص الدمشقي عن اشياخه قالوا افتتح ابو عبيدة اللاذقية وجبلة وانطرطوس علي يد عبادة بن الصامت وكان يوكل بها حفظة الي انغلاق البحر . فلما كانت عمالة معاوية السواحل وتحصينه اياها شحنها وحصنها واجري امرها علي ما اجري عليه امر السواحل" ٢ فمعاوية اذن حصن مدينة اللاذقية وجبلة وانطرطوس وشحنها بالمقاتلة كما حصن غيرها من مدن الساحل

واكثر ما يكون تحصين المدن الساحلية علي اثر غارة الروم من جهة البحر الذين كانوا يجتاحون السواحل ويخربون المدن وينهبون اهلها فيقوم الخلفاء او عمال الدولة برد هجماتهم وتعمير ما خرب من المدن واصلاح اسوارها او ترميم حصونها او انشاء حصون جديدة فيها . وهذا ما حدث سنة ١٣ هـ يقول ابن الأثير " ثم ان الروم غلبوا علي بعض هذه السواحل (الشامية) في اخر

---

١ - فتوح البلدان ص١٣٤ / ٢ - نفس المصدر ص١٤٠ .

خلافة عمر واول خلافة عثمان فتقدمهم معاوية ففتحها ثم شحنها ورمها بالمقاتلة واقطاعهم القطائع "١ . ولما كان الخليفة عمر بن الخطاب يخشى البحر والركوب فيه عمد الى تحصين سواحل بلاده ليمنع هجمات العدو عليها فكتب لمعاوية بن ابي سفيان بما يلي " وكتب اليه في مرمة حصونها وترتيب المقاتلة فيها واقامة الحرس على مناظرها واتخاذ المواقيد لها ولم ياذن له في غزو البحر " ٢ . وجرى الخليفة عثمان على نحو ماقام به الفاروق من تحصين السواحل . الا انه سمح لمعاوية بالغزو بالبحر يقول البلاذري " فلما استخلف عثمان بن عفان رضي الله عنه كتب الى معاوية يامره بتحصين السواحل وشحنها واقطاع من ينزله اياها القطائع ففعل . . ثم ان معاوية لم يزل بعثمان حتى اذن له في الغزو بحرا وامره ان يعد في السواحل اذا غزى او اغزا جيوشا سوى من فيها من الرتب وان يقطع الرتب ارضين ويعطيهم ماجلا عنه اهله من المنازل ويبني المساجد ويكبر ماكان ابتني منها قبل خلافته . قال الوضين ثم ان الناس بعد انتقلوا الى السواحل من كل ناحية " ٣ . ومن اعمال معاوية في الشام ايام الخليفة عثمان بناء حصن سفيان قرب أطرابلس يقول البلاذري " فلما استخلف عثمان وولي معاوية الشام وجه معاوية سفيان بن مجيب الأزدي الى أطرابلس ... فبنى في مرج على اميال منها حصنا سمي حصن سفيان ... قالوا وكان معاوية يوجه في كل عام الى أطرابلس جماعة كثيفة من الجند يشحنها بهم ويوليها عاملا فاذا انغلق البحر قفل وبقي العامل في جمعية منهم يسيرة ..." ٤ . وقد حصن معاوية جبلة وانطرطوس ومرقية وبلنياس وشحنهم بالمقاتلين يقول البلاذري " وحدثني ابو حفص الدمشقي قال حدثني سعيد بن عبد العزيز وسعيد بن سليمان الحمصي قالا ... فانشأ معاوية بن ابي سفيان جبلة وكانت حصنا للروم جلوا عنه عند فتح المسلمين حمص وشحنها وحدثني سفيان بن محمد البهراني عن اشياخه قالوا بنى معاوية لجبلة حصنا خارجا من الحصن الرومي القديم ... وحدثني سفيان بن محمد قال حدثني ابي واشياخنا قالوا فتح عبادة والمسلمون معه انطرطوس وكان حصنا ثم جلا عنه اهله فبنى معاوية انطرطوس ومصرها واقطع بها القطائع وكذلك فعل بمرقية وبلنياس " ٥ واصلح معاوية مدينتي عكا وصور قبل ذهابه لغزو قبرس يقول البلاذري " وحدثني محمد بن سعيد عن الواقدي واخبرني هشام بن الليث الصوري عن مشايخ من اهل الشام قالوا رم معاوية عكا عند ركوبه منها الى قبرس ورم صور " ٦

هذه هي اهم اعمال معاوية الأصلاحية في ساحل الشام وهي تدل على حيوية الدولة ونشاطها في ايامه . ثم خمدت هذه الجذوة المتأججة بعد وفاته ولم يصلها الا الخليفة عبد الملك (٦٥ - ٨٦) الذي انقذ الدولة الأموية من الأضمحلال باعماله المجيدة التي نال الأعمال البحرية منها بعض الشيء

---

١ - الكامل ج٢ ص ١٨١ وفتوح البلدان ص١٣٣ / ٢ - فتوح البلدان ص١٣٤ / ٣ - نفس المصدر ص١٣٤ - ١٣٥

٤ - فتوح البلدان ص١٣٣ و الكامل ج٢ ص١٨١ / ٥ - فتوح البلدان ص١٤٠ والكامل ج٢ ص٢٤٢

٦ - فتوح البلدان ص١٣٣

منها ترميم حصن طرابلس ١ وتجديد مدينتي عكا وصور بعد ان كانتا قد خربتا ٢

ثم جرى بعض الخلفاء الأمويين علي سنة من تقدمهم وقاموا ببعض الأصلاحات في السواحل من هذه الأعمال اذكر بناء وتحصين مدينة اللاذقية زمن الخليفة عمر بن عبد العزيز (٩٩ ـ ١٠١) هـ عقب اغارة الروم عليها يقول البلاذري " وكانت الروم اغارت في البحر علي ساحل اللاذقية فهدموا مدينتها وسبوا اهلها وذلك في خلافة عمربن عبد العزيز سنة ١٠٠ فامر عمر ببنائها وتحصينها ووجه الي الطاغية في فداء من اسر من المسلمين فلم يتم ذلك حتي توفي عمر في سنة ١٠١ فاتم المدينة وشحنها يزيد بن عبد الملك . وحدثني رجل من اهل اللاذقية قال لم يستتم عمر بن عبد العزيز حتي حوز مدينة اللاذقية وفرغ منها والذي احدث يزيد بن عبد الملك فيها مرمة وزيادة في الشحنة " ٣.

هذه هي اهم اعمال الأمويين الأصلاحية في ساحل بلاد الشام . واختم الكلام عنهم بعبارة البلاذري التالية قال " وحدثني محمد بن سهم الأنطاكي قال حدثني معاوية بن عمر عن ابي اسحاق الفزاري قال كانت بنو امية تغزو الروم باهل الشام والجزيرة صائفة وشاتية مما يلي ثغور الشام والجزيرة وتقيم المراكب للغزو وترتب الحفظة في السواحل ويكون الأغفال والتفريط خلال الحزم والتيقظ " ٤ اذن كانت الخلافة الأموية تعتني بحفظ سواحلها وشحنها بالرجال والمراكب عندما يكون عليها خليفة قويا ساهرا علي مصالح الدولة وحماية ثغورها من هجمات الأعداء وغائلة المغيرين اما زمن حكم الخلفاء الضعفاء فان كان تحصين المدن الساحلية يهمل وكثيرا مايخرب بعض التحصينات التي قام بها الخلفاء السابقون واستمرت الحالة علي ذلك حتي جاء بنو العباس .

تحصين السواحل زمن العباسيين

وقد قام الخلفاء العباسيون باعمال جليلة وهمة عظيمة في تحصين سواحل الشام ومصر وشحنها بالرجال والمراكب والنفقة عليها بما لا يقل عما عمل سابقيهم من الأمويين يقول البلاذري " فلما ولي ابو جعفر المنصور تتبع حصون السواحل ومدنها فعمرها وحصنها وبني ما احتاج الي البناء منها وفعل مثل ذلك بمدن الثغور ثم لما استخلف المهدي استتم ما كان بقي من المدن والحصون وزاد في شحنتها . قال معاوية بن عمرو وقد راينا من اجتهاد امير المؤمنين هارون في الغزو ونفاذ بصيرته في الجهاد امرا عظيما اقام من الصناعة ما لم يقم قبله وقسم الأموال في الثغور والسواحل واشجي الروم وقمعهم " ٥ وقد حصن المعتصم ميناء دمياط وسوره بسور وصنع له بابان من حديد فلما جاء الروم لحصار المدينة خربوا هذه التحصينات واخذوا منها ما استطاعوا حمله يقول الطبري

---

١ ـ فتوح البلدان ص١٣٢ / ٢ ـ نفس المصدر ص١٣٣ / ٣ ـ نفس المصدر ص١٣٩ / ٤ ـ نفس المصدر ص١٧٠ والنظم الأسلامية ص٢٤٨ / ٥ ـ فتوح البلدان ص١٧٠ .

" ... وله سور وبابان حديد كان المعتصم امر بعمله فخربوا عامبه واحرقوا ما فيه من المجانيق والعرادات واخذوا بابيه الحديد فحملوهما ثم توجهوا الي بلادهم " ١ وامر المعتصم ببناء حصن بساحل انطاكية يقول البلاذري " وبني محمد بن يوسف المروزي المعروف بابي سعيد حصنا بساحل انطاكية بعد غارة الروم علي ساحلها في خلافة المعتصم بالله " ٢

وقد قام المتوكل (٢٣٢ - ٢٤٧) هـ بسلسلة من الأعمال بز بها اقرانه من الخلفاء وبرهن بها علي نشاطه وحيوية الدولة في زمنه يقول البلاذري " وامر المتوكل علي الله بترتيب المراكب في جميع السواحل وان تشحن بالمقاتلة وذلك في سنة ٢٤٧ " ٣ ولم تكن اعمال الخليفة المتوكل في الساحل الشامي فحسب بل كان له اعمال مجيدة ايضا بساحل مصر فقد امر ببناء حصن دمياط يقول المقريزي " فامر المتوكل ببناء حصن دمياط فابتدئ في بنائه يوم الأثنين لثلاث خلون من شهر رمضان سنة تسع وثلاثين (٢٣٩) هـ " ٤ وذلك علي اثر هجوم الروم علي المدينة في سنة ٢٣٨ وكذلك امر ببناء حصن في مدينة الفرماء واخر في مدينة تنيس يقول المقريزي " وبني بها (الفرماء) المتوكل علي الله حصنا علي البحر تولي بناءه عنبسة بن اسحاق وامير مصر في سنة تسع وثلاثين ومائتين عند ما بني حصن دمياط وحصن تنيس وانفق فيها مالا عظيما " ٥ .

هذه هي اهم اعمال الخلفاء العباسيين فيما يتعلق بتحصين السواحل ومعظم هذه الأعمال جرت في العصر العباسي الأول زمن قوة الخلافة العباسية ثم اخذت الخلافة العباسية تنقسم الي دول وممالك مستقلة اخذت كل دولة تعمل مستقلة لنفسها في تحصين سواحلها .

ولنري ما قام به الطولونيون في تحصين ساحل مصر .

تحصين السواحل زمن الطولونيين

ان حيوية الدولة الطولونية في تحصين ساحل مصر تتجلي لنا من قصة بناء احمد بن طولون مؤسس الدولة الطولونية (٢٥٤ - ٢٧٠) هـ لحصن الجزيرة . فقد راينا سابقا ان تحصين السواحل اكثر ما يكون علي اثر هجمات الروم البيزنطيين علي المدن الساحلية والعبث بها اما بناء حصن الجزيرة فكان سببه توتر العلاقات مابين ابن طولون والموفق اخو الخليفة العباسي المعتمد علي الله (٢٥٦ - ٢٧٩) هـ فقد ارسل الخليفة واليا علي مصر موسي بن بغا العراقي بدلا عن ابن طولون فاستعد الأخير للعصيان وبني حصن الجزيرة في جزيرة في الروضة سنة ٢٦٣ هـ ليحرز فيه حرمه وماله ٦ ويذكر المقريزي سببا آخر لبناء الحصن في قوله التالي " وكان مما حمل احمد بن طولون علي بناء الحصن ان

---

١ - الصبح الجملة الثالثة ج ١١ ص ٢٣٨ / ٢ - فتوح البلدان ص ١٧٤ / ٣ - نفس المصدر ص ١٧٠
٤ - الخطط ج ١ ص ٢١٤ / ٥ - نفس المصدر ج ١ ص ٢١١ / ٦ - نفس المصدر ج ٢ ص ١٧٨ .

الموفق اراد ان يعقل قلبه فسرقت نعله من بيت خلية لا يخله الا ثقاته وتحتها الموفق اليه فقال له الوصول من قدر علي اخذ هذه النعل من الموضع الذي تعرفه اليس هو بقادر علي اخذ روحك • فقال له ايها الأمير لقد قام عليه اخذ هذه النعل بخمسين الف دينار فعند ذلك امر ببناء الحصن " ١ فقد تنبه ابن طولون بالخطر الذي يداهمه بعد ما بين الموفق له مقدرته وكفايته في القبض عليه وقام يجد في بناء حصن يمنع فيه اهله ونفسه • ويصف المقريزي ذاك النشاط الذي بذله ابن طولون والهمة التي اظهرها والمال الذي قدمه لعماله ورجاله بقوله التالي •

" هذا وابن طولون يجد في بناء الحصن علي الجزيرة وقد الزم قواده وثقاته امر الحصن وفرقه عليهم فلما قام كل واحد بما لزمه من ذلك وكد نفسه فيه • وكان يحاسبهم بنفسه في كل يوم ••• ومن كثرة ما بذل في هذا العمل فدلار ان كل طوبة منه وقفت عليه بدرهم صحيح ••• وما رأي الناس شيئا كان اعظم من عظيم الجد في بناء هذا الحصن ومباكرة الصناع له في الأسحار حتي فرغوا منه فانهم كانوا يخرجون اليه من منازلهم في كل بكرة من تلقاء انفسهم من غير استحثات لكثرة ما سخا به من بذل المال ••• ووهب للصناع مالا جزيلا وترك لهم جميع ما كان سلفه معهم وبلغ مصروف هذا الحصن ثمانين الف دينار ذهبا " ٢ وقد خرب هذا الحصن فيما بعد يقول القلقشندي في كيفية خرابه مايلي " وكان بها (جزيرة الروضة) حصن قد عليه سور وابراج ••• ثم استهدم بعد بعد ذلك بعاثير النيل في ابراجه ومرور الزمان عليه • ثم بني الصالح نجم الدين ايوب قلعة مكانه في سنة ثمان وثلاثين وستمائة وبقيت حتي هدمها المعز ايبك التركماني اول ملوك الترك وعمر من نقضها مدرسة المعزية برحبة الخروب واتخذ الناس مكانها املاكا وهي علي ذلك الي زماننا ولم يبق بها الا بعض ابراج اتخذها الناس املاكا وعمروا عليها بيوتا • فلما ملك الظاهر بيبرس هم باعادتها فلم يتفق له ذلك وبقيت علي حالها " ٣

هذه هي قصة حصن الجزيرة وهي تمثل لنا اهم ما قام به الطولونيون في تحصين انفسهم من الناحية البحرية • ليحموا ملكهم لا من غارة عدو خارجي بل من العباسيين اسيادهم الذين كانوا ولوهم حكم مصر فانفصلوا عنهم واستقلوا لوحدهم وحكموا مستقلين لأنفسهم ومن الدول التي كان لها اثر في تحصين سواحل البلاد • الخلافة الفاطمية •

---

١ ـ الخطط ج٢ ص١٨٠ / ٢ ـ نفس المصدر ج٢ ص ١٨٠ / ٣ ـ صبح الأعشي ج٣ ص٣٢٩ •

تحصين السواحل زمن الفاطميين

لم يحتج الفاطميون الي تحصين سواحل البلاد التي حكموها لأن اسطولهم كان قويا يذب غارة الأعداء عنهم فكانوا هم علي الأغلب مهاجمين فاتحين لبلاد اعدائهم . واشتغلوا في بناء الأساطيل عوضا عن تحصين السواحل . الا انه عند مطالع حكمهم في افريقية قبل اعتداد باسهم وقوة شوكتهم واستيلائهم علي مصر اسس المهدي (٢٩٦ - ٣٢٢) هـ باني مجد الفاطميين الأول مدينة علي ساحل البحر دعاها باسمه المهدية . وحصنها بسور وابواب من حديد قال ابو الفداء عند ذكرها " اختار المهدي موضع المهدية علي ساحل البحر وهو جزيرة متصلة بالبر كهيئة كف متصلة بزند فبناها وجعلها دار ملكه وجعل لها سورا محكما وابوابا عظيمة وزن كل مصراع مائة قنطار وكان ابتداء بنائها يوم السبت في هذه السنة (٣٠٣) لخمس خلون من ذي القعدة . ولما تم بناؤها قال المهدي الآن امنت علي الفاطمية بحصانتها " ١

وبالرغم من قوة الفاطميين البحرية وعظمة اسطولهم فانهم لم يهملوا شأن السواحل وحراستها فقد كان الخلفاء الفاطميين عندما يرسلون العمال الي الثغور يزودونهم بالنصائح التالية " واهم للسور نظرا من اهتمامك تعمر ابراجه وابدانه وتستخدم حراسه واعوانه وترتب عليه الوفود في الليالي المظلمة وتعجز عن مناله المطامع الميسورة والأيدي المتسنمة وواصل من عمائره ما يتلافي الخلل قبل انفراجه ويفيد مبدأ الفاره علي ادراجه فالقليل بالغفلة يستدعي كثرة الأهتمام وربما لم تصب فيه المرمي ولم ينجع المرام " ٢ وظل الفاطميون يحافظون علي حماية سواحلهم وعنايتهم بالأسطول الي اواخر عهدهم عند ما ضعفت الدولة وانتابتها الفوضي والمنازعات ولما كانت وزارة شاور ونزل الفرنج ساحل مصر " امر شاور بتحريق مصر وتحريق مراكب الأسطول فحرقت ونهبها العبيد فيما نهبوا " ٣ ولم تستعد الأعمال البحرية نشاطها الا عند قيام السلطان صلاح الدين الأيوبي

تحصين السواحل زمن الأيوبيين

اضطر الأيوبيون لتحصين سواحل بلادهم نظرا لشدة وطأة الصليبيين في الأغارة عليها فجهزوا السواحل بجميع وسائل الدفاع التي يتمكنوا بها من حماية هذه السواحل . فقد كان في عكا برج يدعي برج الذباب يقول ابن شداد عنه " برج الذباب وهو برج في وسط البحر مبني علي الصخر علي باب مينائها يحرس به المينا ومتي عبره المراكب امن غائلة العدو " ٤ وكان في دمياط برج

---

١ - المختصر ج٢ ص ٦٨ / ٢ - صبح الأعشي ج ١٠ ص٤٤٥ / ٣ - الخطط ج٢ ص١٩٤ / ٤ - سيرة صلاح الدين ص١٠٠ .

يصفه المقريزي بقوله " برج دمياط فانه كان برجا منيعا فيه سلاسل من حديد غلاظ تمتد على النيل لتمنع المراكب الواصلة في البحر الملح من الدخول الى ديار مصر في النيل "١ وقد اعتنى السلطان صلاح الدين زمن وزارته على مصر ببرج دمياط بعد ان اغار الصليبيين على المدينة سنة ٥٦٥ يقول المقريزي " وفي سنة سبع وسبعين وخمسمائة رتبت المقاتلة على البرجين وبعدت مراكب الى السلسله ليقاتل عليها ويدافع عن الدخول من بين البرجين ورم شعث سور المدينة وسدت ثلمه واتقنت السلسله التي بين البرجين فبلغت النفقة على ذلك الف الف دينار ... وفي سنة ثمان وثمانين وخمسمائة امر السلطان بقطع اشجار // بساتين دمياط وحفر خندقها وعمل جسر عند سلسلة البرج " ٢ وفي سنة ٦١٥ حاصر الصليبيون دمياط والحوا على برجها حتى استولوا عليها فبنى الكامل جسرا ليمنع مراكب الصليبيين من عبور النيل والدخول لأرض مصر يقول المقريزي " واشتد الفرنج والحوا في القتال حتى استولوا على برج السلسلة وقطعوا السلاسل المتصله به لتجوز مراكبهم في بحر النيل ويتمكنوا من البلاد فنصب الملك الكامل بدل السلاسل جسرا عظيما لمنع الفرنج من عبور النيل فقاتلت الفرنج عليه قتالا عديدا الى ان قطعوه وكان قد انفق على البرج والجسر ماينيف على سبعين الف دينار " ٣ عندها لجأ الملك الكامل الى آخر وسيلة لعرقلة سير مراكب الفرنج في النيل فعمد الى مراكب كبار وملأها وخرقها وغرقها في النيل فمنعت مراكب العدو من السلوك فيه ٤ وتمكن بهذه الوسيلة من ايقاف الصليبيين من التقدم ولو الى حين .

هكذا كان يفكر سلاطين الأيوبيين في منع العدو عن التقدم في بلادنا ويبذلون في سبيل عرقلة مساعيه كل غالي ورخيص وينفقون من الأموال الكثيرة في تحصين عواصمهم وبناء الحصون عليها .

وكان الأيوبيون يضعون جندا في السواحل لخفرها وحمايتها من ان تطرقها مراكب الفرنج كما فعل الملك المظفر بن اخي صلاح الدين في تعيين جند في ساحل بيروت : واوقف لهم المال للنفقة عليهم قال صالح بن يحي " وكان الملك المظفر تقي الدين عمر بن شاهنشاه بن ايوب صاحب حماه قد اوقف وقفا على جماعة خيالة ورجالة لرسم الجهاد في سبيل الله تعالى واشرف عليهم بان يكون في الدرب المعيل الى دمشق . فلما ~~استوطنوا~~ استوطنوا المسلمون في بيروت بعد الفتوح الأخير استقر اقامة المجاهدين المذكورين بها لقربها من دمشق ..." ٥ . وقد اكمل المماليك عمل الأيوبيين في تحصين السواحل والدفاع ~~عنها~~ عن البلاد امام غارة الأعداء الآتين من البحر .

١ـ الخطط ج١ ص ٢١٥ والكامل ج١٢ ص ١٢٢ / ٢ـ الخطط ج١ ص٢١٥ / ٣ـ نفس المصدر ج١ ص٢١٦

٤ـ الكامل ج١٢ ص١٢٢ / ٥ـ تاريخ بيروت ص ٤٢ .

تحصين السواحل زمن المماليك

ولا تختلف اعمال سلاطين المماليك في وسائل الدفاع عن السواحل عما تقدمهم من الخلفاء والملوك فقد حزو حذو من تقدمهم في عمارة الأبراج والأصلاح الأسوار واعداد الرجال والذخيرة في السواحل لدفع غارة الأعداء المفاجئين ومن ذلك ماقام به السلطان برقوق في بيروت يقول صالح بن يحي " وفي ايام السلطان الملك الظاهر برقوق عمر البرج الكبير لبيروت على قاعدة برج من ابراج القلعه الخراب فقرروا به المجاهدين المذكورين " ١ . وقد قام نواب المماليك في الشام بعدة تحصينات في ميناء بيروت من ذلك ماقام به الأمير بيدمر يقول صالح بن يحي " ولما جدد الأمير بيدمر نائب الشام سور بيروت على جانب البحر جعل اوله من عند العارة التي لنا على البرج واصلا الى تحت البرج الصغير العتيق ... ويعرف ببرج البعلبكيه " ٢ . وقد ارسل يلبغا العمري الأمير بيدمر لبيروت لعمارة المراكب من حرشها فحضرت عساكر الشام ببيروت لتحمي المراكب المنشأة حديثا من هجوم مراكب القبرسيين عليها واحراقها يقول صالح بن يحي " وحضر عسكر الشام مجرد فانزلوه فيما بين البحر والمراكب حرزا من مراكب صاحب قبرص لئلا يحضروا حين غفلة ويحرقوا مايعمل من المراكب " ٣ . هكذا كان سلاطين المماليك يعملون جهدهم في حماية شواطئ المملكة التي يحكمون

تحصين سواحل افريقية والأندلس

وقد كان حكام المغرب في افريقية والأندلس يقومون باعمال لا تقل اهمية عن الحكام بالمشرق في تحصين سواحلهم لاسيما المدن والموانئ الواقعه على الشاطئ ولذلك قل ان نجد في كتب الرحلات التي تصف تلك المدن الساحلية ذكر لهذه المدن دون ان نجد وصفا لمكانة اسوارها وحصانة ابراجها وحسن موقعها الذي يساعدها في الدفاع امام هجمات الأعداء المفاجئين . ولا يمكنني تعداد جميع هذه المدن الساحلية المحصنة بل آتي على ذكر بعضها من قبيل التمثيل فقط .

من المدن المحصنه في افريقية مدينة

ازيلي

يقول ابن حوقل في وصفها " ازيلي مدينة عليها سور متعلقة علي راس جرف خارج من البحر المحيط الي ارض المغرب ... وسورها من حجارة وبعضها علي البحر المحيط " ٤

مرسي الدجاج

يقول ابن حوقل في وصفها مايلي " وهي مدينة عليها سور منيع علي نحر البحر وفي غديره

١ - تاريخ بيروت ص٤٢ / ٢ - نفس المصدر ص٤١ / ٣ - نفس المصدر ص٣٩ / ٤ صورة الأرض ج١ ص٧٩ .

وليس لها مرسي مأمون " ١ و

تنس

يصفها الابن حوقل بقوله " تنس مدينة عليها سور ولها ابواب عدة وبعضها علي جبل قد احاط به السور " ٢ واخيرا اذكر

واسلن

يقول ابن حوقل عنها " وهي مدينة خصبة لها سور عظيم حصين " ٣

اما في الأندلس فقد ذكرت سابقا حصانة بعض مراكز دور الصناعة المبنية علي البحر والآن اذكر بعض المدن الساحلية المحصنة لنري حيوية الخلافة الأموية في الأندلس وعملها في تحصين ثغورها التي علي شاطئ البحر .

طرطوشة وهي في سفح جبل ولها سور حصين ... وقصبة طرطوشة علي صخرة عظيمة سهلة الأعلي ... والمدينة في غربي القصبة وجوفيها وعلي المدينة سور صخر من بناء بني امية علي رسم اولي قديم ولها اربعة ابواب وابوابها كلها ملبسة بالحديد ٤

مالقة مدينة علي شاطئ البحر عليها سور صخر والبحر في قبلتها ... وقصبتها في شرقي مدينتها عليها سور صخر وهي في غاية الحصانة والمنعة ٥ .

المرية يقول ابن عبد المنعم في وصفها " المرية مدينة محدثة امر ببنائها امير المؤمنين الناصر لدين الله عبد الرحمن بن محمد سنة ٣٤٤ ... وكان المجوس لما قدموا المرية وتطوفوا بساحل الأندلس والعدوة فاتخذها العرب مرأي وابتنت بها محارس وكان الناس ينتجعونها ويرابطون فيها وهي اليوم اشهر مراسي الأندلس ... وعليها سور حصين منيع بناه امير المؤمنين عبد الرحمن وعلي ربضها المعروف بالمصلي سور تراب بناه خيران العامري " ٦ ويقول القلقشندي في ذكرها " المرية وهي مدينة مسورة علي حافة بحر الزقاق ... وقلعتها منيعة شامخة قال في مسالك الأبصار والمرية لها ثلاث مدن الأولي - من جهة الغرب تعرف بالحوض الداخلي لها سور محفوظ من العدو بالسمار والحراس ولا عمارة فيها " ٧

هذه هي اهم التحصينات التي قام بها حكام الدول العربية في مختلف ادوارها واماكنها وقد اضطروا اليها اضطرارا ليصدوا هجمات الأعداء عن سواحل بلادهم ويحموا مسالكهم وثغورهم من خطر الأجتياح او الخراب . وهذه التحصينات دليل واضح علي عناية الخلفاء والسلاطين بشأن الأمور

---

١ - صورة الأرض ج ١ ص ٧٩ / ٢ - نفس المصدر ج ١ ص ٧٧ / ٣ - نفس المصدر ج ١ ص ٧٨ / ٤ - الروض ص ١٢٤ / ٥ - نفس المصدر ص ١٧٧ / ٦ - نفس المصدر ص ١٨٣ / ٧ - صبح الأعشي ج ٥ ص ٢١٧ .

البحرية واهتمامهم بحفظ السواحل وتحصينها . ولم تحصل هذه التحصينات الا في زمن قوة الدولة و حيويتها على ايدي الأقوياء من الخلفاء والسلاطين . اما في ايام ضعف الدولة فكان معظم تلك الأعمال الأصلاحية يتوقف حتى انه يخرب ما قام به الخلفاء العاملين . وكانت هذه التحصينات وكلف الخلفاء والسلاطين الأموال الكثيرة يصرفونها على البناء وما يدفعونه للجند الذين يكلفون بحفظ تلك الأمكنة الحصينة والزود عنها والأعمال السابقة التي عددتها كلها امثلة ونماذج لما كان يصرف في هذا السبيل .

ولننتقل لوصف ما كان يجري عند وداع الأسطول وعودته من الغزو .

الفصل السادس

وداع الأسطول عند ذهابه للغزو وعودته منه

ان ازهى ما يمثل عظمة الأسطول ووفرة * نفقاته في الأعصر العربية هي الأحتفالات التي كانت تجري يوم ذهاب الأسطول للغزو وايابه منه وما كان الخلفاء يصرفونه على الجند ** ويوزعونه على العسكر ويمنحونه للقواد . في مثل تلك المناسبات كانت الدولة بكاملها من الخليفة او السلطان الى اقل الناس واحقرهم شأنا يحتفلون في تقدير رجال الأسطول الغزاة الفاتحين والأبطال المغامرين ويشتركون في وداعهم واستقبالهم . وكان يحصل من المراسيم والاحتفال ما يحسن وصفه بلسان اهل عصره الذين شاهدوا بام عينهم تلك الأحتفالات ووصفوها اجمل وصف وبينوها اجلى تبيان . ولقد كان المقريزي من المجلين في حلبة اولئك الذين تصدوا لذكر تلك المناورات البحرية ولكن المؤسف ان معظم الروايات التي يذكرها تتعلق بالخلافة الفاطمية وفي سلطنة المماليك . ولاشك ان بقية الممالك لاسيما الأندلس والمغرب كان يجري فيها من الأحتفالات والمناورات للأساطيل [1] بما لا يقل عما كان يحدث في زمن الفاطميين والمماليك ولكن النصوص التي بين يدي قليلة في هذا الشان لذلك اكتفي بذكر ما كان يحدث في زمن الفاطميين والمماليك ليكون لدينا صورة يمكن ان نتمثل من * خلالها ما كان يجري في بقية الممالك في مختصر

وقد ابقى لنا ابو الفداء وصف احتفال جرى في بغداد لوصول ملك الروم سنة ٣٠٥ هـ كان للمراكب فيه اجمل الأثر في نزولها في دجلة واشتراكها بهذا العيد الكبير وهي في اجمل زينتها

---

١ - يقول الهوفوفي عن الأندلسيين " ومن سننهم التي مضوا عليها وجرت عادتهم بها ان يحتفلوا بالأسطول عند رجوعه ظافرا من حرب فتقوم الأساطيل بالعاب وحركات بمرأى من عظماء الدولة وجمع كانهم في حرب مع الأعداء " حضارة العرب ص ١٦٠ وهو لا يذكر المصدر الذي اخذ عنه .

وكسوتها يقول عند ذكر هذا الخبر " قدم رسول ملك الروم الى بغداد فلما استحضروا عبي لهم العسكر وصفت الدار بالأسلحة وانواع الزينة وكانت جملة العسكر المصفوف حينئذ مائة الف وستين الفا مابين راكب وواقف . ووقف الغلمان الحجريه بالزينة والمناطق المحلاة ووقف الخدام الخصيان كذلك وكانوا سبعة آلاف خادم ابيض وثلاثة آلاف اسود ووقف الحجاب كذلك وهم حينئذ سبعمائة حاجب . والقيت المراكب والزبازب في دجلة باعظم زينة "١ . ثم يكمل الرواية التي هي شبه بالخيال منها الى الحقيقه تدل عما وصل اليه الترف في العصر العباسي ....

اما احتفال الفاطميين يوم وداع الأسطول فيقول القلقشندي عنه " فاذا اراد الخليفه تجهيزها (الأساطيل) للغزو جلس للنفقة بنفسه حتى يكملها ثم يخرج مع الوزير الى ساحل الدجله بالمقس فيجلس في منظرة كانت بجامع باب البحر والوزير معه للموادعه ويأتي القواد بالمراكب الى تحت المنظرة وهي مزينة بالأسلحة والمنجنيقات واللعب منصوبة في بعضها فتسير بالمجاذيف ذهابا وعددا كما يفعل حالة القتال . ثم يحضر الى مابين يدي الخليفة المقدم والرايس فيوصيهما ويدعو لهم بالسلام وتنحدر المراكب الى دمياط وتخرج الى البحر الملح فيكون لها في بلاد العدو الصيت والسمعه "٢ . اما المقريزي فيقول ان توديع الأسطول يجري من منظرة المقس وتوديعه للعساكر البرية التي تذهب لبلاد الشام يكون من منظرة باب الفتوح يقول عن منظرة باب الفتوح مايلي :

" وكان للخلفاء الفاطميين منظرة خارج باب الفتوح ... وكانت هذه المنظرة معدة لجلوس الخليفة فيها عند عرض العساكر ووداعها اذا سارت في البر الى البلاد الشامية "٣ .

اما منظرة المقس التي يجري منها وداع الأسطول فيقول المقريزي عنها " منظرة المقس .... وكانت هذه المنظره معدة لنزول الخليفة بها عند تجهيز الأسطول الى غزو الفرنج فتحضر رؤساء المراكب بالشواني وهي مزينة بانواع العدد والسلاح يلعبون بها في النيل ... وقال ابن الطوير فاذا كملت النفقه وتجهزت المراكب وتهيأت للسفر ركب الخليفة والوزير الى ساحل المقس وكان هناك على شاطئ البحر بالجامع منظرة يجلس فيها الخليفة برسم وداعه يعني الأسطول ولقائه اذا عاد فاذا جلس هو والوزير للوداع جاءت القواد من مصر الى هناك للحركات في البحر بين يديه وهي مزينة باسلحتها ولبوسها وفيها المنجنيقات تلعب فتنحدر وتقلع بالمجاذيف كما يفعل في لقاء العدو بالبحر الملح ويحضر بين يدي الخليفة المقدم والرئيس فيوصيهما ويدعو للجماعة بالنصرة والسلامه ويعطي المقدم مائة دينار والرئيس عشرين دينارا وتنحدر الى دمياط وتخرج الى البحر الملح فيكون لها ببلاد العدو

---

١ ـ المختصر ج٢ ص٦٩ / ٢ ـ صبح الأعشى ج٣ ص٥٢٢ / ٣ ـ الخطط ج١ ص٤٨١ .

صيت وهيبة ... " ١ . وكان الخلفاء الفاطميين ينفقون على قواد ورؤساء الأسطول وجنده قبل ارسالهم للغزو . ففي زمن الخليفة الفاطمي الآمر باحكام الله (٤٩٥ - ٥٢٤) هـ وردت الأخبار بقلة المليهين بالأعمال الفلسطينيه والثغور الساحلية فاراد الخليفة الآمر تجهيز العساكر والأساطيل وتجريدها للقضاء على البقية الباقية من الفرنج فيقول المقريزي في ذكر النفقه على هذا الجيش والأسطول الذي ارسله الآمر ما يلي " وابتدئ بالنفقه في الفرسان بين يدي الخليفة في قاعة الذهب واحضر للموضوع الوزانون وصناديق المال وافرغت الأكياس على البساط واستمر الحال بعد ذلك في الدار المامونية (وزير الآمر هو المامون) وتردد الراي فيمن يتقدم فدفع الأتفاق على حسام الملك الباني . واحضر مقدم الأساطيل الثانية لأن الأساطيل الأولى توجهت في الغزو وخلع عليه وامر بان ننزل الى الصناعتين بمصر والجزيرة وينفق في اربعين شينيا ويكمل نفقاتها وعددها ويكون التوجه بها صحبة العساكر وانفق في عشرين من الأمراء للتوجه صحبة فكملت النفقه في الفارس والراجل وفي الأمراء الساترين وفي الأطباء والمؤذنين والقراء وندب من الحجاب عدة وجعل لكل منهم خدمة ... " ٢ .

ثم ان الخليفة الآمر خلع على مقدم الأسطول وابحرت المراكب للجهاد يقول المقريزي " وركب الخليفة (الآمر) وتوجه الى الجامع بالمقس وجلس بالمنظرة واستدعى مقدم الأسطول وخلع عليه وانحدرت الأساطيل مشحونة بالرجال والعدد " ٣ . ويقول المقريزي ان الخليفة الآمر ظهر من المنظرة لوداع العسكر فلما راوه خروا الى الأرض ساجدين قال " فتحت طاقات المنظرة فلما شاهد العسكر الخليفة قبلوا الأرض فاشار اليهم بالتوجه فساروا جميعهم " ٤ . وقد جرت العادة ان الخليفة الفاطميين بعد ان يتم النفقه على رجال الأساطيل يمنح وزيره مائدة تدعى " غذاء الوزير " يكمل بها ذلك الأحتفال ويصف المقريزي تلك المائدة بقوله " فيحمل الي الوزير من القصر مائدة يقال لها غذاء الوزير وهي سبع مجنقات اوساط احداها بلحم الدجاج وفستق معمولة بصناعة محكمة والبقية شواء وهي مكسورة بالأزهار ..." ٥

هكذا كانت تجري الاحتفالات عند وداع الأسطول وهي احتفالات رائعة تذكرنا بما تقوم به الدول الحديثة من المآدب على شرف رجال بحريتها وما يقومون به من تكريم رجالهم عند ذهابهم للقيام بمهمة جليلة .

اما في زمن المماليك فلم تكن احتفال السلاطين تختلف كثيرا عن احتفال الخلفاء يوم الفاطميين وداع الأسطول . وسأذكر احتفالا جرى في سلطنة الملك الأشرف صلاح الدين خليل بن قلاون (٦٨٩ - ٦٩٣هـ

---

١ - الخطط ج١ ص٤٨٠ و ج٢ ص١٩٢ والعدن ج١ ص١٩٦ / ٢ - الخطط ج١ ص٢٨١ / ٣ - نفس المصدر ج١ ص٢٨٢ / ٤ - نفس المصدر ج١ ص٢٨٣ / ٥ - نفس المصدر ج٢ ص١٩٣ .

لتري ما كانت تقوم به العامة من الأعمال والأستعدادات للأشتراك بهذا الأحتفال ومشاهدته يقول المقريزي " وفي سنة اثنتين وتسعين وستمائة تقدم السلطان الملك الأشرف صلاح الدين خليل بن قلاون الي الوزير الصاحب شمس الدين محمد بن السلعوس بتجهيز امر الشواني فنزل الي الصناعة واستدعي الرئيس وهيأ جميع ما تحتاج اليه الشواني حتي كملت عدتها نحو ستين شونة عدتها بالعدد والآت الحرب ورتب بها عدة من المماليك السلطانية والبسهم السلاح فأقبل الناس لمشاهدتهم من كل اوب قبل ركوب السلطان بثلاثة ايام وصنعوا لهم قصورا من خشب واخصاص القش علي شاطيء النيل خارج مدينة مصر و بالروضة واكتروا الساحات التي قدام الدور والزرابي بالعشرة دراهم كل زريبة فما دونها بحيث لم يبق بيت بالقاهرة ومصر الا وخرج اهله او بعضهم لاجل رؤية ذلك فصار جمعا عظيما وركب السلطان من قلعة الجبل بكرة والناس قد ملأوا مابين المقياس الي بستان الخشاب الي بولاق ووقف السلطان ونائبه الأمير بيدر وبقية الأمراء قدام دار النحاس ومنع الحجاب من التعرض لطرد العامة . فبرزت الشواني واحدة بعد واحدة وقد عمل في كل شونة برج وقلعة تحاصر والقتال عليها ملح والنفط يرمي عليها وعدة من النقابين في اعمال الحيلة في النقب وما منهم الا من اظهر في شونته عملا معجبا وصناعة غريبة يفوق بها علي صاحبه وتقدم ابن موسي الزاعي وهو في مركب نيلية فقرأ قوله تعالي (بسم الله مجراها ومرساها ان ربي لغفور رحيم) ثم تلاها بقراءة قوله تعالي (قل اللهم مالك الملك تؤتي الملك من تشاء) الي آخر الآية هذا والشواني تتواصل بمحاربة بعضها لبعضا الي ان اذن لصلاة الظهر فمضي السلطان بعسكره عائدا الي القلعة . فأقام الناس بقية يومهم وتلك الليلة علي ماهم عليه من اللهو في اجتماعهم وكان شيئا يجل وصفه . وانفق فيه مال لايعد بحيث بلغت اجرة المركب في هذا اليوم ستمائة درهم فما دونها فكان الرجل الواحد يؤخذ منه اجرة ركوبه في المركب خمسة دراهم وحصل لعدة من النواتية اجرة مراكبهم عن سنة في هذا اليوم . وكان الخبز يباع اثنا عشر رطلا بدرهم فلكثرة اجتماع الناس بمصر بيع سبعة ارطال بدرهم . فبلغ خبر الشواني الي بلاد الفرنج فبعثوا رسلهم بالهدايا يطلبون الصلح " ١ .

ولم تكن جميع هذه الأحتفالات التي يقوم بها السلاطين في وداع اساطيلهم موفقة كالتي مرت سابقا فربما يحدث ما يكدر الجمهور ويعكر صفاء السلطان ومثل ذلك حدث في سلطنة الناصر محمد بن قلاون جهزت الشواني ... وزينت الشواني احسن زينة فخرج معظم الناس لرؤيتها واقاموا يومين بلياليها علي الساحل بالبرين وكان جمعا عظيما الي الغاية وبلغت اجرة المركب الصغير

---

١ ـ الخطط ج ٢ ص ١٩٤

مائة درهم لأجل الفرجة . ثم ركب السلطان بكرة يوم السبت ثاني عشر المحرم ومعه الأمير سلار النائب والأمير بيبرس الجاشنكير وسائر الأمراء والعسكر في الحراريق الي الروضة وخرجت الشواني واحدة بعد واحدة فلعبت منها ثلاثة وخرجت الرابعة وفيها الأمير اقوش القارئ من مينا الصناعة حتي توسط البحر فلعب بها الريح الي ان مالت وانقلبت فصار اعلاها اسفلها فتداركها الناس ورفعوا ما قدروا عليه من العدد والسلاح وسلمت الرجال فلم يعدم منهم سوي اقوش وحده فتنكد الناس وعاد الأمراء الي القلعة بالسلطان وجهز عوضا عن التي غرقت وساروا الي مينا طرابلس " ١ وهكذا انتهي هذا الأحتفال بالفشل والكدر .

وكان الأحتفال برجوع الأسطول ظافرا من الغزو لا يقل اهمية وعظمة عن يوم وداعه يصف صالح بن يحي القاهرة يوم عودة الأسطول من فتح قبرس والغزاة ومع الغزاة ملكها اسيرا بقوله " وكان دخولهم الي القاهرة في العشر الأول من شوال سنة تسع وعشرين وثمانمائة (١٤٣٦)م وكانت القاهرة قد زينت لسماع بشارة النصر واستمرت الزينة الي وقت دخولهم فتزايدت الزينة وتناهت الناس فيها فكانت زينة لارئيت مثلها ولا علي ماذكروا المتقدمون في الهجرة . وكنت نهار دخولهم بملك قبرس واقفا في سوق الخيل بمصر برسم الفرجة عليه ورايتهم قد رتبوا جند مصر وعسكرها صفين من صفة الدهليز الي باب القلعة ونفذ دخلوا بالملك بين الصفين وقد ركبوه علي بغل عالي والنهب والأسرا تساق قدامه . ونكس اعلامه علمين محمولة قدامه منكسة السنجق عند كفل فرس حامله والرمح علي كتف حامله وكان ذلك اليوم بمصر يوما مشهودا ما عهد بمثله ... " ٢ بمثل ذلك كان يستقبل الغزاة الفاتحين وبمثل هذه الوضعية الذليلة كان يدخل ملوك الفرنج اسري لبلاط سلاطين مصر . فاين اليوم من الأمس.

وكان سلاطين المماليك يخلعون علي رجال الأسطول الخلع الثمينة جزاءا علي جهادهم ومكافاة لبطولتهم وظفرهم فقد اكرم السلطان برسباي اولئك الفاتحين لجزيرة قبرس المتقدم ذكرهم بما يلي يقول ابن تغري بردي " فأول من بدأ بهم السلطان وخلع عليهم امراء الألوف بمصر والشام وخلع علي كل واحد منهم اطلس متمر وقيد له فرسا بقماش ذهب وهم الأمير اينال الجكمي امير مجلس والأمير تغري بردي المحمودي الناصري راس نوبة النوب والأمير قرامراد خجا الشعباني والظاهري برقوق امير جاندار والأمير حسين بن احمد المدعو تغري بردي احد مقدمي الألوف بدمشق ثم امراء الطبلخانات والعشرات من امراء مصر والشام علي كل واحد فوقاني

---

١ ـ الخطط ج ٢ ص١٩٥ وبيبرس ص١٤٤ ٢ ـ تاريخ بيروت ص٢٢٨

فوقاني حرير كمخا احمر واخضر وبنفسجي بطرز زركش علي قدر مراتبهم وكذلك كل مقدم مركب من الخاصكية والأجناد وغيرهم فكان هذا اليوم يوما عظيما جليلا لم يقع مثله في سالف الأعصار اعز الله تعالي فيه دين الأسلام وايده وخذل فيه الكفر وبدده " ١

اما ما نال من الأنعام لصالح بن يحي الذي اشترك بفتح قبرص فيخبرنا عنه بنفسه فيقول " ووقفت مع الأمراء الذين كانوا في قبرس للسلطان فانعم علي كل منهم بحسبه . وكان انعامه علي مائتي دينار ذهب وخلعة . وانعم علي ايضا الأمير اركماس الظاهري وهو دوادار كبير وانزلني عنده في بيته ورتب لي كل يوم سماطا بكرة والعصر . وليلة السفر اعطاني حجرة عربية وقباء سنجاب من ملابسه " ٢

هكذا كان السلاطين واتباعهم من رجال الحكم يجودون علي الغزاة والمجاهدين من رجال الأسطول ويغدقون عليهم عطاء من يقدر جهودهم وبطولتهم . وهذا ما كان يدفعهم علي الأستمرار في خدمة الأسطول والعمل فيه .

وكان سلاطين المماليك يتابعون اخبار الأسطول عند ارساله للغزو فاذا سمعوا بظفره ونجاحه قاموا بالأفراح ودق الكوسات كما يقول ابن اياس في اخبار سنة ٩١٤ هـ قال " جاءت الأخبار بان العسكر الذي توجه الي نحو بلاد الهند صحبة الأمير حسين قد انتصر علي الفرنج الذين كانوا يعبثون في البحر وغنم منهم العسكر غنائم كثيرة فسر السلطان بهذا الخبر وامر بدق الكوسات فدقت ثلاثة ايام متوالية " ٣

هذه لمحة موجزة عن اخبار الخلفاء والسلاطين في وداع الأساطيل واستقبالها . وفيها نفحة من نفحات الماضي التي تذكرنا بعظمة الأسطول في الأيام الغابرة . وبمدة عناية بعض الخلفاء ورجال الحكم الذين حكموا البلاد العربية وحسن ادارتهم للقوى البحرية .

---

١ - النجوم ج٦ قسم ٢ ص٦١٥ / ٢ - تاريخ بيروت ص٢٢٥ / ٣ - بدائع الزهور ج٤ ص١٤٢ .

الباب السادس

عمليات الاسطول الحربية

في هذا الباب الاخير ساذكر ماقام به العرب من الغزوات في البحر في مختلف العصور العربية منذ زمن النبي الكريم حتى اواخر عهد المماليك متبعا اهم الحوادث البحرية بكل عصر من العصور وعند مختلف الدول العربية التي اعتنت بالاساطيل وغزت بها . وسارتب هذه الحوادث والغزوات في كل دولة بفصل مستقل لوحده متبعا — التسلسل الزمني في ذكر تلك الحوادث .

الفصل الاول

غزوات الاسطول في زمن الخلفاء الراشدين

مضى زمن النبي دون ان يكون للعرب اسطول بحرى وغزوات في البحار ، بل اكتفى الرسول الكريم بتوطيد حكم العرب في جزيرتهم دون ان يغزو بهم خارجها . وهكذا انقضى زمن الخليفة الاول ابو بكر الصديق الذى اخمد ثورة اهل الردة وقضى على عصيانهم واعاد نفوذ الاسلام في الجزيرة العربية .

واول الغزوات البحرية حدثت في زمن الخليفة الثاني عمر الفاروق على يد عامله على البحرين العلاء بن الحضرمي . ولم تكن هذه الغزوة البحرية الاولى برأى الخليفة نفسه بل كانت حماسة ونشاطا من العلاء بن الحضرمي " الذى احب ان يؤثر في الاعاجم اثرا يعز الله به الاسلام على يديه فندب اهل البحرين الى فارس فبادروا الى ذلك وفرقهم اجنادا على احدها الجارود بن المعلى رضي الله عنه ، وعلى الثاني سوار بن همام (ر) وعلى الثالث خليد بن المنذر بن ساوى (ر) وجعل خليدا على عامة الناس" ١ اذن كان القائد العام لهذه الحملة البحرية خليدا بن المنذر الذى عبر باثني عشر الفا من المسلمين من البحرين الى اصطخر من ارض فارس فالتقوا بجموع اهل فارس وعليهم الهربذ واوغلوا في تلك البلاد وبعدوا عن الشاطيء فحال الفرس بين المسلمين وسفنهم وقطعوا خط الرجعة عنهم وحصروهم في تلك البلاد الصعبة عند ذلك قام القائد العام خليد في الناس وقال " اما بعد فان الله تعالى اذا قضى امرا جرت المقادير على مطيته وان هؤلاء القوم لم يزيدوا بما صنعوا على ان دعوكم الى حربهم ، وانما جئتم

---

١ — الكامل ج ٢ ص ٢٢٧ والخطط ج ٢ ص ١٨٩ .

لمحاربتهم ، والسفن والارض بعد الان لمن غلب ، فاستعينوا بالصبر والصلاة وانها لكبيرة الا على الخاشعين " ١ فتشجع القوم وهبوا للدفاع عن ارواحهم فاقتتلوا قتالا شديدا مع اعدائهم في موضع يدعى طاوس فقتل من اهل فارس مقتلة عظيمة وخرج المسلمون يريدون البصرة اذ غرقت سفنهم ولم يجدوا في الرجوع الى البحر سبيلا . ولكن اهل فارس اخذوا عليهم الطرق ومنعوهم من التقدم نحو البصرة فعسكروا في مكانهم ، وارسلوا الى الخليفة ابن الخطاب يستنجدون به . وصل الخبر الى عمر الفاروق فثارت ثائرته واشتد غضبه على العلاء وكتب اليه بعزله وتوعده وامره باثقل الاشياء عليه وابغض الوجوه اليه بتأمير سعد بن ابي وقاص عليه ، وكان بينهما تباين وتباعد . واشار عليه باللحاق بسعد بمن معه من الرجال . وكتب الى العراق يستنفذ الناس بانقاذ اخوانهم المحصورين في ارض فارس . وارسل الى الكوفة لسعد بن ابي وقاص يحثه على ارسال النجدة لبلاد فارس ، وبعث الى البصرة الى عتبة بن غزوان يأمره بأن يندب الناس لينصروا المحصورين من اهل البحرين " فندب عتبة رضي الله عنه الناس واخبره بكتاب عمر رضي الله عنه فانتدب عاصبن عمرو وعرفجه بن هرثمه وحذيفه بن محصن ومجراة بن ثور ، ونهار بن الحارث ... والاحنف بن قيس وسعد ابن ابي العرجاء وعبد الرحمن بن سهل وصعصع بن معاوية رضي الله تعالى عنهم " ٢

سارت ابطال المسلمين وقادتهم من البصرة في اثني عشر الفا على البغال والخيل ، وعليهم ابو سبرة ابن ابي رهم ، فساحل بهم حتى التقوا بخليد واصحابه في المكان المحصورين فيه . وقد استصرخ اهل اصطخر اهل فارس كلهم فاتوهم من كل وجه وكورة والتقى الجمعان وكانت الغلبة للمسلمين وفتح الله عليهم وعادوا ظافرين محملين بالغنائم والاموال الى البصرة وعاد اهل البحرين الى منازلهم ٣ .

هكذا انتهت اولى الغزوات البحرية بغرق سفن المسلمين وعودة الجيش سالما بعد امداد الخليفة عمر له وانقاذه من مخالب الحصار والموت .

ولم تكن هذه الغزوة هي الوحيدة التي قامت في زمن الخليفة عمر بن الخطاب

١— للخطط ج ٢ ص ١٨٩ / ٢— الكامل ج ٢ ص ٢٢٨ والتمدن ج ١ ص ١٩٣ والعراق الجديد ص ٤٥ / ٣— الكامل ج ٢ ص ٢٢٧ والخطط ج ٢ ص ١٨٩ والنظم الاسلامية ص ٢٤٦ .

في ناحية الخليج الفارسي اذ ان البلاذري يقول " اخبرنا علي بن محمد بن عبد الله بن ابي سيف قال ولى عمر بن الخطاب رضي الله عنه عثمان بن ابي العاصي الثقفي البحرين وعمان سنة ١٥ فوجه اخاه الحكم الى البحرين ومضى الى عمان فاقطع جيشا الى تانه فلما رجع الجيش كتب الى عمر يعلمه ذلك فكتب اليه عمر ياأخا ثقيف حملت دودا على عود واني احلف بالله ان لو اصيبوا لاخذت من قومك مثلهم " ١ . مما سبق نجد ان هذه الغزوات البحرية التي قامت في زمن الخليفة الثاني لم تكن برأيه بل كان عماله في البحرين او عمان يقومون بها دون استشارته اذ ان المأثور عن ابن الخطاب شدة خوفه على المسلمين من الغزو في البحر . يقول المقريزي " وكان عمر رضي الله عنه لايأذن لاحد في ركوب البحر غازيا كراهة للتغرير بجنده واقتداء برسول الله (ص) وخليفته ابي بكر " ٢ حتى انه لم يكن يسمح لعماله في الولايات ان يتخذوا مواطن اقامتهم في مكان مفصول عن مركز الخلافة بماء . فلما فتح عمرو بن العاص مصر واجلى الروم عنها سنة ٢٠ هـ اراد ان يتخذ الاسكندرية حاضرة البلاد عاصمة لولايته الجديدة ، فارسل يستأذن عمر بن الخطاب بذلك . فسأل الخليفة رسول عمرو " هل يحول بيني وبين المسلمين ماء ؟ " قال " نعم ياامير المسلمين اذا جرى النيل " فكتب الى عمرو " اني لاحب ان تنزل بالمسلمين منزلا يحول الماء بيني وبينهم في شتاء ولا صيف فلا تجعلوا بيني وبينكم ماء متى اردت ان اركب اليكم راحلتي حتى اقدم اليكم قدمت " واشار عليه باتخاذ مدينة اخرى غير الاسكندرية ٣ .

وبعد ان فتحت الشام الح معاوية بن ابي سفيان وكان يومئذ على جند دمشق والاردن على الخليفة عمر ان يغزو في البحر ، وهون له الامر فقال له ان قرية من قرى حمص ليسمع اهلها نباح كلابهم (الروم) وصياح دجاجهم " ٤ واستشاره في غزوهم حتى كاد ان يأخذ بقلب عمر فاحب الفاروق ان يستوثق من الامر فكتب الى عمر ابن العاص وهو على مصر اتصف لي البحر وراكبه فان نفسي تنازعني اليه وانا اشتهي خلافها فكتب اليه " ياامير المؤمنين اني رايت البحر خلقا كبيرا يركبه خلق صغير —

---

١ — فتوح البلدان ص ٤٣٨ / ٢ — الخطط ج ٢ ص ١٨٩ / ٣ — النظم الاسلامية ص ٢٤٦ / ٤ — الخطط ج ٢ ص ١٩٠ .

ليس الا السماء والماء ان ركد حزن القلوب وان زل ازاغ العقول يزداد فيه اليقين قلة والشك كثرة ، هم فيه كدود على عود ، ان مال غرق وان نجا برق " فلما جاء كتاب عمرو كتب الى معاوية " لاوالذى بعث محمدا بالحق لااحمل فيه مسلما ابدا . انا قد سمعنا ان بحر الشام يشرف على اطول شيء في الارض يستأذن الله تعالى في كل يوم وليلة ان يفيض على الارض فيغرقها . فكيف احمل الجنود في هذا البحر الكافر المستصعب وتالله لمسلم واحد احب اليّ مما حوته الروم . فاياك ان تعرض لي وقد تقدمت اليك ، وقد علمت مالقي العلاء مني ولم اتقدم اليه في مثل ذلك " ١ . ويقال ان عمر بن الخطاب كان يقول " لايسالني الله عز وجل عن ركوب المسلمين البحر ابدا " ٢ وروى ابنه عبد الله انه قال " لولا اية في كتاب الله تعالى لعلوت راكب البحر بالدرة " ٣

هكذا انقضت خلافة الفاروق وجاء بعده عثمان بن عفان ، فتنفس معاوية بن ابي سفيان الصعداء وارسل يستأذن الخليفة عثمان في الغزو في البحر فمانع اولا واخره كثيرا ثم قبل مكرها بسبب الحاح معاوية يقول البلاذرى " وحدثني ابو حفص عن سعيد ابن عبد العزيز قال ادركت الناس وهم يتحدثون ان معاوية كتب الى عمر بن الخطاب بعد موت اخيه يزيد يصف له حال السواحل . فكتب اليه في مرمتها وترتيب المقاتلة فيها واقامة الحرس على مناظرها واتخاذ المواقيد لها ولم يأذن له في غزو البحر ، وان معاوية لم يزل بعثمان حتى اذن له في غزو البحر وامره ان يعد في السواحل اذا غزا او اغزى جيوشا سوى من فيها من الرتب وان يقطع الرتب ارضين ويعطيهم ماجلا عنه اهله من المنازل ... " ٤ ويقول المقريزى ان الخليفة عثمان قال لمعاوية " تنتخب الناس ولا تقرع بينهم خيرهم فمن اختار الغزو طائعا فاحمله واعنه ففعل " ٥

وهكذا قبل الخليفة عثمان بترك معاوية يغزو في البحر على ان يعد العدة الكافية للامر والا يجبر الناس على النزول في البحر . وترك الغزو فيه اختياريا لمن يريد فشرط عليه ان يستصحب معه زوجته . وقد استعمل معاوية على البحر عبد الله ابن قيس الحاسي حليف بني فزاره ، فغزى خمسين غزوة مابين صائفة وشاتية في البحر

١ـ الخطط ج ٢ ص ١٩٠ والتمدن ج ١ ص ١٩٤ وحضارة العرب ص ٢٦ / ٢ـ الخطط ج ٢ ص ١٩٠ / ٣ـ نفس المصدر ج ٢ ص ١٩٠ / ٤ـ فتوح البلدان ص ١٣٤

٥ـ الخطط ج ٢ ص ١٩٠ .

والبر ولم يغرق فيه احد ولم ينكب ١ ٠

وفي اواخر ايام عثمان ابن عفان سنة ٣٤ هـ سنة ٦٥٥ م حدثت غزوة الصواري ٢ التي اشترك بها الاثنا اسطول معاوية بقيادة بسر بن ارطاة واسطول مصر بقيادة عبد الله بن سعد بن ابي سرح مع الاسطول البيزنطي الذى كان بقيادة امبراطور بيزانطة نفسه قسطنطين بن هرقل Constans II ويقول الطبرى ان الروم خرجوا باسطول مؤلف من خمسمائة مركب ليأخذوا بثارهم لما نالهم من المسلمين في افريقية ٣ فتصدى لهم الاسطول الاسلامي المؤلف من مئتي مركب وهي مجموع مراكب الشام ومصر التي كانت غالبا تعمل مشتركة معا في الحروب البحرية ٠ وحاولوا ان يقضوا على نفوذ الاسطول البيزنطي الذى كان لاينفك يهاجم سواحل الشام ومصر ويوقع بها من التخريب والنهب ٤

التقى الجمعان في ذات الصوارى على شاطيء Lycian قرب مدينة Phoenix ٥ في اسيا الصغرى ٠ ولما علم عبد الله بن سعد بن ابي سرح بكثرة مراكب الاعداء وقوتهم — وكان اذ ذاك امير القوم — فقام بالناس خطيبا يستشيرهم بما يعمل فسألهم ثلاثا عن الرأى فلم يجبه احد وكان يمهلهم قليلا لترجع اليهم افئدتهم ، الى ان قام رجل من اهل المدينة كان متطوعا معه وقال " ايها الامير ان الله جل ثناؤه يقول كم من فئة قليلة غلبت فئة كثيرة باذن الله والله مع الصابرين " ٦ ٠ تشجع القوم وقويت قلوب المسلمين ٠عندها امر عبد الله الناس بالركوب فركبوا وانما في كل مركب نصف شحنته اذ انه خرج النصف الاخر الى البر مع بسر بن ارطاة واصطف الفريقان للقتال يقول الطبرى في وصف تلك المعركة " قال بن عمر حدثني عيسى بن علقمة عن عبدالله بن ابي سفيان عن ابيه عن مالك بن اوس بن الحدثان ٠ قال كنت معهم فالتقينا في البحر فنظرنا الى مراكب مارأينا مثلها قط ،وكانت الريح علينا فارسينا ساعة وارسوا قريبا منا وسكنت الريح عنا فقلنا : الا من بيننا وبينكم ٠ قالوا ذلك لكم ولنا منكم ٠ ثم قلنا ان اجبتم فالساحل حتى يموت الاعجل منا ومنكم ،ولئن شئتم فالبحر ٠ قال فنخروا نخرة واحدة وقالوا الماء ٠ فدنونا منهم فربطنا السفن بعضها

١ـ الخطط ج ٢ ص ١٩٠ / ٢ـ الطبرى الجملة الاولى ج ٥ ص ٢٨٦٥ / ٣ـ نفس المصدر ص ٢٨٦٧ / ٤ـ Cambredge Vol II P352 / ٥ـ تاريخ العرب ص ٢٠٠ / ٦ـ الخطط ج ١ ص ١٦٩ ٠

الى بعض حتى كنا يضرب بعضنا بعضا على سفننا وسفنهم فقاتلنا اشد القتال ، ووثبت الرجال على الرجال يضربون بالسيوف على السفن ويتواجئون بالخناجر حتى رجعت الدماء الى الساحل تضربها الامواج . وطرحت الامواج جثث الرجال ركاما . قال ابن عمر فحدثني هشام بن سعد عن زين بن اسلم عن ابيه عمن حضر ذلك اليوم قال « رأيت الساحل حيث تضرب الريح الموج وان عليه لمثل الظرب العظيم من جثث الرجال وان الدم الغالب على الماء ، ولقد قتل يومئذ من المسلمين بشر كثير وقتل من الكفار مالا يحصى ، وصبروا يومئذ صبرا لم يصبروا في موطن قط ، ثم انزل الله نصره على اهل الاسلام وانهزم القسنطين مدبرا ، فما انكشف الا لما اصابه من القتل والجراح ولقد اصابه يومئذ جراحات مكث منها حينا جريحا " ١

تلك كانت معركة ذات الصواري التي تلاقى فيها المسلمون والروم واقتتلوا بها وجها لوجه حتى صبغوا لون ماء البحر بدم القتلى والجرحى . اولئك الذين كان الموج يحمل جثثهم ويلقيها في الساحل . تلك هي الصورة الرائعة المروعة التي يصورها الطبري لتلك المعركة . وقد كانت السفن قديما تقرن بالسلاسل والحبال عند اللقاء يقول المقريزى " فقرن مركب عبد الله يومئذ وهو الامير بمركب من مراكب العدو يجتر مركب عبد الله اليهم فقام علقمة بن يزيد القطيفي وكان مع عبد الله بن سعد في المركب فضرب السلسلة بسيفه فقطعها . فسأل عبد الله امرأته بذلك بسيسة ابنة حمزة ابن بشرح وكانت مع عبد الله يومئذ . وكان الناس يغزون بنسائهم في المركب . من رأيت اشد قتالا ؟ قالت علقمة صاحب السلسلة . وكان عبد الله قد خطب بسيسة الى ابيها فقال له ابن علقمة قد خطبها وله عليّ فيها رأى ، فان تركها افعل ، فكلم عبد الله علقمة فتركها فتزوجها عبد الله بن سعد ثم هلك عنها عبد الله فتزوجها بعده علقمة بن يزيد " ٢ اذن كان لنساء العرب حتى في المعارك البحرية نصيب وافر في تشجيع القوم وحضهم على الاستماتة في القتال والدفاع عن بلادهم وانفسهم . ولم تكن نساء العرب يذهبن مع ازواجهم في الحروب البرية فقط بل كن يرافقنهم في الحروب البحرية ايضا . وفي قول المقريزى المتقدم خبر دليل على ذلك .

١ـ الطبري الجملة الاولى ج ٥ ص ٢٨٦٨ ــ ٢٨٦٩ / ٢ـ الخطط ج ١ ص ١٦٩ و

The Orient P 357

وبعد ان تشتتت جموع الروم هرب امبراطورهم الى صقلية فقتله اهل تلك الجزيرة في الحمام لانه على زعمهم اهلك النصرانية وافنى رجالها ١ الا ان المسلمين لم يستطيعوا متابعة الروم واحراز النصر النهائي في الاستيلاء على القسطنطينية " بل اقام عبد الله بذات الصوارى اياما بعد هزيمة القوم ثم اقبل راجعا ٢ اما سبب رجوعه فيمكننا ان نعزوه الى شدة خسائر المسلمين وتعبهم بالرغم من تغلبهم على عدوهم . الا ان الطبرى يروى لنا ان محمد بن ابي حذيفة ومحمد بن ابي بكر كانا يشغبان على عبد الله بن سعد ويحرضان الجند عليه ويظهران معائبه ومعائب الخليفة عثمان ويثيران الجند ضدهما . يقول الطبرى " وجعل محمد بن ابي حذيفة يقول للرجل اما والله لقد تركنا خلفنا الجهاد حقا . فيقول الرجل واى جهاد ؟ فيقول عثمان بن عفان فعل كذا وكذا وفعل كذا وكذا حتى افسد الناس . فقدموا بلدهم . وقد افسدهم واظهروا من القول مالم يكونوا ينطقون به . قال محمد بن عمر فحدثني معمر بن راشد عن الزهرى قال خرج محمد بن ابي حذيفه ومحمد بن ابي بكر عام خرج عبد الله بن سعد فاظهرا عيب عثمان وما خالف به ابا بكروعمر وان دم عثمان حلال ويقولان استعمل عبد الله بن سعد رجلا كان رسول الله صلعم اباح دمه ونزل قرآن بكفره واخرج رسول الله صلعم قوما وادخلهم . ونزع اصحاب رسول الله صلعم واستعمل سعيد بن العاص وعبد الله بن عامر فبلغ ذلك عبد الله بن سعد فقال لاتركبا معنا فركبا في مركب مافيه احد من المسلمين ولقوا العدو وكانا انكل المسلمين قتالا فقيل لهما في ذلك فقالا كيف نقاتل مع رجل لاينبغي لنا ان نحكمه : عبد الله بن سعد واستعمله عثمان . وعثمان فعل وفعل . فافسدا اهل تلك الغزاة وعابا عثمان اشد العيب . فارسل عبد الله بن سعد اليهما ينهاهما اشد النهي وقال والله لولا اني لاادرى مايوافق امير المؤمنين لعاقبتكما وحبستكما " ٣ .

هكذا رجع المسلمون ظافرين دون ان يتابعوا ظفرهم الى النهاية بسبب الخلاف الداخلي الذى كان ثائرا بينهم . وبالرغم من انهم لم يحصلوا على النتيجة المأمولة وهي الاستيلاء على القسطنطينية الا انهم ضربوا الاسطول الرومي الضربة

١- الكامل ج ٣ ص ٤٩ / ٢- الطبرى الجملة الاولى ج ٥ ص ٢٨٧٠ / ٣- نفس المصدر ص ٢٨٧٠ - ٢٨٧١ .

القاضية في بحر الروم وامنوا لانفسهم السيطرة عليه . ويشبه حتي هذه المعركة بمعركة اليرموك تلك المعركة التي فتحت للجيش العربي طريق الاستيلاء على بلاد الشام . كما ان معركة ذات الصوارى امنت للاسطول العربي سبيل السيطرة على شرق بحر الروم ١-
وقد اختلف المؤرخون في سبب تسمية تلك المعركة بذات الصوارى فالمقريزى يقول " قال ابو عمرو الكندى وانما سميت غزوة ذى الصوارى لكثرة صوارى المراكب واجتماعها ٢"
ويقول حتي دعيت بذلك نسبة الى المكان الذى نشبت به المعركة لانه كان غنيا بشجر السرو الذى يتخذ منه صواريا للمراكب ٣ وهذا القول لايخالف النصوص المتقدمة التي اوردها الطبرى والتي يذكر فيها ذات الصوارى كاسم علم لمكان معين .

رجع المسلمون ظافرين بعد هذه المعركة رافعين رايات النصر تخفق في ذرى صوارى المراكب . اما الروم فقد تشتتوا شذر مذر ورجعوا مدحورين خائبين لايلون على شيء وما منهم الا الغريق والجريح مخلفين وراءهم كثيرا من مراكبهم المملوءة بذخائرهم واموالهم واسلحتهم . وبعد مقتل الخليفة عثمان واستيلاء الامام علي على منصب الخلافة توقف امر الاسطول من جراء المنازعات الداخلية على الحكم الى ان استقر الامر لمعاوية في الشام فنظم امر الاسطول وقام باعمال بحرية هامة .

الفصل الثاني

غزوات الاسطول في زمن الامويين

لعله يعجب القارىء عند سماع انتصار الاسطول العربي الحديث على الاسطول البيزنطي القديم العهد باولو الملاحة في معركة ذات الصوارى السابقة الذكر . اذ انه من المعروف ان العرب ليست امة بحرية ولم تعاني صناعة الملاحة الا ماكان من بعض عرب الجنوب الذين كانوا يعملون في التجارة البحرية . الا ان دحر الاسطول البيزنطي بالرغم من تفوق عدده وعدده من قبل العرب الحديثي العهد بامر الاساطيل امر يدعو الى التساؤل ! فما السبب في هذا التفوق العظيم الذى احرزه العرب ؟ وكيف استطاعت امة كالامة العربية التي عاشت في بطن البادية الوف السنين ان تكون امة بحرية بهذه السرعة الزائدة ؟

١- تاريخ العرب ص ٢٠١ / ٢- الخطط ج ١ ص ١٦٩ / ٣- تاريخ العرب ص ٢٠١ .

لاشك ان نشاط العربي وذكاؤه وتعوده على شظف العيش وقسوته له اهمية كبيرة في الموضوع ولكن اذا تعمقنا في البحث والدرس اكثر من ذلك نجد ان العرب بجانب استيلائهم على ساحل بلاد الشام في الفتوحات العربية الاولى قد اخضعوا الاقوام التي كانت تسكن هذا الساحل وادخلوهم تحت حكمهم واستجلبوهم لخدمتهم ومساعدتهم في اعمالهم البحرية والادارية وغيرها من الاعمال يقول Von Kremer ان العرب وجدوا في اهل سورية اشهر ملاحي العالم وهم الفينيقيون المعروفون في القديم بجرأتهم في الرحلات البحرية ١ ولا شك ان سكان السواحل قد اشتركوا مع العرب في غزواتهم البحرية وساعدوهم في بناء الاسطول وتشييده . الا انهم لم يكونوا مخلصين دائما للعرب في اعمالهم اذ انهم كثيرا ماكانوا يغدرون بالخلفاء ويحرقون مراكب الاسطول كما رأينا ذلك عند ذكر صناعة العقس وكما سنرى ذلك فيما بعد . وقد علل ابن خلدون عدم ركوب العرب للبحر في اول زمن الخلفاء الراشدين بقوله التالي " والسبب في ذلك ان العرب كانوا لبداوتهم لم يكونوا اول الامر مهرة في ثقافته وركوبه والروم والافرنجة لممارستهم احواله ومرباهم في التغلب على اعواده مرنوا عليه واحكموا الدربة بثقافته فلما استقر الملك للعرب وشمخ سلطانهم وصارت امم العجم خولا لهم وتحت ايديهم ، وتقرب كل ذي صنعة اليهم بمبلغ صناعته واستخدموا من النواتية في حاجاتهم البحرية امما ، وتكررت ممارستهم للبحر وثقافته استحدثوا بصراء بها فشرهوا الى الجهاد فيه وانشأوا السفن فيه والشواني وشحنوا الاساطيل بالرجال والسلاح وامطوها العساكر والمقاتلة لمن وراء البحر من امم الكفر واختصوا بذلك من ممالكهم وثغورهم ماكان اقرب لهذا البحر وعلى حافته مثل الشام وافريقية والمغرب والاندلس " ٢ ولنرى الان اهم الغزوات التي قام بها الامويون :

رتب الامويون غزواتهم في البحر صائفة وشاتية كما هي الحالة في غزوات البر وكانوا يوكلون هذه الصوائف والشواتي الى جماعة من كبار قوادهم فيغزوا هؤلاء ثم يعودون . وهذه الغزوات هي اشبه بغارات غايتها النهب والسلب ثم الرجوع دون فتح وتوطيد حكم . وعلاوة عن المغانم التي يأخذونها يشعرون اعداءهم بقوتهم

١- The Orient P 357 ٢- المقدمة ص ٢١١ .

واستعدادهم للغزو ويظهرون حيويتهم في دوام استعدادهم للجهاد . وامثال هذه الغارات هي مايذكرها ابن الاثير في حوادث سنة ٤٨ هـ فيقول " وغزوة مالك بن هبيرة السكوني البحر ، وغزوة عقبة بن عامر الجهيني باهل مصر البحرين وباهل المدينة " ١ وفي حوادث سنة ٤٩ يقول " فيها كانت غزوة يزيد بن شجرة الرهاوي في البحر فشتى باهل الشام ، وفيها كانت غزوة عقبة بن نافع في البحر فشتى باهل مصر " ٢ .

وهناك نوع ثان من الغزوات البحرية كان الخلفاء الامويون يعدون لها العدة ويسيرون بانفسهم لقيادتها او يرسلون احد ابنائهم او افراد عائلتهم ممن يعتمدون عليه للقيام بها . وهذه الحملات غايتها الفتح وتوطيد قدم الاسلام والعرب في تلك البلاد المفتوحة ، وكثيرا ماكان الجيش البري يشترك في العمل مع الاسطول البحري جنبا الى جنب في مثل هذه الفتوحات العظيمة كما حدث للمسلمين عند حصار القسطنطينية زمن معاوية سنة ٤٩ هـ (٦٦٩ م) فقد جهز هذا الخليفة الاموي جيشا كثيفا الى بلاد الروم وجعل سفيان بن عوف قائدا على هذا الجيش تحت امرة ابنه يزيد ، واصحبه بكثير من رجال العرب الكبار امثال ابن عباس ، وابن عمر ، وابن الزبير ، وابي ايوب الانصاري وعبد العزيز بن زرارة الكلابي وكثيرين غيرهم من مشاهير المسلمين . فحاصر هذا الجيش البري العظيم مدينة القسطنطينية من ناحية البر ، كما اتى الاسطول وحاصرها من ناحية البحر . يقول حتي فخرج اسطول الروم لصد اسطول العرب وكان الالتحام شديدا مابين الاسطولين امام باب القسطنطينية ٣ ولكن هذه الحملة باءت بالفشل وذلك لفتك نيران الاغريق بسفن المسلمين ٤ وانسحاب ولي العهد يزيد بجيشه الى الشام بعد ان تركوا ابا ايوب الانصاري قتيلا قرب اسوار القسطنطينية ٥

ومن امثال هذه الغزوات البحرية الهامة التي بدأت بغارة وانتهت بفتح عظيم هي غزو الاندلس التي حدثت في ايام الوليد بن عبد الملك سنة ٩٠ هـ (٧١١ م) فقد ارسل والي افريقية موسى بن النصير يستأذن الخليفة بغزو بلاد الاندلس فكتب اليه " ان اختبرها بالسرايا ... فبعث رجلا من مواليه يقال له طريف في اربعمائة رجل ومعهم مائة فرس . فسار في اربع سفائن . فخرج في جزيرة بالاندلس فسميت جزيرة طريف لنزوله فيها ، ثم اغار على الجزيرة الخضراء فاصاب غنيمة كثيرة ورجع سالما في رمضان سنة

١ـ الكامل ج ٣ ص ١٩٦ / ٢ـ نفس المصدر ج ٣ ص ١٩٧ / ٣ـ تاريخ العرب ص ٢٠٢
٤ـ المقتطف ج ٨ سنة ١٨٨٩ وخطط الشام ج ٥ ص ٣٦ / ٥ـ الكامل ج ٣ ص ١٩٧

احدى وتسعين ، فلما رأى الناس ذلك تسرعوا الى الغزو ثم ان موسى دعا مولى له كان على مقدمات جيوشه يقال له طارق بن زياد فبعثه في سبعة الاف من المسلمين اكثرهم البربر والموالي واقلهم العرب فساروا في البحر وقصد الى جبل منيف وهو متصل بالبر فنزله فسمي الجبل جبل طارق الى اليوم ... وكان حلول طارق فيه في رجب سنة اثنين وتسعين من الهجرة " ١ وعلى يد ذلك البطل العظيم طارق بن زياد قام فتح الاندلس ذلك القطر العظيم بموارده الواسعة وبناء العظيم الذى كان درة متألقة في جبين البلاد العربية التي خضعت للمسلمين زمن حكم الامويين .

ولم تكن المحاولة بفتح القسطنطينية التي جرت زمن الخليفة معاوية هي الوحيدة من نوعها بل قامت محاولات كثيرة فيما بعد اهمها محاولة سليمان بن عبد الملك بالاستيلاء على عاصمة الروم . قام هذا الحصار سنة ٩٨ هـ (٧١٦م) بقيادة اخي الخليفة سليمان وهو مسلمة بن عبد الملك وكان هذا الحصرا دون شك اعنف حصار قام به العرب على هذه المدينة . حاصر العرب القسطنطينية من جهة البر والبحر واشترك الاسطول الشامي مع الاسطول المصرى جنبا لجنب في هذا الحصار . جاء الاسطول المصرى بقيادة عمر بن هبيرة لمساعدة المسلمين وكان مزودا بانواع النفط ٢ ولكن البلغاريين الذين استعان بهم الامبراطور البيزنطي اليون Leo تمكنوا من قهر المراكب المصرية . اضف الى ذلك استعمال البيزنطيين للسلاسل لصد سفن المسلمين وتأثير النار اليونانية التي فتكت كثيرا بمراكب العرب ٣ ثم الخدعة التي قام بها اليون بحرق طعام الجيش او نقله الى القسطنطينية والتي مرت على قائد الجيش العربي ٤ كل ذلك مع هجوم فصل الشتاء البارد الشديد وتفشي المرض في جند المسلمين سبب تقهقر العرب المسلمين عن القسطنطينية ٥ يقول Teophanes " وعند رجوع الاسطول العربي هبت عاصفة هوجاء اكملت عمل البيزنطيين فلم يصل للشاطئ السورى سالما من ١٨٠٠ مركب الا خمسة مراكب فقط وبذلك تشتت الاسطول العربي ٦"

وفي زمن هشام بن عبد الملك (١٠٥ ـ ١٢٥ هـ) قام الجنيد بن عبد الرحمن المرى بغزو شط مهران في ارض الديبل من بلاد السند فقام حليشة لنصحه وقد جمع

---

١ ـ الكامل ج ٤ ص ٢٣٠ والروض ص ٨ ـ ٩ ٢ ـ تاريخ العرب ص ٢٠٣ ـ Cambredge Vol II , P 37I
٣ ـ Cambredge Vol IV P II9 ٤ ـ الطبرى الجملة الثانية ج ٨ ص ١٣١٤ .
٥ ـ الكامل ج ٥ ص ١١ / ٦ ـ تاريخ العرب ص ٢٠٣ ينقل عن Theophanes

جموعا من اهل الهند واستعد للحرب فسار اليه الجنيد في السفن والتقوا في بطيحة الشرقي ، فاخذ حليشة اسيرا وقد جنحت سفينته فقتله الجنيد وفتح تلك المواطن ١
وقد استعمل الوليد بن يزيد (١٢٥ — ١٢٦ هـ) الاسود بن بلال المحاربي على بحر الشام فقدم عليه اعرابي من قومه ففرض له واغزاه البحر فلما اصابت البدوي تلك الاهوال في البحر قال شعرا منه :

فلله رأى قادني لسفينة — واخضر موار السرار يمور
ترى متنه سهلا اذا الريح اقلعت — وان عصفت فالسهل منه بعور
فيا ابن بلال للضلال دعوتني — وما كان مثلي في الضلال يسير
لئن وقعت رجلاى في الارض مرة — وحان لاصحاب السفين وكور
وسلمت من موج كأن متونه — حر اريدت اركانه وثبير
لتحترفن اسمي لدى العرض حلقة — وذلك ان كان الاياب يسير
وقد كان في حول الشرية مقعد — لذيذ وعيش بالخديث غرير ٢

هذا من جميل الشعر الذى يظهر خوف الاعرابي من ركوب البحر الذى لم يالفوا الركوب فيه .وانما يقذف بهم عمال الخلفاء وولاته للغزو فيه ويطمعوهم بالمال والغنيمة والاعطاء . وليس هذا الاعرابي هو الوحيد الذى ذم ركوب البحر والخوف منه فلابن الرومي قصائد بديعة تصور اهوال البحر وخوفه منه منها قوله :

واما بلا البحر عندى فانه — طواني على روع مع الروح واقب
ولو ثاب عقلي لم ادع ذكر بعضه — ولكنه من هوله غير ثائب
ولم لا ! ولو القيت فيه وصخرة — لوافيت منه القعر اول راسب
ولم اتعلم قط من ذى سباحة سو — ى الغوص والمعصوف غير مغالب
فايسر اشفاقي من الماء انني — امر به في الكوز مر المجانب
واخشى الردى منه على كل شارب — فكيف بامنيه على كل راكب
اظل اذا هزته ريح ولألأت — له الشمس امواجا طوال الغوارب
كأني ارى فيهن فرسان بهمة — يليحون نحوى بالسيوف القواضب ٣

١ـ فتوح البلدان ص٤٤٧ / ٢ـ خطط الشام ج ٥ ص٣٦ / ٣ـ ديوان ابن الرومي ص٤ـ٥

وله قصائد اخرى في هذا المعنى تدل على شدة خوفه من البحر وحذره من الركوب فيه . الا ان هذا الخوف لم يكن عند كل عربي ، بل كان عند بعض افراد ومنهم ابن الرومي الذى عرف كيف ينمق قصائده في التهويل من خطر البحر والغرق فيه . ونجد نقيض هؤلاء افراد مغامرين لهم جرأة حتى على اختطاف بطارقة الروم كالقصة التي يرويها المسعودى والتي جرت زمن الخليفة معاوية ، فقد ضرب بطريق من كبار بطارقة الروم اسيرا مسلما من غزاة البحر فاستغاث هذا الاسير بمعاوية ، فارسل الخليفة شخصا من مدينة صور تمكن من خطف البطريك الذى ضرب الاسير المسلم واتى به لمعاوية فجاء بالاسير المسلم واثاره من البطريك ثم ارجع البطريك لبلاده سالما (١)

وكقصة الجماعة الذين يدعون بالمغرورين الذين ركبوا بحر الظلمات من مدينة اشبونه في الاندلس ليعلموا ابن انتهاءه . يذكر قصتهم ابن عبد المنعم فيقول " ان ثمانية رجال كلهم ابناء عم اجتمعوا فابتنوا مركبا وادخلوا فيه من الماء والزاد مايكفيهم لاشهر، ثم دخلوا البحر في اول طاروس الريح الشرقية ، فجروا بها نحوا من احدى عشر يوما فوصلوا الى بحر غليظ الموج كدر الروائح كثير التروش قليل الضوء فايقنوا بالتلف — فردوا قلعهم في اليد الاخرى وجروا في البحر في ناحية الجنوب اثني عشر يوما ، فخرجوا الى جزيرة الغنم وفيها من الغنم ما يأخذه عد ولا تحصيه ، وهي سارحة لاناظر لها ولا راع ، فقصدوا الجزيرة ونزلوها فوجدوا عين ماء جارية عليها شجرة تين بري ، فاخذوا من تلك الغنم فذبحوها فوجدوا لحومها مرة لايقدر احد على اكلها ، فاخذوا من جلودها وساروا مع الجنوب اثني عشر يوما الى ان لاحت لهم جزيرة فنظروا فيها الى عمارة وحرث فقصدوا اليها ليروا مافيها فما كان الا غير بعد حتى احيط بهم في زوارق ، فاخذوا وحملوا الى مدينة على ضفة البحر فانزلوا بها في دار فرأوا بها رجالا شقرا زعرا ، شعورهم سبط وهم طوال القدود ولنسائهم جمال عجيب فاعتقلوا في بيت ثلاثة ايام ثم دخل عليهم في اليوم الرابع رجل يتكلم باللسان العربي فسالهم عن حالهم وفيم جاءوا واين بلادهم ، فاخبروه بكل خبرهم فوعدهم خيرا واعلمهم انه — ترجمان ، فلما كان في اليوم الثاني من ذلك اليوم احضروا بين يدى الملك فسالهم عما سالهم عنه الترجمان فاجبروه بما اخبروا به الترجمان امس ، وانهم اقتحموا البحر

١— مروج ج ٤ ص ١٥٢ — ١٥٧ .

ليروا مافيه من العجائب وليقفوا على نهايته ، فلما علم الملك ذلك ضحك وقال للترجمان اخبر القوم ان ابي امر قوما من عبيده بركوب هذا البحر وانهم جروا في عرضه شهرا الى ان انقطع عنهم الضوء وانصرفوا من غير فائدة تجدى ، ثم وعدهم خيرا وصرفوا الى موضع حبسهم الى ان بدأ جرى البرح الغربية فعمر بهم زورق وعصبت عيونهم وجرى بهم في البحر برهة من الدهر . قال القوم : قدرنا انه جرى بنا ثلاثة ايام بلياليها حتى جيء بنا الى البر فاخرجنا وكتفنا الى خلف وتركنا بالساحل الى ان تضاحى النهار وطلعت الشمس ونحن في ضنك وسوء حال من شدة الكتاف حتى سمعنا ضوضاء واصوات ناس فصحنا بجملتنا فاقبل القوم الينا فوجدونا بتلك الحالة السيئة فحلوا اوثاقنا وسألونا — فاخبرناهم بخبرنا وكانوا برابر فقال لنا احدهم اتعلمون كم بينكم وبين بلدكم ؟ فقلنا لا فقال مسيرة شهرين فقال زعيم القوم واأسفي ، فسمي المكان الى اليوم آسفي وهو المرسى الذى اقسى المغرب " ١ هذه هي قصة المغروريين الذين سبقوا كبار الرحالين الذين حاولوا عبور بحر الظلمات والتطلع الى البلاد التي وراءه . وان فشلوا في تحقيق الامنية التي سعوا اليها الا انهم برهنوا على جرأتهم واقدامهم في خوض البحر واكتشاف البلاد التي خلفه . وقد سبقوا بعملهم هذا كولومب وماجلان وغيرهما من كبار المستكشفين الذين خاضوا البحار وعرضوا انفسهم للهلاك للتفتيش عن حقيقة كامنة في رووسهم . .

الفصل الثالث

غزوات الاسطول في زمن العباسيين

عندما استلم العباسيون الحكم من الامويين نقلوا عاصمة الخلافة من دمشق الى بغداد ، فبعدت انظارهم عن بحر الروم لابتعادهم عنه وقل الاهتمام بامر الاسطول في بحر الروم وقامت الحروب في البريين العباسيين والبيزنطيين عوض عن الحروب في البحر ، وانشقت المقاطعات في افريقية ومصر حتى والشام عن جسم الدولة العباسية واستلمت هذه المقاطعات — تحت حكم الدولة العباسية اولا ، والدول المستقلة فيما بعد— امر محاربة الروم في البحر المتوسط وجزره ٢ ولذلك سنرى ان معظم الحروب البحرية التي قام بها العباسيون كانت في البحر الهندى والخليج الفارسي وليست في البحر الرومي كما الفناها في الدورين السابقين .

---

١ — الروض ص ١٦ — ١٨ والحضارة الاسلامية ج ٢ ص ٧ — ٨ / ٢ — المقدمة ص ٢١١ .

ففي زمن الخليفة العباسي الثاني المنصور (١٣٦ — ١٥٨ هـ) تولى هشام ابن عمرو التغلبي السند ففتح ما استغلق ، وتوجه عمرو بن جمل في بوارج الى نارند ففتحها وتوجه الى ناحية الهند فافتتح قشمير فاصاب سبايا ورقيقا وفتح الملتان ودوخ الثغر واحكم اموره ١ .

ثم قام المهدي من بعد المنصور (١٥٨ — ١٦٩ هـ) فوجه سنة ١٥٩ هـ عبد الملك بن شهاب المسمعي في البحر الى بلاد الهند وفرض معه الفين من اهل البصرة من جميع الاجناد واشخصهم معه واشخص معه من المطوعة الذين كانوا يلزمون المرابطات الفا وخمسمائة رجل ووجه معه قائدا من ابناء اهل الشام يقال له ابن الحباب المذحجي في سبعمائة من اهل الشام وخرج معه من مطوعة اهل البصرة باموالهم الف رجل فيهم فيما ذكر الربيع بن صبيح ، ومن الاسواريين والسيابجة اربعة آلاف رجل فولى عبد الملك ابن شهاب المنذر بن محمد الجارودي الالف الرجل المطوعة من اهل البصرة وولى ابنه غسان بن عبد الملك الالف الرجل الذين من فرض البصرة ، وولى ابنه عبد الواحد ابن عبد الملك الالف والخمسمائة الرجل من مطوعة المرابطات ، وافرد يزيد بن الحباب في اصحابه فخرجوا وكان المهدي وجه لتجهيزهم ابا القاسم محرز بن ابراهيم فمضوا بوجههم حتى اتوا مدينة باربد من بلاد الهند في سنة ١٦٠ فناهضوها بعد قدومهم بيوم واقاموا عليها يومين فنصبوا المنجنيق وناهضوها بجميع الالة وتحاشد الناس وحضض بعضهم بعضا بالقرآن والتذكير ففتحها الله عليهم عنوة ودخلت خيلهم من كل ناحية حتى الجؤهم الى بدهم فاشعلوا فيها النيران والنفط فاحترق منهم من احترق وجاهد بعض المسلمين فقتلهم الله اجمعين . واستشهد من المسلمين بضعة وعشرون رجلا — وافاءها الله عليهم ، وهاج البحر فلم يقدروا على ركوبه والانصراف فاقاموا الى ان يطيب فاصابهم في افواههم داء يقال له حمام قر فمات نحو من الف رجل منهم الربيع بن صبيح ثم انصرفوا لما امكنهم الانصراف حتى بلغوا ساحلا من فارس يقال له بحر حمران فعصفت عليهم فيه الريح ليلا فكسرت عامة مراكبهم فغرق منهم بعض ونجى بعض وقدموا معهم — بسبي من سبيهم فيهم بنت ملك باربد ٢ وبذلك انتهت هذه الغزوة الموفقة من الناحية الحربية والفاشلة من حيث النتيجة اذ ان معظم المراكب والعسكر فقدت اما بما انتابها

---

١ — فتوح البلدان ص ٤٤٩ / ٢ — الطبري ج ٩ الجملة الثالثة ص ٤٦٠ — ٤٧٧ .

من الغرق او بما اصيبت به من المرض ورجعت البقية الباقية سالمة .

وفي سنة ١٥٩ هـ في زمن المهدي ايضا وقع حريق في السفن ببغداد عند قصر عيسى بن علي فاحترق ناس كثير واحترقت السفن بما فيها ١ وفي سنة ١٦٠ غزا الغمر بن العباس الخثعمي بحر الشام ٢ .

وفي زمن المتوكل (٢٣٢ — ٢٤٧ هـ) نزل الروم على دمياط سنة ٢٣٨ هـ وقتلوا بها جمعا كثيرا من المسلمين وسبوا النساء والاطفال ومضوا الى تنيس فاقاموا باشتومها وكان امير مصر يومئذ عنبسة بن اسحاق فوقع الاهتمام في ذلك الحين بامر الاسطول ٣ في مصر كما انه رتبت المراكب في ساحل الشام وشحنت بالمقاتلة والجند ٤ . وقد ساعدت المراكب سنة ٢٤١ هـ الجيش الذي ذهب لحرب البجه بقيادة محمد بن عبد الله القمي الذي حمل الكثير الميرة في بحر قلزم في سبعة مراكب موقورة بالدقيق والزيت والتمر والشعير والسويق واستعان بهذه الميرة على تقوية جيشه وقهر البجويين وقتل ملكهم ٥

وفي سنة ٢٤٦ غزا الفضل بن قارن الروم بحرا وكان على الساطيل الخليفة المتوكل ٦

وفي عهد خلافة المعتضد (٢٧٩ — ٢٨٩ هـ) احضر سنة ٢٨٧ رؤساء طرسوس فقبض عليهم لانهم كانوا وصيفا الذي شق عن الخلافة وامر باحراق مراكب طرسوس وجميع الاتها وكان من جملتها نحو من خمسين مركبا قديمة قد انفق عليها من الاموال مالا يحصى ولا يمكن عمل مثلها ، فاضر ذلك بالمسلمين وفت في عضدهم وجعل للروم سلطة عليهم . وكان احراقها باشارة دميانه غلام بازمار لشيء كان في نفسه على اهل طرسوس ٧ .

وكمثال للمنازعات بين العباسيين والفاطميين اذكر ماحدث من محاولات العبيديين في الاستيلاء على مصر زمن الخليفة المقتدر (٢٩٥ — ٣٢٠ هـ) وذلك ان ابا محمد عبيد الله العلوي الملقب بالمهدي ارسل سنة ٣٠٢ جيشا من افريقية مع قائد من قواده يقال له حباسة الى الاسكندرية فغلب عليها وكان مسيره في البحر . ثم سار منها الى مصر فنزل بين مصر والاسكندرية فبلغ ذلك المقتدر فارسل مؤنسا الخادم في عسكر الى مصر لمحاربة حباسة وامده بالسلاح والمال فسار اليها فالتقى العسكران واقتتلوا اشد

---

١ — الطبري الجملة الثالثة ج ٩ ص ٤٦٦ / ٢ — نفس المصدر ص ٤٧٢ / ٣ — الخطط ج ٢ ص ١٩
٤ — فتوح البلدان ص ١١٨ / ٥ — نفس المصدر ص ٢٤٧ والكامل ج ٧ ص ٢٧ / ٦ — المقتطف ج ٨ سنة ١٨٨٩ م ص ٤٠٦ / ٧ — الكامل ج ٧ ص ١٧٢ .

قتال وسقط من الفريقين جمع كثير وجرح مثلهم ثم كان بينهم وقعة اخرى بنحوها ، ثم وقعة ثالثة ورابعة فانهزم فيها المغاربة اصحاب العلوى وقتلوا واسروا فكان مبلغ القتلى سبعة الاف مع الاسرى وهرب الباقون وعادوا الى الغرب . فلما وصلوا الى عبيد الله المهدى قتل حباسة جزء فشله ١ .

وفي سنة ٣٠٦ هـ قام المهدى بمحاولة ثانية للاستيلاء على مصر فجهز جيشا كثيفا مع ابنه ابي القاسم وسيرهم الى مصر فوصل الى الاسكندرية فخرج عامل المقتدر عنها ودخلها القائم ورحل الى مصر فدخل الجيزه وملك الاشمونين وكثيرا من الصعيد وكتب الى اهل مكة يدعوهم الى الدخول في طاعته فلم يتقبلوا منه ووردت بذلك الاخبار الى بغداد فبعث المقتدر بالله مؤنسا الخادم وجد في السير فوصل الى مصر وكان بينه وبين القائم عدة وقعات ، ووصل من افريقية ثمانون مركبا نجدة للقائم فارست بالاسكندرية وعليها سليمان الخادم ويعقوب الكتامي وكانا شجاعين . فامر المقتدر بالله ان يسير مراكب طرسوس اليهم فسار خمسة وعشرون مركبا وفيهم النفط والعدد ومقدمها ابو اليمن فالتقت المراكب بالمراكب واقتتلوا على رشيد فظفر اصحاب مراكب المقتدر واحرقوا كثيرا من مراكب افريقية وهلك اكثر اهلها واسر منهم كثيرا ، وفي الاسرى سليمان الخادم ويعقوب فقتل من الاسرى كثير واطلق كثير ، ومات سليمان بالحبس في مصر وحمل يعقوب الى — بغداد وما عسكر القائم فكان بينه وبين المؤنس وقعات كثيرة وكان الظفر لمونس فلقب حينئذ بالمظفر ووقع الوباء في عسكر القائم فمات منهم كثير من الناس والخيل فعاد من سلم الى افريقية وتتبعهم عسكر مصر ٢ . هاتان المعركتان تدلان على تفوق الاسطول العباسي على اسطول الفاطميين بالرغم من وفرة مراكبهم وقلة مراكب العباسيين . وقد كان الظفر حليف بني العباس لمهارة البحارة الشاميين الذين كانوا يعملون بالاسطول العباسي . والى خبرة القائد مونس الخادم الذى كان يعمل في الاسطول العباسي وهو يعتبر من كبار قوادهم . وفي نفس السنة ٣٠٦ هـ غزى القائد ثمل في بحر الروم فغنم وسبى وعاد . وفي هذه السنة ايضا دخل جني الصفواني بلاد الروم فنهب وخرب واحرق وفتح وعاد فقرئت الكتب على المنابر ببغداد بذلك ٣ . وكانت هذه

١ـ الكامل ج ٨ ص ٣١ المختصر ج ٢ ص ٦٨ / ٢ـ الكامل ج ٨ ص ٣٩ والمختصر ج ٢ ص ٦٦ والخطط ج ١ ص ١٧٤ / ٣ـ الكامل ج ٨ ص ٣٩ .

عادة الخلفاء العباسيين ان يعلنوا خبر انتصاراتهم للعامة في المساجد وقد كانت البحرية في زمن المكتفي والمقتدر في اشد قوتها — اذ ان لا ميز يقول " واستطاع العباسيون منذ اوائل القرن الرابع ان يحافظوا على حدودهم الغربية من اعتداء البيزنطيين وكانت اخبار الانتصارات تقرأ من على المنبر ببغداد وفي عام ٢٩٢ هـ ٩٠٤ م اخذ فرسان المسلمين مدينة سالونيقي ثانية مدن الدولة البيزنطية وهي مدينة كبيرة محصنة باسوار وحصون وابراج واسروا من اهلها اثنين وعشرين الفا " ١ ٠

الا ان الاضطرابات الداخلية مالبثت ان شبت في جسم الدولة العباسية واخذت الولايات تثور على الخلافة في بغداد وضعف شأن الاسطول ٠ ومن امثال هذه الثورات الداخلية والتي لها علاقة بالامور البحرية ماحدث في زمن المتقي (٣٢٩ — ٣٣٣ هـ) يقول ابن الاثير في حوادث سنة ٣٣١ هـ " سار يوسف بن وجيه صاحب عمان في مراكب كثيرة يريد البصرة وحارب البريدى فملك الابلة وقوى قوة عظيمة وقارب ان يملك البصرة فاشرف البريدى واخوته على الهلاك وكان له ملاح يعرف بالرنادى فضمن للبريدى هزيمة يوسف ٠ فوعده الاحسان العظيم واخذ الملاح زورقين فملاهما سعفا يابسا ،ولم يعلم به احد ، وحدرهما في الليل حتى قارب الابلة وكانت مراكب ابن وجيه تشد بعضها الى بعض في الليل فتصير كالجسر ، فلما انتصف الليل اشعل ذلك الملاح النار في السعف الذى في الزورقين وارسلهما مع الجزر والنار فيهما ، فاقبلا اسرع من الريح فوقعا في تلك السفن والمراكب فاشتعلت واحترقت قلوسها واحترق من فيها ،ونهب الناس منها مالا عظيما ،ومضى يوسف بن وجيه هاربا في المحرم سنة اثنين وثلاثين وثلثمائة واحسن البريدى الى ذلك الملاح " ٢

وفي سنة ٣٤١ عاد يوسف بن وجيه مجددا للاستيلاء على البصرة وسار من عمان في البحر والبر حتى وصل البصرة فحصرها ، فبلغ الخبر الى الوزير المهلبي فسار من الاهواز مجدا في العساكر الى البصرة ،فدخلها قبل وصول يوسف اليها وشحنها بالرجال ٠ وامده معز الدولة بالعساكر وما يحتاج اليه ، وتحارب هو وابن وجيه اياما ٠ ثم هزمه وظفر المهلبي بمراكبه وما معه من سلاح وغيره ٣ ٠

---

١ — الحضارة الاسلامية ج ١ ص ٦ / ٢ — الكامل ج ٨ ص ١٤١ / ٣ — نفس المصدر ج ٨ ص ١٧٩ ٠

وهكذا انشغل المسلمون في ايام الخلفاء العباسيين في محاربة بعضهم بعضا — والتهوا عن محاربة الروم والصليبيين وغيرهم من اعدائهم المهاجمين لبلادهم ٠ وكانت هذه الحروب التي تجرى فيما بينهم غايتها الاستيلاء على مقاطعة او مدينة واضافتها لحكمهم كما جرى مثلا للامير اسمعيل صاحب البصرة سنة ٤٩٥ هـ من طمعه بالاستيلاء على واسط وتجهيز عسكره في السفن وارتداده خائبا عنها ١ ٠

وامثال هذه الحوادث تدل على ضعف الدولة وانحلال اجزائها ٠ الا ان الدويلات التي قامت حول البحر المتوسط في سوريا ومصر وشمال افريقية والاندلس قد قامت مقام الخلافة العباسيه التي شاخت في آخر حياتها وتفسخت في داخلها ٠ وسأتكلم عن اهم هذه الدول التي انشقت عن الخلافة العباسية وانشات قوة بحرية لنفسها ٠

الفصل الرابع

غزوات الاسطول في زمن الفاطميين

ان قيام الدويلات المستقلة وانشقاقها عن الخلافة العباسية وتأسيسها ملكا حول حوض البحر الرومي كان من نتائجه سيطرة هذه الدويلات على هذا البحر وجزره وغزو بلاد الاعداء في قعر دارهم ، ومنع سفنهم من ان تجوز هذا البحر دون استئذانهم يقول ابن خلدون " وكان المسلمون لعهد الدولة الاسلامية قد غلبوا على هذا البحر من جميع جوانبه وعظمت صولتهم وسلطانهم فيه ، فلم يكن للامم النصرانية قبل باساطيلهم بشيء من جوانبه وامتطوا ظهره للفتح سائر ايامهم فكانت لهم المقامات المعلومة من الفتح والغنائم ، وملكوا سائر الجزائر المنقطعة عن السواحل فيه مثل ميورقه ومنورقه ويابسه وسردانيا وصقليه وقوصره ومالطه واقريطش وقبرص وسائر ممالك الروم والافرنج ٠٠٠ والمسلمون خلال ذلك كله قد تغلبوا على كثير من لجة هذا البحر وسارت اساطيلهم فيه جائية وذاهبة والعساكر الاسلامية تجيز البحر في الاساطيل من صقلية الى البر الكبير المقابل لها من العدوة الشمالية فتوقع بملوك الافرنج وتثخن في ممالكهم ، كما وقع في ايام بني الحسين ملوك صقلية القائمين فيها بدعوة العبيديين وانحازت امم النصرانية ٠ وجزائر الرومانية لايعدونها واساطيل المسلمين قد ضريت عليهم ضراء الاسد على فريسته

١ـ الكامل ج ١٠ ص ١٢٧ ٠

وقد ملات الاكثر من بسيط هذا البحر عدة وعددا واختلفت في طرقه سلما وحربا فلم تسبح للنصرانية فيه الواح " ١ . ويقول ميز " ولم يكن لاوربا سلطان على البحر الابيض خلال القرن العاشر الميلادى فقد كان بحرا عربيا ، وكان لابد لمن يريد ان يقضي لنفسه فيه امرا من ان يخطب ود العرب كما فعلت نابولي وفينه وامالفي " ٢

تلك شهادة من العلامة بن خلدون عن قوة الاسطول العربي وسيطرته على البحر المتوسط ، لاسيما في زمن العبيديين . ورأى لميز عن عظمة اسطول العرب في القرن العاشر اى القرن الذى بدا به الفاطميون حكمهم في شمال افريقية . ولنرى بصورة محسوسة اهم تلك الغزوات التي قام بها اسطول الفاطميين ايام حكمهم في المهدية ومصر .

ان معظم غزوات الفاطميين كانت موجهة لفتح جزر البحر المتوسط ولغزو اوربا ومن هذه الغزوات اذكر مايلي :

ارسل المهدى سنة ٣٢٢ هـ اسطولا بامرة يعقوب بن اسحق ففتح جنوه واكتسح سردانيا واحرق مراكب العدو وغزا جنوب فرانسه ٣ . وفي السنة التالية سنة ٣٢٣ زمن القائم العلوى اعاد الاسطول الفاطميين الكرة على مدينة جنوه ؟ واوقع باهل سردانية وعاد سالما ٤ .

وفي سنة ٣٤٤ هـ حصل خلاف بين عبد الرحمن الناصر الخليفة الاموى في الاندلس وبين المعز الخليفة الفاطمي . وكان سببه ان عبد الرحمن الناصر انشأ مركبا كبيرا وسير فيه بضائع لتباع في بلاد المشرق وليعتاض عنها بجوار ومغنيات . فلقي المركب الاندلسي مركبا فيه رسول من صقلية آتيا بمكاتبات للمعز العلوى وكانت صقلية بيد الفاطميين فقطع جماعة المركب الاندلسي على رسول المعز الطريق واخذوه بما معه . فبلغ ذلك المعز فجهز اسطولا الى الاندلس واستعمل عليه الحسن بن علي عامله على صقلية فوصل الى المرية واحرق جميع مافي مينائها من المراكب واخذ المركب الكبير السابق بعد عودته من الاسكندرية . وصعد جماعة اسطول المعز الى البر فقتلوا ونهبوا ورجعوا سالمين الى المهدية . ولما علم عبد الرحمن بذلك جهز اسطولا لبلاد افريقية فوصل اليهـا

١ـ المقدمة ص٢١٢ / ٢ـ الحضارة الاسلامية ج ٢ ص ٣٦٦ / ٣ـ المقتطف ج ٨ سنة ١٨٨٩ ص٥٠٧ وتاريخ العرب ص٦١٨ / ٤ـ المقدمة ص٢٢٢ والمختصر ٢ص٢٨٣

فقصدهم عسكر المعز فرجعوا الى الاندلس بعد قتال جرى بينهم ١ .

وعلى اثر ذلك قامت المهاجات الكتابية بعد هذا النزاع الحربي بين الخليفة عبد الرحمن الاموى وبين العزيز الذى خلف والده في هذا النزاع فكتب الخليفة الفاطمي العزيز كتابا يهجو فيه عبد الرحمن ويعيب عليه نزاعه للفاطميين . فارسل ذلك الخليفة الاموى جوابا على كتاب العزيز يقول فيه " عرفتنا فهجوتنا ولو عرفناك لاجبناك " ٢ وبذلك ينكر نسب الفاطميين الى السيده فاطمه ذلك النسب المشكوك في صحته . والذى كان موضع بحث ونقاش في تلك الايام .

وقد كان لاسطول الفاطميين في شرقي البحر الرومي اعمالا لاتقل عن اعماله في غربه فقد استولى الفاطميون على ساحب بلاد الشام وسقطت اكثر موانى السواحل بيدهم يقول حتي " وقد استولى اسطول الفاطميين القوى سنة ١٠٨٩ م على جميع مدن الشاطيء السورى فاخذ عسقلان وعكا وصور حتى وصل الى جبيل في الشمال" ٣

ولما جاء الصليبيون لغزو بلاد سورية قام الفاطميون لصدهم ٤ وكان لاسطولهم اكبر الاثر بمساعدة المدن الساحلية بالمبرة والزخيرة يقول ابو الفداء في حوادث سنة ٥٠٢ " ملك الفرنج مدينة طرابلس بانهم ساروا اليها من كل جهة وحصروها في البر والبحر وضايقوها من اول رمضان وكانت في يد نواب خليفة مصر العلوى وارسل اليها خليفة مصر اسطولا فرده الهواء ولم يقدر على الوصول الى مدينة طرابلس ليقضي الله امرا كان مفعولا وملكوها بالسيف" ٥ وبعد اخذ طرابلس بثمانية ايام تمكن اسطول الفاطميين من الوصول اليها ولكنه وصل متأخرا ، فارسى بساحل صور وفرقت الغلال في جهاتها في صور وصيداء وبيروت ٦

ولما دبّ الضعف في جسم الدولة الفاطمية ضعف اسطولهم لان الاسطول كان يقوى ويضعف بحسب قوة الدولة وحيويتها داخليا . ومنذ ذلك الوقت نجد سيطرة الفرنج على شرق البحر الرومي وعلى مدن الساحل السورى والمصرى . فاخذت موانى الشام تسقط واحدة تلو الاخرى ، وليس هناك اسطول قوى يحميها ويدب غارات الصليبيين

١ــ المختصر ٢ ص ١٠٠ / ٢ــ الثعالبي ج ١ ص ٢٢٤ / ٣ــ تاريخ العرب ص ٦٣٥

٤ــ نفس المصدر ص ٦٣٩ وخطط الشام ٥ ص ٤١ / ٥ــ المختصر ج ٢ ص ٢٢٤ / ٦ــ العبر ج ٥ ص ١٩٣ .

عنها . يقول ابن خلدون في ذلك " حتى اذا ادرك الدولة العبيدية الفشل والوهن وطرقها الاعتلال ، مد النصارى ايديهم الى جزائر البحر الشرقية مثل صقلية واقريطش ومالطه ، فملكوها ثم الحوا على سواحل الشام في تلك الفترة وملكوا طرابلس وعسقلان وصور وعكا واستولوا على جميع الثغور بسواحل الشام وغلبوا على بيت المقدس وبنوا عليها كنيسة لاظهار دينهم وعبادتهم وغلبوا بني حزرون على طرابلس ثم على قابس وصفاقس ووضعوا عليها الجزية ثم ملكوا المهدية مقر ملوك العبيديين من يد اعقاب بلكين ابن زيرى وكانت لهم في المائة الخامسة الكرة بهذا البحر وضعف شأن الاساطيل في دولة مصر والشام الى ان انقطع ولم يعتنا بشيء من امره لهذا العهد بعد ان كانت لهم به في الدولة العبيدية عناية تجاوزت الحد كما هو معروف في اخبارهم فبطل رسم هذه الوظيفة هنالك وبقيت بافريقية والمغرب فصارت مختصة بها ... " ١

هكذا علا شأن اسطول الفاطميين وسما نجمه في الافاق فاخضعوا من جاورهم من الامم لحكمهم . ثم هوى ذاك النجم اللامع وخبد بريقه واضمحل ذاك الاسطول الذى كان عمدة الفاطميين في اعمالهم الحربية . ولنرى ما قامت به الدولة الزيرية من الاعمال الحربية البحرية .

الفصل الخامس

غزوات الاسطول ايام الدولة الزيرية

حكمت الدولة الزيرية في تونس وشمالي افريقيا مابين سنة (٣٦٢ — ٥٤٣ هـ) وقد اهتمت بامر الاساطيل والغزو فيها في الجزر وفي بلاد اوربا . واشهر حاكم قام فيها بالغزو بالبحر هو يحي بن تميم (٥٠١ — ٥٠٩ هـ) قام بغزوات هامة مثل بها ريعان الدولة الزيرية ونشاطها واعلى مابلغته من الحيوية في السنين التي حكمتها يقول ابن خلدون عنه " وكان قد صرف همه الى غزو النصارى والاساطيل البحرية ، فاستكثر منها واستبلغ في اقتنائها وردد البعوث الى دار الحرب فيها حتى لقبته امم النصرانية بالجرى من وراء البحر من بلاد افريقية وجنوه وسردانية وكان له في ذلك آلآثار ظاهرة غزيرة وهلك فجأة في قصره سنة تسع وخمسمائة " ٢ .

---

١ — المقدمة ×العبر ج ١ ص ٢١٢ / ٢ — نفس المصدر ج ٦ ص ١٦٠ .

وبعد وفاته دخلت هذه الدولة في سلسلة من المنازعات بينها وبين جيرانها من الدويلات الحاكمة في شمالي افريقية . وكانت هذه المنازعات دليلا على انحلال قوى الاسلام في البحر الرومي وفي الساحل الافريقي . اذ ان هذه الخصومات بين حكام المدن الافريقية جرتهم الى الالتجاء الى الاعداء من الحكام النصارى في صقلية — وكانت قد وقعت في ايدي الفرنج — وطلب المعونة على اخوانهم من المسلمين مما حدا باولئك الاعداء الى تقوية الخلاف بينهم واثارة المنازعات وتهييج العداوات بين حكام المدن الافريقية ثم البطش بهم اخيرا والقضاء على حكمهم والسيطرة على اراضيهم . ومن نماذج هذا العداء بين حكام شمال افريقية ماوقع بين علي بن يحي (٥٠٩ — ٥١٥ هـ) صاحب افريقية وبين رافع بن مكن الدهماني صاحب مدينة قابس . جهز الاول اسطولا في البحر للقضاء على حكم رافع من قابس وكان سبب ذلك ماديا تجاريا اذ ان رافع انشأ مركبا بساحله ليحمل التجار في البحر ، فاعترضه علي وانف ان يكون هذا المورد لغيره وقال (لايكون لاحد من اهل افريقية ان يناويني في اجراء المراكب في البحر بالتجار " ١ فخاف رافع من ان ينقطع عنه ذاك المورد الوافي فالتجأ الى رجار صاحب لا صقلية واعتضد به وطلب مساعدته وكانت فرصة حسنة لرجار يترقبها بفارغ الصبر فجهز اسطولا الى قابس وأجتاز بالمهدية ليرى علي بن يحي قوته ، فهب علي من وقته واخرج اسطوله في اثره فتوافى الجميع الى قابس فلما رأى قائد اسطول صقلية قوة اسطول علي بن يحي وعدم خروج صاحب قابس للاشتراك مع الاسطول الصقلي — انسحب عن المدينة مرتدا خائبا عما امله وحلم به من الاستيلاء على قابس فضيق اسطول علي ابن يحي على المدينة ثم ارتد عنها الى المهدية دون ان يفتحها ٢ .

ومنذ ذاك الحين تأكد علي بن يحي عداء رجار صاحب صقلية له بالرغم مما كان بينهما من الاتفاقات والعهود وانجلت حقيقة رجار تلك الحقيقة التي كان يداهن بها . فحذر علي بن يحي من الافرنج وهب لتقوية اسطوله وتجديده واعداد العدة للقائه وكاتب المرابطين بمراكش للاتفاق معه على الدخول الى صقلية والقضاء على حكم الافرنج منها واعادتها للعرب . عندها شعر رجار بالخطر وكف عما كان يتعمده ٣ .

١ـ الكامل ج ١٠ ص ٢٠٠ / ٢ـ نفس المصدر ج ١٠ ص ٢٠٠ / ٣ـ نفس المصدر ج ١٠ ص ٢٠٠ .

وفي سنة ٥٤٢ هـ جرى في قابس حادث كان له اسوأ التأثير على الدولة — الزيرية وكان له صلة في القضاء عليها . اذ ان رشيد صاحب قابس توفي في هذه السنة وخلف اولادا ومولى له اسمه يوسف فعمد هذا المولى الى محمد وهو اصغر اولاد حاكم مدينة قابس المتوفي وولاه الحكم واخرج ولده الكبير معمر من البلاد ليستبد بنفسه في الحكم وليزيل تلك العقبة الكؤود من وجهه وفي الحقيقة فانه حكم على محمد لصغر سنه وقام باعمال دنيئة من التعرض الى حرم يده ومن جملتهن امرأة من بني قرة فهب اخوتها للثأر من يوسف وقصدوا مع معمر الذي سلب من حقه في حكم البلاد الى الحسن بن علي صاحب افريقية وشكوا اليه امر يوسف . فكاتبه الحسن في ذلك ونهاه عما يفعله فلم يجبه وقال " لئن لم يكف الحسن عني وا سلمت قابس الى صاحب صقلية " ١ فجهز الحسن العسكر اليه ليؤدبه فلما سمع يوسف بذلك ارسل الى رجار الفرنجي صاحب صقلية وبذل له الطاعة وقال له " اريد منك خلعة وعهدا بولاية قابس لاكون نائبا عنك كما فعلت مع بني مطروح اصحاب طرابلس فسير اليه رجار الخلعة والعهد فلبسهما وقرا العهد بمجمع الناس " ٢ وبذلك ادخل الضعف على بني قومه بطلب المساعدة من الاجنبي عدو امته ونبهه الى مايجرى من الخصومات في الشاطيء الافريقي وشجعه للاستيلاء عليه فيما بعد . فلما علم الحسن بما فعل يوسف جد في المسير الى قابس وحاصرها واستولى عليها في مساعدة اهلها الذين غاضهم مافعله المولى يوسف ، واخذ يوسف هذا اسيرا وتولى عذابه معمر بن رشيد وبنو قرة جزاء على نكثه بوعود سيده واستبداده بالحكم وخيانته لبني قومه والتجائه الى اعدائه . وبذلك قضي على تلك الفتنة التي اثارها يوسف . الا ان حادثا لم يكن بالحسبان جرى للحسن واهل قابس وهو التجاء ابن يوسف واخوه عيسى الى رجار صاحب صقلية واستجارتهم به وشكواهم اليه بما لقوا من الحسن وبطشه بيوسف وعزله عن ولاية الحكم التي اولاه اياها رجار . فاغتنم رجار هذه الفرصة وعمر اسطولا واكثر من المراكب حتى بلغ مائتين وخمسين شينيا مملوءة رجالا وسلاحا وقوة وسار نحو المهدية ففتحها واخرج منها الحسن بن علي وقضى على الدولة الزيرية ٣ .

١ـ الكامل ج ١١ ص ٤٩ / ٢ـ نفس المصدر ج ١١ ص ٤٩ / ٣ـ نفس المصدر ج ١١ ص ٥١ .

هكذا كانت خاتمة الدولة الزيرية التي كان لها جولة في البحر الرومي زمن قوة اسطولها ونشاطه . والتي ذهبت ضحية المنازعات الداخلية وغدر بعض الافراد الذين يخونون بني جلدتهم بالالتجاء الى عنصر عدو لهم وغريب عنهم .

الفصل السادس
غزوات الاسطول الاندلسي

قلنا ان فتح الاندلس كان سنة ٩٢ هـ زمن الوليد بن عبد الملك الخليفة الاموي في الشام . على يد عامله على افريقية موسى بن النصير ومولاه طارق بن زياد . وقد اهتم الاندلسيون بامر الاساطيل اهتماما زائدا ليوسعوا نفوذهم في بحر الروم وليحموا ثغور بلادهم من هجمات المجوس ١ الذين كانوا يطرقون بلادهم بين الفينة والفينة ويوقعون باهل السواحل الاضرار والخسائر يقول المسعودي " وقد كان قبل الثلاثمائة ورد الى الاندلس مراكب في البحر فيها الوف من الناس اغارت على سواحلهم ، زعم اهل الاندلس انهم ناس من المجوس تطرأ اليهم في هذا البحر في كل مائتين من السنين " ٢ . ان تعدد هجمات المجوس على سواحل بلاد الاندلس حدت بالمسعودي الى ان يجعل مجيئهم منتظما في كل مائتين من السنين . وفيما يلي ساعدد اهم غارات اولئك المجوس على بلاد الاندلس .

خرجت المجوس سنة ٢٣٠ هـ في شواطيء الاندلس الجنوبية زمن حكم عبد الرحمن الثاني (٢٠٦ — ٢٣٨ هـ) وجرى بينهم وبين المسلمين عدة وقائع انهزم فيها المسلمون ، وظلوا يقتلون بالمسلمين حتى وصلوا اشبيليه فوافتهم عساكر عبد الرحمن فغلبتهم واخذت منهم اربعة مراكب بما فيها وهرب البقية الى بلادهم ٣ .

وفي سنة ٢٤٦ هـ جاء المجوس بمراكبهم الى شبه جزيرة الخضراء واحرقوا المسجد الجامع هناك واصابوا من النهب والسلب شيئا كثيرا وكان محمد بن عبد الرحمن الاموي

١ـ كان العرب يطلقون هذا الاسم على قرصان البحر الاسكندناويين الذين كانوا يعرفون في انكلترا باسم اهل الشمال Northmen وفي فرانسه بالنورمان . كل هؤلاء كان العرب يسمونه المجوس . تاريخ العرب ص ٥٢٠ / ٢ـ مروج ج ١ ص ١٣٧ / ٣ـ المختصر ج ٢ ص ٣٦ .

(٢٣٨ — ٢٧٣ هـ) على بلاد الاندلس فارسل لهم الاسطول فلقيهم واحرق مركبين من مراكبهم واخذ مركبين آخرين وغنم مافيهما فحمي المجوس عند ذلك وجدوا في القتال فاستشهد جماعة كثيرة من المسلمين وهرب المجوس لبلادهم ١ .

وفي زمن هذا الامير الاموى نزل غزاة العرب الى بروفانس بموقع يدعى Camargna سنة ٢٥٦ هـ و Camargna جزيرة في نهر الرون في فرانسه . وهناك يوجد املاك لاحد المطارنه العظام وصدف ان ذاك المطران كان موجود يتعهد مزارعه عند نزول العرب ذاك الشاطيء فقبض عليه الغزاة العرب وقتلوا كثيرا من رجاله وساقوه الى احد مراكبهم ، فطلب المسيحيون فكاكه بالفدية وجمعوا لذلك المال ، ولكن المطران مات اثناء جمع الفدية من الرعب ، فسكت المسلمون عن امره حتى قبضوا الفدية وسلموه ميتا ٢ .

وفي السنة التالية ٢٦٦ هـ امر الامير محمد بانشاء المراكب بنهر قرطبة كي يسير بها الى المحيط فياتي جليقية من ورائها . وعندما تم انشاء هذه المراكب سارت الى البحر ولكن ريحا شديدة هبت عليها فشتتت شملها واغرقت اكثرها ولم ينج منها الا النذر اليسير وضاع ذاك الحكم الذى كان يطمع به الامير محمد وهوالاستيلاء على ذاك القطر الشمالي من يد الجلالقة ٣ .

فقام الخليفة عبد الرحمن الناصر (٣٠٠ — ٣٥٠ هـ) سنة ٣٢٧ هـ لتنفيذ الخطة التي وضعها الامير محمد فنزل على جليقية وفتح سورين من اسوارها ولكن اهلها ثابوا على العرب وقتلوا منهم خلقا كثيرا ، واتحدوا مع الاشكندى واخذوا ماكان بايدى المسلمين من الثغور مما يلي الافرنجة واربونه وغيرها وذلك سنة ٣٣٠ هـ ولم يبق من ثغر للاسطول في شرق الاندلس الا ثغر طرطوشه على ساحل البحر الرومي ٤ وبذلك تحطمت امال الامويين في الاستيلاء على ذاك القطر الشمالي .

وفي سنة ٥٤٢ هـ استولى الفرنج على المرية اشهر ثغور الاندلس فلما ملك ابو سعيد غرناطه جمع جيوشه وسار الى المرية ووافاه الاسطول من سبته فحاصروا المدينة برا وبحرا واستعادوها من يد الفرنج ٥ .

---

١ — الكامل ج ٧ ص ٣٠ والروض ص ٧٥ والعبر ج ٤ ص ١٣٠ / ٢ — تاريخ الغزوات لارسلان ص ١٥٨ / ٣ — العبر ج ٤ ص ١٣١ / ٤ — مروج ج ١ ص ٣٦٣ / ٥ — الكامل ج ١١ ص ١٤٧

وقد كان اسطول الاندلس قويا ايام قوة الدولة وتوحدها وكان هو الغالب على غرب بحر الروم . فلما انقسمت الدولة الى طوائف ودول متعددة ضعف شأن الاسطول وقلت اهميته حتى صار المسلمون يستعينون على بعضهم بالفرنج من جيرانهم بتغلب على ابناء ملتهم كما حدث سنة ٥٨٥ هـ من قصد ابن الريق مدينة شلب من مدن الاندلس والاستعانة بمراكب الفرنج على ان يكون لهم السبي . فحاصر المدينةواستولى عليها واعطى ماغنمه منها للفرنج ١ وبذلك قام باسوأ عمل نحو بني جنسه وملته وترك للافرنج اعداءه ان يتسلطوا على قومه ويطردوهم فيما بعد من اعز موطن عرفوه وهو (الفردوس المفقود) .

الفصل السابع
غزوات الاسطول في زمن الايوبيين

لعب الاسطول ايام الايوبيين دورا هاما في الدفاع عن هذه البلاد امام غارات الصليبيين الذين استولوا على سواحل الشام وملكوا بيت المقدس في اواخر الدولة الفاطمية ٢ فلما استولى السلطان صلاح الدين (٥٦٤ ــ ٥٨٩ هـ) على زمام الحكم اهتم بمحاربة الصليبين واخذ على عاتقه طردهم من هذه البلاد ، فرأى بثاقب نظره ضرورة وجود اسطول بحرى ليساعده في انفاذ هذه الخطة العظيمة . فارسل سنة ٥٨٥ هـ عبد الكريم بن منقذ ابن اخي البطل الشهير اسامة بن منقذ الى ابي يعقوب المنصور سلطان الموحدين يستمدة المعونة بانفاذ اسطول بحري ليمنع به مجيء الصليبيين في البحر لساحل بلاد الشام وامداد اخوانهم الذين يحاربون في هذه البلاد ، وبعث صحبته هدية ثمينة تشتمل على مصحفين كريمين منسوبين ، ومائة درهم من دهن البلسان وعشرين رطلا من العود وستمائة مثقال من المسك والعنبر وخمسين وقدلا قوسا عربية باوتارها وعشرين من النصول الهندية وسروج عدة ثقيلة ٣ وانفذ معه كتابا انشأه الفاضل البيساني يقول في افتتاحه " فتح الله لسيدنا ابواب المناجح والميامن .... " ٤ ويدعوه بامير المسلمين عوضا عن امير المومنين لان السلطان

١ــ المعجب ص ٢٠٣ / ٢ــ العبر ج ٦ ص ٢٤٦ / ٣ــ نفس المصدر ج ٦ ص ٢٤٦

٤ــ المقدمة ص ٢١٣ .

صلاح الدين كان اميل الى اتباع العباسيين منه الى اتباع اى فئة اخرى فغضب المنصور من ذلك ولم يجب السلطان صلاح الدين الى طلبه ١ ويقال انه جهز له بعد ذلك مائة وثمانين مركبا وساعده في منع الصليبيين من سواحل الشام ٢ .

ومهما يكن الامر فان السلطان صلاح الدين اعد [illegible] ديوانا في مصر للاسطول واهتم بانشاء المراكب وخصص له موردا كبيرا كما مر معنا . واعتمد على نفسه في انشاء اسطول يستطيع به الوقوف في وجه الصليبيين . واستطاع بذلك الاسطول الذى انشاه ان يقوم باعمال جبارة في قتال الفرنج وامداد المدن المحصورة وغير ذلك من الاعمال التي ساوردها فيما يلي :

في سنة ٥٧٨ هـ عمل البرنس رينو صاحب الكرك Reginald de Châtillion اسطولا في الكرك ثم حمل قطعه على جمال العرب المجاورين الى بحر القلزم ثم سمرها واكمل انشاءها وتأليفها وقذفها في البحر وشحنها بالمقاتلة وسيرها فرقتين فرقة اقامت على حصن ايله تحصنها وتمنع اهلها من ورود الماء لتستولي عليها . وفرقة سارت الى عيذاب تقطع على الحجاج الطريق وتنهب وتخرب في السواحل . وقد انتهوا الى بحر النعم فاحرقوا فيه نحو ستة عشر مركبا واخذوا مركبا من عيذاب كان ينقل الحجاج مابين عيذاب وجده واخذوا ايضا في البر قافلة كبيرة آتية من قوص الى عيذاب ، وقتلوا الجميع واخذوا مركبين كانا مقبلين بتجار من اليمن واحرقوا اطعمة كثيرة على ذلك الساحل كانت معدة لميرة مكة والمدينة . واحدثوا حوادث شنيعة لم يسمع مثلها في الاسلام [illegible] ومنها حادثة تسد المسامع شناعة وبشاعة وذلك انهم كانوا عازمين على دخول مدينة الرسول واخراجه من الضريح المقدس ٣ . فشاع الخبر حتى وصل لمصر وكان عليها الملك العادل اخو السلطان صلاح الدين فعمر اسطولا وشحنه بكثير من المسلمين على رأسهم البطل العظيم حسام الدين لؤلؤ الحاجب وهو متولي الاسطول بديار مصر وكان معروفا بجده ونشاطه وخبرته في الامور البحرية . فسار لؤلؤ في طلبهم وابتدا بالذين على آيلة فانقض عليهم انقضاض العقاب على صيده فقاتلهم قتال الابطال وقتل بعضهم واسر الاخرين وسار من وقته بعد ظفره يقص اثر الباقين الذين

١ـ المقدمة ص ٢١٣ / ٢ـ العبر ج ٦ ص ٢٤٦ وابن خلكان ج ٣ ص ٣٨١ /

٣ـ رحلة ابن جبير ص ٢٨

قصدوا عيذاب فلم يلقهم فلا فسار يقفو اثرهم فبلغ ساحل الجوزاء فادركهم هناك واوقع بهم فلما شعروا بالهزيمة وشاهدوا الهلاك خرجوا الى البر واعتصموا ببعض تلك الشعاب فلحقهم لؤلؤ وقاتلهم اشد قتال واخذ خيلا من الاعراب هناك وقاتلهم عليها فرسانا ورجالة فظفر بهم وقتل اكثرهم واخذ الباقين اسرى وارسل بعضهم الى منى لينحروا بها عقوبة على تعديهم على حجاج حرم الله وعاد بالباقين الى مصر ١ وقد شاهد دخولهم مصر الرحالة الاندلسي ابن جبير ووصف لنا حالتهم فقال " وذلك انا حللنا الاسكندرية ... اولا عاينا مجتمعا من الناس عظيما بروز المعاينة اسرى من الروم ادخلوا البلد راكبين على الجمال ووجوههم الى اذنابها وحولهم الطبول والابواب ... " ٢ وقد اساء الفرنج بعملهم هذا الى المسلمين واثاروا حميتهم الدينية وتعرضوا لادق نقطة تثير عاطفتهم واحساسهم مما حدا بالسلطان صلاح الدين المعروف بحلمه وسعة صدره ان يحلف بان يقتل البرنس رينون اذا قبض عليه وقد ابر بقسمه يوم حطين وقتله بيده ٣ .

وفي السنة الثانية ٥٧٩ هـ سار اسطول الايوبيين من مصر فلقوا بطسة في البحر فيها نحو ثلاثمائة من الفرنج بالسلاح التام ومعهم الاموال والسلاح الى فرنج الساحل فقاتلوهم وصدر الفريقان وكان الظفر للمسلمين واخذوا الفرنج اسرى فقتلوا بعضهم وابقوا على البعض الاخر وغنموا مامعهم ورجعوا بهم الى مصر ٤ .

واعظم عمل قام به اسطول الايوبيين هو تموينه مرافيء ساحل بلاد الشام بالزخيره والاطعمة عند حصار الصليبيين لها . وبعث الامل في قلوب المحصورين للدفاع عن مدنهم ومقاومة الصليبيين . بما يقومون به من الاعمال الحربية من اصطدامهم مع مراكب الفرنج . ثم اشتراك الاسطول مع الجيش البري في فتح بعض المدن الساحلية التي وقعت بيد الفرنج .

ففي سنة ٥٨٤ هـ حاصر السلطان صلاح الدين ميناء صور وضايقها من جهة البر وقاتلها قتالا عظيما الا انه لم يستطع الاستيلاء عليها الا بعد استدعاء الاسطول من مصر ومحاصرته لها برا وبحرا ٥ .

١ـ الكامل ج ١١ ص ١٩٩ / ٢ـ رحلة ابن جبير ص ٢٨ / ٣ـ تاريخ العرب ص ٦٤٧
٤ـ الكامل ج ١١ ص ٢٠١ / ٥ـ سيرة صلاح الدين ص ٥٥ .

وقد قام رجال الاسطول بتضحيات عدة لمساعدة عكا عند حصار الفرنج لها سنة ٥٨٤ هـ من ذلك مايرويه بن شداد بقول " وكان الفرنج خذلهم الله قد اداروا مراكبهم حول عكا حراسة لها من ان يدخلها مراكب المسلمين وكانت قد اشتدت حاجة من فيها الى الطعام والميرة فركب في بسطة (بطسة) ببيروت جماعة من المسلمين وتزيوا بزى الفرنج حتى حلقوا لحاهم ووضعوا الخنازير على سطح البسطة بحيث ترى من بعد وطقوا الصلبان وجاءوا قاصدين البلد من البعد حتى خالطوا مراكب العدو فخرجوا اليهم واعترضوهم في الحراقات والشواني وقالوا لهم نراكم قاصدين البلد بعد ، فقالوا نحن نرد القلوع الى العسكر . وقد اتى بطسة اخرى في هوائنا فانذروهم حتى يدخلوا البلد وكان وراءهم بطسة افرنجية قد اتفقت معهم في البحر قاصدة العسكر فنظروا فرّوها فقصدوها ينذرونها ، فاشتدت البطسة الاسلامية في السير واستقامت لها الريح حتى دخلت ميناء البلد وسلمت ولله الحمد . وكان فرحا عظيما فان الحاجة كانت قد اخذت من اهل البلد " ١ ولم تكن جميع هذه المحاولات لامداد اهل عكا ناجحا فقد كان يغرق كثير من المراكب بما فيها من المسلمين او ان اصحاب هذه المراكب يغرقون سفنهم حتى لا يستولي عليها الاعداء ومثال ذلك مايذكره ابن شداد بقول " وكان مقدمهم رجلا جيدا شجاعا مجربا في الحرب فلما رأى امارات الغلبة عليهم وانهم لابد وان يقتلوا قال والله لانقتل الا عن عز ولا نسلم اليهم من هذه البطسة شيئا فوقفوا في البطسة من جوانبها بالمعاول فهدموها ولم يزالوا كذلك حتى فتحوها من كل جانب ابوابا فامتلات ماء فغرق جميع من فيها من الالات والميرة وغير ذلك ولم يظفر العدو منها بشيء وكان اسم المقدم المذكور يعقوب من رجال حلب . " ٢ .

هذه بطولة اظهرها العرب في القديم للدفاع عن بلادهم وعدم تمكين الاجنبي من الاستيلاء عليها وهي بطولة يجب ان نقدرها وننسج على منوالها . ولا يكفي بان نفتخر بها فحسب بل يجب العمل على اعادتها من جديد . لنخلق من كياننا المتفكك وحدة جديدة قوية .

١ـ سيرة صلاح الدين ص ٩٧ / ٢ـ نفس المصدر ص ٢٢١ والكامل ج ١٢ ص ٢٨

وقد كان الايوبيون يجهزون اسطولهم ويمدون اهل عكا بالرغم عن الفرنج كما حدث في هذه السنة نفسها ٥٨٤ هـ فان السلطان صلاح الدين امر بتعمير اسطول مصر ليمد اهل عكا بالميرة فلما سمع الفرنج بقدومه جهزوا لسطولا ليلقاه ويقاتله فركب السلطان صلاح الدين في العسكر جميعها وتعبى تعبئة القتال وقصد مضايقة العدو ليشغله عن قصد الاسطول ليتمكن من دخول عكا فلم يشتغلوا عن قصده بشيء وكان القتال بين الفريقين برا وبحرا يقول ابن شداد " وسار الناس على جانب البحر تقوية للاسطول وايناسا لرجاله والتقى الاسطولان في البحر والعسكران في البر واضطرمت نيران الحرب واستعرت وباع كل فريق روحه براحته الاخروية . ورجح حياته الابدية على حياته الدنيوية . وجرى بين الاسطولين قتال شديد انفشع عن نصرة الاسطول الاسلامي واخذ من العدو شواني وقتل من به ونهب جميع مافيه وظفر من العدو بمراكب ايضا كان واصلا من القسطنطينية ودخل الاسطول المنصور الى عكا . وكان قد صحبه مراكب من الساحل فيها ميرة وذخائر " ١ وعلى رأى ابن الاثير كان ذلك اليوم يوما مشهودا لم يؤرخ المؤرخون مثله ٢ مما سبق نستدل على ان اسطول الايوبيين كان في محاربته مع الصليبيين تارة ظافرا واخرى مهزوما حسب وفرة مراكب الصليبيين في ساحل بلاد الشام وقلتها . ولولم يعاجل الموت السلطان صلاح الدين لاستأصل شأفة الصليبيين من هذه البلاد ولغزاهم في بلادهم . فانه قال مرة لابن شداد " اما احكي لك شيئا في نفسي انه متى ما يسر الله تعالى فتح بقية السواحل قسمت البلاد واوصيت وودعت وركبت هذا البحر الى جزائرة واتبعتهم فيها حتى لا ابقي على وجه الارض من يكفر بالله او اموت " ٣ . فقد كانت فكرة الجهاد عقيدة راسخة في نفسه تدفعه لبذل كل مايملكه في سبيل الدفاع عنها . فهو مثال القائد البطل في جميع اقواله واعماله التي قام بها .

وبعد وفاته دخلت البلاد بمنازعات داخلية واستقل كل من اولاده واخيه بقطر من البلاد التي اخضعها السلطان صلاح الدين وانحلت عرى الوحدة بين هذه الاقطار المنفصل بعضها عن بعض ، فقويت بذلك شوكة الصليبيين وقاموا سنة ٦١٥هـ

١ـ سيرة صلاح الدين ص٨٦ / ٢ـ الكامل ج ١٢ ص٢٠ / ٣ـ سيرة صلاح الدين ص١٤

للاستيلاء على مصر فحاصروا دمياط ثغر تلك البلاد الحصين وتمكنوا من قطع سلاسل الحديد الممدودة في النيل وتمكنوا من ادخال مراكبهم فيه وحصار برج السلسلة الذى كان يحمي دمياط ، وتمكنوا من الاستيلاء عليه بعد دفاع عنيف قام به المسلمين ·
وكان الحاكم في مصر اذ ذاك الملك الكامل بن الملك العادل فهب للدفاع عن البلاد ونصب جسرا عظيما على النيل ليمنع مراكب الصليبيين من الدخول لمصر · ثم غرق عدة مراكب في النيل بعد ان اوثقها بالحجارة والرمال وبذلك عرقل تقدم الصليبيين من الدخول الى داخل البلاد · ثم استولى الافرنج على دمياط بعد حصار دام ستة عشر شهرا واثنين وعشرين يوما ١ فهلع قلب الكامل لذلك الخبر وارسل يستنجد الاشرف واخاه المعظم صاحب دمشق ونودى بالنفير العام في مصر ، فجاء الناس من مصر الى اسوان وجميع تلك النواحي فاجتمع في القاهرة عالم لا يقع عليه حصر ثم وصل الاشرف واجتمع بالكامل واستبشر المسلمون باجتماعهما واستقر الامر بينهما على التقدم الى خليج من النيل يعرف ببحر المحلة فسارت شواني المسلمين ومعها حراقة كبيرة الى بحر المحلة وعليها الامير بدر الدين حسون وقاتلوا شواني الفرنج وحاربوهم في البر والبحر فاخذوا منهم ست شواني وجلاسة وبطسة واسروا من الفرنج الفين ومائتين ثم ظفر المسلمون بثلاث قطع اخرى · فتضعضع الفرنج لذلك وضاق بهم المقام وانقطعت الميرة عنهم فبعثوا يطلبون الصلح · واخذت الرسل تتردد بينهم لتقرير قاعدة الصلح وبذل المسلمون لهم تسليم بيت المقدس وعسقلان وطبريا وصيدا وجبله واللاذقية وجميع مافتحه السلطان صلاح الدين ماعدا الكرك ليسلموا دمياط فلم يقبلوا بذلك وطلبوا ثلاثمائة الف دينار عوضا عن تخريب سور القدس ليعمروه بها فلم يتم بينهم امر وعاد القتال لما كان عليه من الشدة " يقول ابن الاثير " وكان الفرنج لاقتدارهم في نفوسهم لم يستصحبوا معهم مايقوتهم عدة ايام ظنا منهم ان العساكر الاسلامية لاتقوم لهم وان القرى والسواد جميعه يبقى بايديهم يأخذون منه ماارادوا من الميرة لامر يريده الله تعالى بهم فعبر طائفة من المسلمين الى الارض التي عليها الافرنج ففجروا النيل فركب الماء اكثر تلك الارض ولم يبق للفرنج جهة يسلكون منها غير جهة واحدة فيها ضيق · فنصب الملك الكامل حينئذ الجسور

١ــ الخطط ج ١ ص ٢١٥ ·

على النيل عند اشمون عبرت العساكر عليها فطك الطريق الذى يسلكه الفرنج ان ارادوا العودة الى دمياط فلم يبق لهم خلاص "١ واتفق في تلك الحال ان وصل مرمة كبيرة للفرنج وهي مركب كبير وحوله عدة حراقات تحميه والجميع مملوء من الميرة والسلاح — والازودة وجميع مايحتاجون اليه . فوقع عليها شواني المسلمين وقاتلوهم قتال الابطال وظفروا بجميع المراكب واخذوها بما فيها . فلما رأى الفرنج ذلك سقط في ايديهم ورأوا انهم قد ضلوا الصواب لمفارقة دمياط في ارض يجهلونها . هذا وعساكر المسلمين محيطة بهم يرمونهم بالنشاب ويحطون على اطرافهم . فلما اشتد الامر عليهم احرقوا خيامهم ومجانيقهم واثقالهم وحملوا على المسلمين حملة واحدة يريدون العودة الى دمياط ولكن جيش المسلمين ثبت لهم وردهم على اعقابهم خائبين فلما راوا انهم محصورين والوحل والماء والعساكر محيطة بهم قل املهم بالظفر وعولوا على التسليم واخذت المراسلات تتردد بينهم وبين المسلمين على شروط الصلح . وفي اثناء ذلك اقبل جيش كبير له رهج شديد وجلبة عظيمة من ناحية دمياط فتطلعت الاعين اليه وظن الفرنج ان مددا جاءهم وارسلوا يستطلعون الخبر واذا بالملك المعظم صاحب دمشق جاء من طريق دمياط بجيش خضم جرار . فسقط في ايدى الفرنج وايقنوا بالهلاك وعزموا على التسليم وراسلوا الملك الكامل والاشرف بذلك واعترف واستقرت — القاعدة والايمان سنة ٦١٨ هـ على تسليم دمياط يقول ابن الاثير " وانتقل ملوك الفرنج وكنود هم وقماصتهم الى الملك الكامل والاشرف رهائن على تسليم دمياط ... وسلموها الى المسلمين تاسع رجب المذكور وكان يوما مشهودا"٢ .

هكذا تم للايوبيين التغلب على الفرنج باتحادهم جميعا ومناصرة بعضهم البعض وتآزرهم في اخراج الصليبيين من مصر بعد ان اوغلوا في البلاد المصرية واستطار شرهم فيها واملوا التغلب عليها . ولكن بهمة الملك الكامل ومساعدة الملك الاشرف والمعظم له تمكنوا من التغلب على ذلك العدو الدخيل .

وفي سنة ٦٤٧ هـ اعاد الفرنج الكرة على دمياط في زمن السلطان الملك الصالح نجم الدين ايوب واستولوا عليها وقام بينهم وبين المسلمين قتال عنيف اشترك فيه — مراكب الطرفين . وتمكن الايوبيين اخيرا من التغلب على الصليبيين واسر ملكهم وجماعة

---

١ — الكامل ج ١٢ ص ١٣٦ / ٢ — نفس المصدر ج ١٢ ص ١٣٦ والخطط ج ١ ص ٢١٥

كثيرة من اصحابه واستردوا دمياط منهم واعادوها لنفوذ المسلمين ١ .

ولتكرر هجمات الفرنج على دمياط واخذهم لها اتفق ارباب الدولة بمصر سنة ٦٤٨ هـ على تخريبها خوفا من مسير الفرنج لها مرة اخرى فسير الاشرف موسى بن الملك المسعود الفعلة والحجارين اليها وهدموا اسوارها وخربوا البلد عن آخرها ومحيت آثارها ٢ . وعند استيلاء الملك الظاهر بيبرس البندقداري الصالحي على مصر سير الى دمياط سنة ٦٥٩ هـ كثيرا من الحجارين وردم فم بحر دمياط والقوا الاحجار في بحر النيل الذى ينصب في شمالي دمياط في البحر الملح حتى ضاق وتحذر دخول المراكب الكبيرة من البحر الى دمياط ، وصارت البضائع تنقل الى داخل البلاد بواسطة مراكب نيلية صغيرة ٣ ثم عمرت دمياط فيما بعد بالتدريج ورجعت ثغرا مهما لمصر . ٤

اخيرا قضي على حكم الايوبيين في بلاد مصر والشام واهمل امر اسطولهم الذى ازدهر وقوى زمن السلطان صلاح الدين . ثم انمحت معالمه بالتدريج مع انحلال هذه الدولة ولم يعد الى نشاطه وحيويته من جديد الا عند ظهور دولة المماليك .

الفصل الثامن

غزوات الاسطول في زمن المماليك

ان اهم الاعمال الحربية التي قام بها المماليك هي طرد الصليبيين من ساحل بلاد الشام وغزوهم لجزيرة قبرص . ولم ينجز المماليك العمل الاول — وهو طرد الصليبين من بلاد الشام — بواسطة قوى الجيش فحسب بل استعانوا بالاسطول لدعم جيشهم البرى حتى تمكنوا من تخليص هذه البلاد من ضغط الصليبيين يقول ابي الفداء عن الملك الاشرف في حوادث سنة ٦٩٠ هـ مايلي " وتكاملت بهذه الفتوحات جميع البلاد الساحلية للاسلام وكان امرا لايطمع فيه ولا يرام وتطهر الشام والسواحل

---

١ — الخطط ج ١ ص ٢٢١ / ٢ — نفس المصدر ج ١ ص ٢٢٣ /

٣ — نفس المصدر ج ١ ص ٢٢٤ / ٤ — نفس المصدر ج ١ ص ٢٢٤ .

من الفرنج بعد ان كانوا قد اشرفوا على اخذ الديار المصرية وعلى ملك دمشق وغيرها من الشام فلله الحمد والمنة على ذلك " ١ الا ان بقاء الصليبيين في بعض جزر — البحر المتوسط القريبة من ساحل الشام ومصر كان حسكة في فم المماليك ينغص عيش السلاطين ويقطع على المراكب التجارية المواصلات البحرية فيما بين الثغور والمدن — الساحلية مما حدا بسلاطين المماليك للقيام بعدة محاولات لغزو تلك الاعشاش التي سكنها الصليبيون وتمركزوا فيها ٠ واهم هذه المحاولات لفتح تلك الجزر واخضاعها لحكمهم هي التي جرت زمن السلطان بيبرس الذى عمر اسطولا سنة ٦٦٩ هـ وارسله بقيادة ابن حسون لفتح جزيرة قبرص الا ان هذه الحملة باءت بالفشل وتكسرت معظم شواني الاسطول واسر كثير من رجاله ٠ ولما بلغ السلطان بيبرس خبر الهزيمة قال " الحمد لله منذ ملكني الله تعالى ماخذل لي عسكر ولا ذلت لي راية وما زلت اخشى العين فالحمد لله تعالى بهذا ولا بغيره وامر بانشاء عشرين شونة واحضر خمس شواني كانت على مدينة قوص من صعيد مصر ٠٠٠" ٢ ٠

انتهت هذه المحاولة بفتح قبرص بالفشل وعمر السلطان بيبرس اسطولا عوضا عن الذى تكسر ليحافظ به على سواحل بلاده ٠ وانتهى ذلك الحكم الذى كان يفكر فيه ٠ ولما كان سلطنة الملك الناصر محمد بن قلاوون جهز سنة ٧٠٢ هـ اسطولا اعده بالسلاح والذخيرة وعين له جماعة من اجناد الحلقة وندب الامير سيف الدين كهرداش المنصورى الزراق للسفر بالاسطول فسار به الى طرابلس والتحقت به مراكب عدة من ذلك الثغر وهاجم جزيرة ارواد من اعمال قبرص يقول المقريزى " وقاتلوا اهلها وقتلوا اكثرهم وملكوا في يوم الجمعة ثامن عشرى صفر واستولوا على مافيها وهدموا — اسوارها وعادوا الى طرابلس واخرجوا من الغنائم الخمس للسلطان واقتسموا مابقي منها وكان معهم نحو مائتان وثمانون اسيرا فسر السلطان بذلك سرورا كثيرا " ٣

اذن تمكن المسلمون من مهاجمة بعض اعمال قبرص وهي جزيرة ارواد وظفروا وغنموا منها وعادوا سالمين ٠ الا انه لم يتمكنوا من مهاجمة قبرص نفسها الا في زمن السلطان بارسباى فانه ارسل سنة ٨٢٧ هـ اسطولا اجتمعت مراكبه في طرابلس ذلك الثغر الذى اصبح مجمع الغزاة ٠ يجتمعون فيه ويخرجون منه للغزو ثم يعودون اليه ٠ يقول صالح

---

١ — المختصر ج ٤ ص ٢٥ / ٢ — الخطط ج ٢ ص ١٩٤ / ٣ — الخطط ج ٢ ص ١٩٥

ابن يحي الذى كان حاضرا تلك الوقعة ومقدما على احدى الاغربة بان عدد المراكب التي غزت الجزيرة كان اربعون قلعا ويحدد انواعهم بقوله : " واجتمعوا المراكب كلها في طرابلس وهم ست حمالات وعشرة اغربة كبار وصغار وست مراكب قراقير ومركبين مخروط كبار واثني عشر زورق وست بنوف صغار فكانوا اربعين قلعا " ١

وصلت مراكب المسلمين الى جهة الماغوصة ونزل الجند منها الى البر فنهبوا تلك الجهة وبذل لهم متملك الماغوصة — وكان جنوى الاصل — طاعته للسلطان وعرفهم بتهيأ صاحب قبرص واستعداده لقتاله ٢ فعاد المسلمون الى مراكبهم وتوجهوا جهة الملاحة ونزل ثلاثمائة منهم الى البر في مكان يسمى رأس العجوز فوجدوا الارض هناك خالية قفراء لاسكان ولا منازل بها • فعاد الجند الى مراكبهم • ثم جاءت تعميرة صاحب قبرص يقول صالح بن يحي " وهي اثني عشر غراب ومركب كبير من الاغربة اربعة كبار وثمانية صغار " ٣ فهاجمها اسطول المسلمين فلم تستطع الثبات في وجهه ولجأت الى الهرب يقول صالح بن يحي " ثم رجعنا على تعميرة صاحب قبرص وكان الريح علينا وهم فوق الريح كفاف مجردين للمشي بالمقاذيف ولم نقدر على لحوقهم لسرعة مشيهم • ونهار الخميس قد كشفنا عسكر الملك في البر ونحن في البحر ولم نتحققه " ٤ • وقد ارسل ملك قبرص اخاه هنري ديلوسنيان مع جيش في البر وارسل التعميرة في البحر لمحاربة المسلمين يصف صالح بن يحي ماجرى بين الطرفين من الحروب فيقول " وكان قد نزل من مراكبنا جماعة الى البر سباحة عريا فحضر اليهم فرقة من خيالة الفرنج الى الشط ومن عادة الفرنج لايعرف الرمي بالقوس الطويل ولا خيالته تشيل معهم القسي فرموا المسلمين على خيالة الفرنج بالحجارة فرموهم • ثم عادوا الفرنج على المسلمين فنزلوا في البحر سباحة وصار هذا دأبهم ساعة فلما رأوا المسلمين ذلك نزلوا من اعيان شجعانهم قريب من الف رجل امراء ومماليك سلطان ومماليك امراء جميعهم مشاة لانه تعذر عليهم سرعة نزول الخيل على الفور وكان الامراء اعجل من ذلك فبادروا الى النزول مشاة وتركوا الاشتغال بالخيل لما فيه من التطويل بتقديم المراكب الى البر وفتح ابوابها ونصب السقايل ونزلوا في القوارب والشخاتير فلما

---

١ — تاريخ بيروت ص ٢٢٢ / ٢ — النجوم ج ٦ ص ٥٩١ / ٣ — تاريخ بيروت ص ٢٢٢ —
٤ — نفس المصدر ص ٢٢٢ •

صاروا في البر قاتلوا خيالة الفرنج مشاة وقتلوا منهم خلق وقطعوا رؤوسهم وجعلوا على اسنة رماحهم ليروها من في مراكب المسلمين . فانهزمت خيالة الفرنج بين يدى مشاة المسلمين . واما نحن في المراكب فتقدمنا الى مراكب الفرنج ورمينا عليهم بالمدافع ساعة ورموا علينا ايضا . فبعد ذلك ساعدنا الريح عليهم ومشينا اليهم بالقلوع فهربوا منا ولم نقدر على لحوقهم لسرعة مشيهم بالمقاذيف وتوقفنا نحن عن شحتهم خوفا على السرية التي لنا في البر. ثم تقدمنا الى البر ونلنا السرية بعدما استظهروا على خيالة الفرنج " ١

انتهى ذلك اليوم وقد هزم المسلمون فيه خيالة الفرنج في البر وهزموا مراكبهم في البحر وفي اليوم الثاني تشجع المسلمون ونزلوا ينهبون في الجزيرة ويأخذون — مايجدونه من رجال ونساء وامتعة يقول صالح بن يحي " فلما سمعت المسلمين ذلك تباشرت بالنصر وطابت قلوبهم وتمكنوا من النهب والاسر . فصار بايديهم .قريب سبعمائة اسير كبير وصغير ونساء ورجال . وحصل بيدهم خمس عجلات تجرها البقر عليهما مدافع وسلاح احضروها ليقاتلوا بها مراكب المسلمين " ٢ ثم توجه المسلمون بعد ذلك الى جهة اللمسون فهاجموا حصنها وملكوه ، ونهبوا واسروا من كان فيه ، وقتلوا كثيرا من رجال ذلك الحصن ، وخربوا اقسامه العليا ورجعوا ظافرين الى دمياط فكان دخولهم لمصر دخول الفاتحين العظام ظافرين محملين بالغنائم والاسرى ٣ .

انسر اهالي مصر وقاموا بالافراح وازين واشترك الجند والعامة بهذا النصر الكبير واظهروا فرحهم وغبطتهم ، سوى السلطان بارسباى الذى كان مؤملا باستيلاء جنده على الجزيرة وفتحها فتحا دائما اذ ان مطامعه لم تكن تنتهي عند هذه الظواهر — السطحية من الاستيلاء على بعض الغنائم والاسلاب لذلك عاد في السنة التالية وجهز اسطولا جديدا للقضاء على نفوذ الفرنج من شرق البحر المتوسط . فامر بعمارة — حمالتين كبيرتين في بيروت وحث متولي عمارتهما شعبان البعموري احد الحجاب بدمشق بالاسراع بانجازهما واحضارهما الى ثغر دمياط لشحنهما بالرجال والمقاتلة . فسافر صالح بن يحي في احدى هاتين الحمالتين وسافر ايضا فيهما مايزيد عن ثلاثمائة رجل

١ــ تاريخ بيروت ص ٢٢٣ / ٢ــ نفس المصدر ص ٢٢٤ / ٣ــ نفس المصدر ٢٢٣ .

بحرية ومقاتلة الى دمياط سنة ٨٢٩ هـ ١ وندب بارسباى لهذه التجريدة عددا كبيرا من امراء الامور واعيان الخاصكية واضاف اليهم بعض اعيان دمشق وغيرها وجندا غير يسير من البدو وامر بان يكون اينال الجكمي على رأس من في البحر وتغرى بردى المحمودى على قيادة من في البر وان لايعارض احدهما الاخر ٢ . وتوجهت تلك التجريدة الى جزيرة قبرص ويقول ابن تغرى بردى عن عدد المراكب التي اشتركت في هذه الغزوة " كان عدة مراكب الغزاة المصريين والشاميين زادت على مائة قطعة وقيل ٢٠٠ وقيل اكثر او اقل مابين اغربة وقراقير وزوارق وغير ذلك " ٣ . اما الظاهرى فيقول ان عددها كان ١٨٠ ولكنه يذكر بينها البرصانيات والحماطي والقوارب ٤ لذلك يصعب تحديد مراكب هذه التعميرة لانه اعتبار العدد عند المؤرخين بحسب اعتبار القوارب والزوارق التي تلحق بالاسطول فيما اذا كانت في عداد الاسطول ام انها مما يضاف اليه ولا تستحق الذكر .

خرجت مقدمة هذه التعميرة من ميناء الرشيد كطليعة للاسطول فلقيت اربع مراكب للفرنج فاشتبك القتال بينهما . فتراموا طيلة ذلك اليوم بالنشاب واقتتلوا ايضا صبح اليوم التالي الى ان وصل بقية مراكب المسلمين فانهزم مراكب الفرنج ولجأوا للفرار ٥ ثم تابع الاسطول مسيرة الى قبرص واخذ المسلمون حصن اللمسون وانقسم الجند فرقة بالبحر واخرى بالبر . اما التي سارت بالبر فانها لقيت عساكر قبرص وكان معها ملك تلك الجزيرة فاقتتل الفريقان وانتصر المسلمون وقبضوا على الملك صدفة وهم لا يعرفونه وقتلوا اخاه في الحرب واستولوا على جزيرة قبرص يقول صالح بن يحي " فطلعوا الى مدينة الافقسية Nicosie وهي كرسي مملكة قبرص فاحرقوا دار الملك وبعض اماكن من دورها وخربوا قرايا كثيرة ووقع في ايديهم من الاسرى والنهب شيء كثير ولكنهم لم يقيموا في قبرص الا ايام قلائل وعادوا الى دمياط قبل العيد" ٦ وكان دخولهم الى القاهرة في شوال سنة ٨٢٩ هـ من اعظم الايام التي مرت على مصر لما قام من

١ـ تاريخ بيروت ص ٢٢٦ / ٢ـ النجوم ج ٦ ص ٦١٥ وتاريخ بيروت ص ٢٢٧ / ٣ـ النجوم ج ٦ ص ٦١٥ / ٤ـ الظاهرى ص ٣٣٢ / ٥ـ النجوم ج ٦ ص ٦٠٣ / ٦ـ تاريخ بيروت ص ٢٢٨ .

الزين والافراح والاعياد . وقد اعيد ملك قبرص الى ملكه بعد ان تعهد بدفع فدية قدرها مائتي الف دينار يقوم ببعضها قبل الافراج عنه وبالبعض الاخر بجهزه اذا صار ببلاده وقرر عليه غير ذلك خمسة الاف دينار تحمل الى الحرمين الشريفين مكة والمدينة وقد تحمل البنادقة في مصر وقنصلهم دفع مائة الف دينار من الفدية ١ .

هكذا تمكن بارسباى من قهر ملك قبرص وضم الجزيرة لملكه وبذلك تحقق الحلم الذى بدأ به بيبرس وتم على يد بارسباى . وبذلك تأمن طريق البحر لتجار المسلمين وصاروا يغدون ويروحون دون ان يعترضهم احد .

بذلك انهي كلامي عن اسطول المماليك وعن اسطول العرب . راجيا ان اكون قد وفقت في محاولتي لعرض سيرة ذلك الاسطول الذى لعب دورا هاما في الاعمال البحرية زمن القرون الوسطى . وقد تبين لى بعد البحث عن اعمال الاسطول الحربية انه لم تكن اعماله بحالة واحدة في جميع ادواره بل كان يتطور بتطور حالة الدول من قوة وضعف . وعلى العموم فقد كان لذلك الاسطول شأنه واهميته في العصور السالفة وتغلب كثيرا على القوى البحرية المعروفة في الزمن القديم عند الامم التي عاصرت العرب . ولا شك ان هناك مجالا اوسع للبحث عن الاسطول العربي في العصور التي تطرقت اليها ، ومجالا لتكملة هذا البحث بدرس اسطول العثمانيين والخديويين ليكون لنا تاريخا كاملا للاسطول منذ اول نشأته الى يومنا هذا .

××××××××××××××××××××××

١ـ تاريخ بيروت ص ٢٢٨ .